الطبعة الثانية

أشرف الخمايسى

14.2.2014

مَنافِي الرَّب

رواية



الحضارة للنشر

أشرف الخمايسى

مَنَافِى الـــرَّب

(رواية)

أشرف الخمايسى: مَنَافِى الـرَّب (رواية)

الحضارة للنشر
7 شارع أبو السعود - الدقى 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الثانية: مايـو 2013

رقم الإيداع بدار الكتب 3490 /2013
I.S.B.N. 978-977-476-161-8
الغلاف تصميم: حسين محيي

مَنَـافِي الـــــرَّب

إلى الإنسان

على الرُّغم من أن الموت كان يتعمَّد أن يطل على الإنسان من كل ناحية في حياته، ويصدر صخبا مثل صدى لا ينتهي تردُّده، إلا أن الإنسان عاش حياته يتمتَّع بأبهج ما أُتيح له منها، وكانت قمَّة انتصاره على الموت، أن حوَّله إلى ملاذ أخير يسعى إليه إذا قست عليه الدُّنيا.

1

الـرُّؤيَا

الجو ضبابى، ليس واضحا تماما إن كان الوقت نهارا أم ليلا، لكن الذى اتَّضح تماما لـ"حجيزى" أنه يجلس مستندا إلى ناقته المنيخة، فى صحراء تحفُّها بساتين نخيل متفرقة، وأنه يأكل أول تمرة من تمرات ثلاث كانت فى كف يده اليسرى.

وفور أن انتهى من أكل التَّمرات الثَّلاثة، سمع صوت "سعدون" يعلو من فوق سطح المسجد بأذان الفجر، فصحا من النَّوم، وحلاوة التَّمرات مازالت عالقة فى فمه.

همس فرحا: هل عاد "سعدون" ليؤذِّن للصَّلوات مرَّة أخرى؟

وهمس: عموما هذه رؤيا حق، طالما أنها لامست الفجر، ولها تفسير.

اندهش عندما رأى نفسه يخرج من بيته، فالأيام أيام صيف، وهو فى الصَّيف ينام غالبا على المصطبة الصَّخرية أمام البيت، ليس بداخله، لكنَّه لم يهتم بالأمر طويلا، لأن تفسير الرّؤيا شغل عقله، حتى أنه بدلا من أن يذهب إلى المسجد كعادته ليصلِّى الفجر جماعة، انطلق إلى الصَّحراء، ومشى فيها طويلا، وراعه أنه عادة بعد الفجر بقليل، يبدأ نور الصباح فى إضاءة الدنيا، لكن ها هو قد مشى طويلا طويلا فى الصَّحراء، وما زالت الدنيا عتمة، وكأنها ظلام قلب الليل.

ووصل إلى جبل ضخم، فى سفحه تراصَّت أشجار فواكه مختلفة، بينما ارتشقت فيه العديد من الكهوف، أمام أحدها وقف الرَّاهب "يوأنَّس" فى فتحة مدخله، طويلا، نحيلا، عجوزا، تنسال لحيته البيضاء مثل حرير، ويُرقِّص الهواء الشُّعيرات النَّابتة فى صلعته الَّلامعة، يقف مستندا إلى عصاه التى اتَّخذها من أغصان شجرة، كأنه ينتظر قدومه.

ارتفع صوت الراهب "يوأنَّس"، عميقا، جَهْوريا: يا "حجيزى"، أكلت آخر ثلاث تمرات من زادك، يبقى لك من أيَّام حياتك ثلاثة أيَّام، وتموت.

وارتفع صوت "مزيد" بأذان الفجر، قويًّا ومشرقا، فانتفض "حجيزى" فى فراشه، لكنَّه اعتدل كما يعتدل أى رجل عجوز، ببطء وحذر، بينما عيناه تلمعان بما رأى فى منامه، وقلبه يدق بعنف.

هذه رؤيا عجيبة، وقاسية، لم تترك أيَّة فرصة للتفسير، أو لمحاولة تأويلها بشكل يساعد "حجيزى" على الهروب من هذا المصير الذى رسمته له، الموت.

*****

كان نائما على المصطبة الصَّخرية أمام البيت عندما داهمته هذه الرّؤيا، يُفضِّل النوم على هذه المصطبة فى ليالى الصيف، وفى بعض الليالى يرغب فى النوم على حصير مغطَّى ببشكير قطنى فى الخلاء وراء البيت، ومرَّات قليلة جدًّا يصعد الدَّرج الضَّيق إلى السطح، لينام على الدِكَّة التى تعلوها سقيفة صغيرة من جريد النخيل المجفَّف بحرارة الشَّمس.

وفى داخل البيت له غرفة نوم، ينام فيها مع زوجته "سريرة"، لكنَّه هجر هذه الغرفة منذ أعوام لا يعرف عددها.

لذلك إذا حل الصَّيف ينام فى هذه الأماكن.

وفى الشِّتاء لم يكن متوفِّرا له سوى مكان واحد، "الدِّكَّة" التى خلف بوَّابة البيت، حيث المكان متسع، لكنَّه رغم اتِّساعه محكم الغلق، ومسقوف جيِّدا، ثم إنه دائما يكون دافئا، إثر النَّار التى كانوا يشعلونها للتدفئة فى "قروانة" خُصِّصت لهذا الأمر، فلمَّا تخبو فى نهاية السَّهرة، لا يخبو دفؤها، ويتغطَّى "حجيزى" ببطَّانية ثقيلة، وينام.

لكن لمَّا داهمته هذه الرّؤيا القاسية، كان الفصل صيفا، والليلة حارة، وكان نائما على المصطبة الصَّخرية أمام البيت.

عيناه هما اللتان استجابتا لهول الرّؤيا بسرعة بالغة، فانفتحتا من نومهما بسرعة ونشاط، ومن دون التكاسل المعتاد لعينين تنفتحان بعد استيقاظ عادي، لكن بقيَّة جسده لم يكن يملك المواصفات المناسبة التى تمكِّنه من هبَّة سريعة تتناسب مع هول هذه الرّؤيا، كان جسده عجوزا، وقديما جدا.

كان يسمع ولده "بكير" وهو يتحدَّث أحيانا مع بعض رفقائه، ويتباهى : "حجيزى" عمره أكثر من مائة عام.

ويتباهى "بكير" لأن آباء كثيرين أعمارهم أقل من سبعين سنة، ومع ذلك رقدوا فى البيوت من غير حركة، واستسلموا لأنواع شتَّى من الأمراض الخسيسة التى يحلو لها اصطياد هؤلاء العواجيز الضُّعفاء.

لكن "حجيزى" عمره مائة عام، ومازال قادرا على رعى الأغنام، والمشى بها إلى المراعى البعيدة فى الصَّحراء، بل وما زال يستطيع ركوب الجمال، والسَّفر إلى "موط" فى رحلة ذهاب وعودة قد تستغرق أياما طويلة.

ورغم كل ذلك، لم يكن هذا الجَّسد القديم مستعدا لِهبَّة سريعة إثر استفاقة خاطفة بسبب رؤيا قاسية.

لذلك اعتدل "حجيزى" ببطء وحذر.

صوت "مزيد" صافيا وهو يكمل الأذان: الصَّلاة خير من الموت، الصَّلاة خير من الموت.

اندهش "حجيزى"، وشعر أنه ما زال يكمل أحداث الرّؤيا، وإلَّا لماذا يقول"مزيد": الصَّلاة خير من الموت؟! أنا أسمعه فى كل فجر يقول الصَّلاة خير من النَّوم!

صياح الديوك على أسطح البيوت فى "الوعرة" يتردَّد مع أذان "مزيد"، وكذلك نباح ممدود لكلاب ناعسة يشبه عواء ذئاب، كما أن عصافير قليلة بدأت تشقشق فى شجرة "الجميز".

أمسك "حجيزى" بعمامته ووضعها متهالكة على رأسه الأصلع، وكان يقول لنفسه: أنا مستيقظ الآن أم أنا نائم؟

ظهرت الحيرة على وجهه. وتمنَّى فى قرارة نفسه لو أنه ما زال نائما، وأنه يحلم، حتى تجرى به رؤياه فى مجرى لا يكون تفسيره عند الصَّحو حتمية موته.

أدار رأسه ونظر إلى النَّاحية التى رأى نفسه ينطلق منها منذ قليل إلى الصَّحراء، حيث جبل الرهبان، وكهف الرَّاهب "يوأنَّس".

"يمكن أكون عدت الآن من عند هذا الرجل، طيِّب كيف؟! المسافة بينك وبين جبل الرهبان أطول من ارتحال يومين على النّوق! ثم هل هناك أحد يعود من مشوار فيجد نفسه نائما على المصطبة؟! يجوز فقط فى الرّؤى

والأحلام! طيِّب، هل يظل الواحد فى الأحلام يفكِّر إن كان مستيقظا أم نائما؟!"

عينا "حجيزى" ليستا أكثر من ثقبين، تدلَّى عليهما جلد متهدِّل، لكنَّه كان يرى بهما جيدا، فنظر حوله فى محاولة أخيرة ليتأكَّد من أنه هل هو مستيقظ الآن أم نائم.

رأى البيوت فى غبشة الفجر، ورأى شجرة "الجميز" أمام بيته، ورأى كلبا يمضى بنشاط فى النَّاحية البعيدة من الطريق.

همس: أنت صاحٍ يا "حجيزى"، لا تكون البيوت والأشجار والكلاب واضحة مثل هذا الوضوح فى الرّؤى.

كانت قدماه تتحسسان الأرض بحثا عن حذائه، عندما فُتحت بوَّابة البيت، وخرج منها "بكير".

شاب فى أوائل أربعينيات عمره، يرتدى الجِّلباب الأبيض القصير ذى الأكمام الطَّويلة، وسروال أبيض بالكاد يصل إلى عقبيه، يضع عمامة، بدت ملقاة على رأسه كيفما اتفق.

خرج "بكير" ليصلِّى الفجر، كان يغالب النَّوم، لكنَّه اندهش لمَّا رأى والده "حجيزى" مازال جالسا على المصطبة، هو عادة يسبقه إلى المسجد.

قال "بكير" بصوت نعسان: صباحك خير يا "حجيزى".

همهم "حجيزى" وهو ينحنى للأمام ليقوم واقفا: خير صباحك.

لكن "بكير" كان نعسانا، فلم يستطع أن يمد الكلام مع والده ليعرف منه سبب تأخره هذه المرَّة عن الذِّهاب إلى المسجد، فكَّر فى أن الأمر لن يعدو أن أباه قد أخذته نومة عميقة أخَّرته عن الصَّحو، فمضى مبتعدا.

كان المسجد قريبا، ليس أبعد من مائة خطوة من خطوات "حجيزى" الضَّيقة الآن.

*****

عادة "حجيزى"، بعد أن يسمع أذان الفجر، النهوض وهو يتمتم بدعاء الإستيقاظ من النوم، الذى تعلَّمه مؤخَّرا من الشيخ "مزيد" إمام المسجد "الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور"، ثم يضع قدميه فى حذائه.

فى كل مرة يضع قدميه فى حذائه، يشعر بألم شديد يجتاحهما، كان الحذاء قديما لدرجة حوَّلت جلده المُتَيبِّس إلى ما يقارب قطع من صفائح حديد رقيقة، تؤلم من غير أن تخدش، ورغم كرهه لهذا الحذاء، إلا أنه يصر على انتعاله، ثم يمضى بخطوات متثاقلة إلى المسجد.

كان المسجد مثل "حجيزى"، قديما، وكان مثله، رغم قدمه ما زال قادرا على القيام بمهامه.

يدخل أوَّلا إلى إحدى دورات مياهه، تلك التى هى عبارة عن مجرد فتحة صرف تؤدِّى إلى بئر لا تمتلئ أبدا، على جانبى هذه الفتحة لبنتان من الطُّوب الأحمر ثُبِّتَتا بالأسمنت، يضع الإنسان عليهما قدميه، ثم يجلس يقضى حاجته، وبعد أن ينتهى، ينظِّف نفسه من ماء يملأ ماجورا فخَّاريا، يطفو عليه "كوز" من مخلَّفات علب السَّردين الفارغة، التى تم تهيئتها لهذا الغرض.

يخرج من دورة المياه، فيخلع حذاءه، ويخطو إلى الميضأة.

يفتح صنبورا، فيأتيه الماء من الصِّهريج الموضوع فوق سقف المسجد، ويتوضَّأ، وبعد أن يفرغ من وضوئه، يجفِّف أعضاءه المبتلَّة بطرف جلبابه،

وهو يهمس: "أشهد ألَّا إله إلا الله وأن محمَّدا عبده ورسوله"، ثم يدلف إلى صحن المسجد.

يلقى السلام على المُصلّين الجالسين ينتظرون إقامة الصَّلاة، فيَردُّون تحيته بأصوات مستكينة ناعسة، ثم يشرع فى صلاة ركعتى الفجر، وما إن ينتهى منهما حتى يكون الشيخ "مزيد" قد أقام الصَّلاة، فيصطف المصلُّون القلائل فى صفَّين أو ثلاثة، ينضم إليهم "حجيزى"، ويعلو صوت "مزيد" بتكبيرة الإحرام: الله أكبر.

لكن هذه المرَّة، صحا "حجيزى" وقلبه هلوعا، فنسى أن يقول الدُّعاء الذى علَّمه له "مزيد"، ومضى إلى المسجد مدووشا وكأن مطرقة ضخمة ضربت رأسه.

ولم يدخل إلى دورة المياه، ولم يتوضَّأ، وإنما دخل المسجد من بابه الرئيسى المطل على الشَّارع، ولم يلق السَّلام على أحد، وإنما وقف فى منتصف المسجد ورفع يديه، وقال: الله أكبر.

ودخل فى الصَّلاة.

صحن المسجد ضيق، وجدرانه المبنية بالطوب اللَّبِن غزتها الشروخ، كانت الشروخ تبدو أكبر من حجمها الحقيقى بسبب لون الجير الذى طُليت به الجدران حديثا، اللَّون الزَّهرى الفاتح، لون السَّماء الصَّافية فى ضحى شتوى.

علت همهمة فى المسجد غير معتادة من المُصلّين، هؤلاء الذين يجلسون فى كل فجر هذه الجلسة، ينتظرون الصَّلاة، وهم يغالبون النُّعاس، فيسيطر عليهم الصَّمت.

"حجيزى" يصلِّى وهو يُنقِّل عينيه ما بين المنبر المبنى بالطُّوب اللَّبِن أيضا، وبين "مزيد" الجالس مستندا إلى جدار المنبر، معطيا جنبه الأيمن للقبلة.

"مزيد" ينظر إلى "حجيزى" وهو يبتسم، والمُصلُّون تعلو همهماتهم أكثر وأكثر، وثمَّة ضحكة نبتت بين الهمهمات.

"حجيزى" وهو واقف يصلى، أدار رأسه ببطء ينظر حوله بعينين حائرتين، فرأى عيونا ترمقه بغضب، وعيونا ساخرة، وعيونا ضاحكة.

"مستحيل أن أكون مستيقظا. أنا مازلت فى الرّؤيا".

كان "مزيد" يشير إليه بذراعه الأيمن، كأنَّما يريد أن ينبهه إلى شىء، وكان يشير إلى أسفل منه، إلى قدميه، لكن "حجيزى" مشى نحو "مزيد" ببطء يناسب المشى فى الرّؤى، وعندما وصل إليه قال "مزيد" هامسا: يا عم "حجيزى" تدخل المسجد والخف فى قدميك؟!

نظر "حجيزى" إلى قدميه فوجد الحذاء، فابتسم، وقال لنفسه: الحمد لله. أنا إذن مازلت أحلم.

وانقلبت عينا "مزيد" من عينين باسمتين إلى عينين متعجبتين. ثم انفتح فمه مشدوها لما سمع "حجيزى" يقول له: لماذا كنت فى الأذان تقول الصَّلاة خير من الموت؟!

لم يكن "مزيد" قد قال "الصَّلاة خير من الموت"، فقال مندهشا: أنا قلت الصَّلاة خير من الموت؟!

ونظر حوله، ورفع صوته يسأل الجالسين فى المسجد يهمهمون: أنا أذَّنت وقلت الصَّلاة خير من الموت؟!

ولم يرد أحد بكلام، وإنما ردُّوا بالصَّمت، بينما نظراتهم تتصادم مستغربة.

وعاد "مزيد" ونظر إلى "حجيزى" مبتسما، كانت إبتسامته هذه المرَّة محمَّلة بكلام يعنى "يبدو أنك كبرت وخَرُفت يا حجيزى"، وبينما يستدير ليمضى مبتعدا، قال "مزيد": مالك يا عم "حجيزى"!؟

وعندما وصل إلى باب المسجد ليخرج، سمع صوت "مزيد" يهتف بنفس النَّبرة المندهشة: إلى أين يا عم "حجيزى"؟! لم نُصلِّ الفجر بعد!

نظر "حجيزى" للوراء، كان النَّاس قد لَوَوا أعناقهم برءوسٍ عيونُها امتلأت بالحيرة. ثم خرج.

*****

لا يترك "حجيزى" صلاة الفجر أبدا فى المسجد طالما هو فى "الوعرة"، وله مكان فى الصَّف لا يتركه أبدأ، خلف العامود الكبير، الوحيد، فى وسط صحن المسجد، يصلِّى بمحاذاة هذا العامود، ثم إذا فرغ من الصَّلاة، يزحف على يديه وركبتيه مسافة خطوة واحدة، ليجلس مستندا بظهره إلى قاعدة العامود المربَّعة، لكنَّه لم يكن يفعل ذلك فور انتهائه من الصَّلاة.

كان إذا سلَّم التَّسليمة الثَّانية، وهو ينظر إلى يساره، لا يدير وجهه للأمام قبل أن يتكلَّم مع من يوقعه حظُّه العاثر فى الصَّلاة إلى يساره.

مرَّة قال لـ"غنيمة": رائحة فمك رائحة جيفة كلب يا أبخر.

ومرَّة قال لـ "حمد": تقف تدوس بقدمك التى مثل حافر حمار على قدمى.

وفى مرَّة قال لـ "سعدون": تأكل تأكل تأكل ثم تدخل الكنيف تخرأ ساعة!

ثم مضى على يديه وركبتيه ليستند إلى العامود، وكان "سعدون" يقول: أنا لا أقعد أخرأ فى "الكنيف" ولكن تأخذنى نومة.

ورغم أن "حجيزى" قد بدأ يهمهم بتسابيح أذكار بعد الصَّلاة، إلَّا أنه قطعها، وقال بغيظ : لا تخرأ من مؤخِّرتك فى "الكنيف"، وتبقى تخرأ من فمك وأنت تصلِّى بجوارى!

ولأن "سعدون" هو أيضا رجل عجوز جاوز الثمانين من عمره، فإنه لم يتحمَّل كلام "حجيزى" وقال : ما أحد يخرأ من فمه وهو يصلِّى غيرك يا "حجيزى".

حدَّق "حجيزى" فى "سعدون" مقطِّبا جبينه، ثم قال: أنت يا "سعدون" كذاب وابن كلب.

اشتدَّت المشاكسة بين العجوزين، وعلا صوتاهما، لكن بقى "حجيزى" مستندا إلى قاعدة العامود، وبقى "سعدون" جالسا راكعا على ركبتيه، بينما صوت ضحكات خافته يخرج من صدور المُصلِّين القريبين منهما، وهناك عند المنبر، بقى "مزيد" جالسا مستندا إليه، يراقب ما يحدث حتى يتدخَّل فى الوقت المناسب.

حزَق "سعدون" بصوت غاضب: أنا كذَّاب وابن كلب؟!

ثم أشار بسبابته إلى عجوز ثالث كان يصلِّى إلى يمين "حجيزى" وهتف: اسأل "غنيمة" يقول لك.

لكن "حجيزى" أخذ يتمتم ببعض التَّسابيح، وقد استغرق فى الهمهمة، وبدا أن الأمر قد انتهى، وتهيَّأ "سعدون" للقيام من جلسته هادئا، وكأنَّه لم يكن

منفعلا منذ دقيقة واحدة، لكن وهو يحاول أن ينصب ظهره، سمع "حجيزى" يقول: "غنيمة" كذَّاب وابن كلب مثلك.

وما أن نصب "سعدون" ظهره، حتى سمع صوت "غنيمة" الذى يخرج يكركب: حاسب يا "حجيزى" ولِمْ حديثك.

وعلت الكركبة الخارجة من حنجرة "غنيمة": يا شيخ "مزيد".

وبينما ينظر "مزيد" إلى "غنيمة" كان "حجيزى" يقول: "غنيمة" بالخصوص فى فمه رمَّة كلب.

وزعق "حجيزى": "غنيمة" بالخصوص أم نسيتم؟!

ضرب "سعدون" الهواء بذراعيه فترجرج جسده البدين المترهِّل، ورفع صوته، وكان "مزيد" متَّجها إليهم وهو يضحك.

قال "سعدون": يشتمنا فى بيت ربنا يا شيخ "مزيد"!؟

قال "مزيد" وهو يرقِّق صوته ناظرا لـ "حجيزى": ما ينفع يا عم "حجيزى" تشتم النَّاس فى بيت الله!

لوَى "حجيزى" شفتيه، بما معناه أن الكلام لا يعجبه، ثم رجع يهمهم بالتَّسابيح، واتَّجه "غنيمة" بخطوات كسولة إلى باب المسجد، يتمايل بجسده الممصوص وهو يتساند على ذراع "سعدون" السَّمين، وابتعد "مزيد" إلى النَّاحية التى فيها أرفف عليها الكتب ذات الأغلفة السَّميكة المذهَّبة، التى يقرأ لهم منها أحيانا فى الوقت ما بين أذان العشاء وإقامة الصَّلاة، وقبل أن يخرج العجوزان من الباب، بالضَّبط وهما يتساندان ليعبرا الحاجز الخشبى الواطئ، علا صوت "حجيزى": "عنز" سندوها على "جاموسة".

علت برطمة "سعدون" وكركبت حنجرة "غنيمة"، وهتف "مزيد" بنبرة لوم: يا عم "حجيزى"!

*****

حتى الشيخ "مزيد" يترك المسجد ويذهب إلى بيته، ويبقى "حجيزى" وحيدا، وليس معه إلا السُّكون، فيسمع بجلاء شقشقة العصافير التى تتهيَّأ ليوم جديد، وتنساب إلى المسجد نسمات لها رائحة البحر، يتعجَّب لرائحة هذه النَّسمات، فليس حول "الوعرة" بحر، ولا حتى بحيرة، حتى ترعة! فمن أين تأتى هذه الرَّائحة المنعشة؟

"لا بد أن هذه الرِّيح الطَّيبة تسافر آتية من عند بحر العلمين".

شقشقات العصافير تبدأ فى الخفوت، وتباشير نور الصُّبح تلوح وهى تزيح الظَّلام من أمام باب المسجد، الشَّمس على وشك الشُّروق.

"من الذى بنى هذا المسجد؟".

يرفع رأسه ويتأمل السَّقف، عالٍ نسبيا، وتحته تقاطعت عروق خشبية غليظة، تدلَّت منها سلاسل حديدية قديمة خبا لمعانها، هل كانت هذه السَّلاسل، زمان، تحمل قناديل زجاجية موشَّاة بألوان متشابكة؟

ثم تَرتَع عيناه فى تجويف القبَّة، تجويف دقيق ومضبوط بالشَّعرة، به فتحات مدوَّرة متناسقة، هى التى يدخل منها النُّور الهادئ إلى صحن المسجد، وهى التى تنفذ منها رائحة ماء البحر، وعلى الرغم من أن القبَّة تبدو من الخارج صغيرة نوعا ما، إلا أن تجويفها يبدو من الدَّاخل شاهقا، ويسحب الرّوح.

"لماذا بنوه بدون نوافذ؟".

ينهض، ويتجه إلى الباب، يرفع إحدى قدميه ليعبر الحاجز الخشبى، ثم الأخرى، فيتلقَّاه النُّور، واحمرار أفق الشِّرق، دقائق وتسطع الشَّمس.

صوت "مزيد" يتمايل فى أذنيه: "اغلق باب المسجد بعد أن تخرج حتى لا تدخل البهائم".

يسحب الباب الثَّقيل وهو يبتسم، فقد كانت تلوح فى عقله صورة الماعز المستندة على ذراع الجاموسة، "سعدون" و"غنيمة" وهما يخرجان من المسجد.

*****

خرج "بكير" مسرعا وراء أبيه، وكانت الدَّهشة التى أصابته وهو يرى "حجيزى" يترك المسجد قبل أن يصلِّى الصُّبح قد طيَّرت النُّعاس الذى يغالبه وهو جالس ينتظر الصَّلاة.

- يا والدى!

كان "حجيزى" قد أيقن أنه مازال يعيش داخل الرّؤيا، فلم يحدث أبدا منذ صار فتى يافعا أن ترك صلاة الفجر فى المسجد، طالما هو موجود فى البلد، ويتركها بهذه الطريقة الغريبة! عندما يحدث هذا فلابد هو يحلم.

"أنا أخرج من المسجد وأترك الصَّلاة؟!"

"أنا كنت أصلِّى ركعتى السُنَّة وقدماى فى الخُف؟!"

سمع نداء "بكير": يا والدى.

"حتى صلَّيتُ من غير ما أتوضأ!".

انبسط وجه "حجيزى" من غير أن يبتسم، طالما أنه ما زال يحلم فهناك أمل فى ألا يكون التفسير النهائى للرّؤية هو الموت حتما بعد ثلاثة أيام.

"لكن هذه أطول رؤيا رأيتها فى منامى! متى تنتهى؟! هذى بقت حكاية وليست رؤيا".

- مالك يا "حجيزى" يا والدى؟ تركت المسجد قبل أن نصلِّى!؟

"حتى صوت بكير مختلفا، عميقا كأنه خارج من بئر".

وارتفع من عند باب المسجد صوت "مزيد" وهو يقيم الصَّلاة، فأمسك "بكير" بيد "حجيزى" يريد أن يستدير به ليعيده إلى المسجد، لكن "حجيزى" سحب يده، ومضى نحو البيت، بينما "بكير" هرول مسرعا عائدا إلى داخل المسجد ليلحق بالرَّكعة الأولى، ووقف فى الصَّف، وقلبه وعقله يضطربان من تصرفات "حجيزى".

*****

يا لروعة صدح العصافير فى الفجر. كان يسمعها دائمًا من داخل المسجد، فلم تكن نابضة بقوة كل هذا النبض، لكنها الآن شقشقات غزيرة تنهمر مثل مطر السِّيول.

"حتما أنا أحلم".

همس بارتياح: الحمد لله.

اتجه نحو المصطبة الصَّخرية التى كان نائمًا عليها، ومال ليطوى فرشته كما هو معتاد، لكنَّه انتصب دون أن يطويها.

"هاه. أمارة جديدة على أنى مازلت أحلم، طوال عمرى أطوى فرشتى بعدما أستيقظ، وهذه المرَّة لم أطوها".

اتَّجه إلى بوَّابة البيت، بوابة كبيرة تتسع لمرور جمل مكتمل بأحماله، فدفعها ودخل متأنِّيا، كانت "سريرة" تجلس على ركبتيها وقد افترشت المصلاة تحتها،

تتلو التَّشهُّد وهى تحرِّك سبَّابتها اليمنى حركة رتيبة إلى فوق وتحت، بينما كفَّاها يرتاحان على ركبتيها، ووقف برهة يتأمَّل "سريرة".

"من زمن طويل لم أر سريرة وهى تصلِّى. وعِزَّة جلال الله أنا فى حلم".

ومضى يخرج من مدخل البيت الوسيع إلى صحنه الخلفى الشَّاسع الإتِّساع، المزروعة فيه شجرة تين عمرها أكبر من عمر أبيه "شديد"، الذى مات من سنين لا يعلم عددها.

- يا "حجيزى".

نادت "سريرة" بصوتها الذى شرخه الزمن، إذ أن "سريرة" امرأة عجوز أكملت عامها السَّبعين.

"بكير يقول هذا".

التفت "حجيزى" إليها ببطء ممزوج بالاندهاش، فرآها تنظر إليه هى الأخرى مندهشة، لكنَّه لم ينتظر ما ستقول، هو يتوقَّعه، وإنما هزَّ ذراعه، ومضى إلى فسحاية البيت.

"ستقول لى لماذا جئت مبكِّرا من صلاة الصُّبح؟"

"ماذا أقول لها؟ إننى أحلم!".

"لكنَّها نادتنى باسمى! سريرة قالت يا حجيزى! أنا مازلت فى الرّؤيا".

وعندما وصل إلى التينة، جلس على "الدكَّة".

غبشة الفجر، ودجاجات تتقافز تنط من فوق أغصان التِّينة إلى الأرض، ووجه "حجيزى" بدا الآن واجما، لقد ضرب ضارب قلبه: "أنت لا تحلم يا

حجيزى، ليست هناك رؤى بهذا الطول، الرؤيا حدث سريع وينتهى، بينما أنت الآن ترى تفاصيل حياتك".

- يا "سريرة".

"وأنا أنادى سريرة باسمها؟!"

كانت "سريرة" قادمة تتوكَّأ على عصا من جريد النَّخل الجاف، بينما تحمل بيدها الأخرى إناء من الفخَّار مملوءًا باللبن الرَّائب، فطور "حجيزى" الذى يعشقه.

- "مستعجل دائما! اصبر".

قالتها وهى متذمِّرة كعادتها، وستضع الإناء بجواره وهى تقول: ما فى مرَّة تأخذ الإناء من يدى وتريحنى!

وستستدير وهى تتوكَّأ على عصاها لتمضى عائدة إلى مدخل البيت، بينما تقول كلاما يسمعه ولا يفسِّره.

فى كل صباح، لا يأخذ منها الإناء، لأنه يريدها أن تضعه بجواره وتجلس معه وتحكى له، لكنَّها لا تفهم، وهو لا يحب أن يوضِّح أمورا يجب أن تشعر بها امرأة الرَّجل من غير إشارة.

لكنه اليوم، ولأول مرَّة منذ زمن بعيد، هتف يناديها قبل أن تأتيه، كان يريد أن يحكى لها عن حاله القاسى الذى قلب كيانه.

*****

عندما يجلس "حجيزى" على الدكَّة تحت التِّينة، يكون الباب الجريدى لحظيرة الأغنام على يمينه، ولمَّا يجلس تبدأ الأغنام فى الحركة، وبعضها يطل عليه من

خلف شبكة الباب الجريدى، تكون الشَّمس قد أشرقت، ويكون "حجيزى" يدلق فى جوفه آخر قطرات من اللبن الرَّائب عندما يعلو ثغاء الأغنام والماعز فجأة، فهى تعرف أن "حجيزى" سيضع الإناء فارغا على "الدكة" ثم يتجه إليها، ليجذب الباب ويفتح الطريق لها لتنطلق من الباب الخلفى للبيت، إلى مرعاها البعيد فى قلب الصَّحراء.

لم تستدر "سريرة" لتمضى مبتعدة كعادتها كل يوم، كما لاحظ "حجيزى" أن الأغنام لا تثغو كالمعتاد، فقال وهو ينظر ناحيتها: مالها صامتة!

قالت "سريرة": الشَّمس لم تشرق بعد، وأنت ما صلَّيت الفجر فى المسجد، خيرا!

وانتبهت إلى أنه لم يمدَّ يده نحو الإناء بلهفة مثل كل صباح.

كان يفكِّر "يقول لها، أم لا يقول؟" عندما ظهر "بكير" ووجهه مربدًّا بالانزعاج، وهرول ناحية "حجيزى"، وجلس بجواره وبينهما الإناء.

- مالك يا "حجيزى"؟! لماذا لم تُصلِّ معنا؟!

لم يكن "حجيزى" يعرف كيف يقول ما هو فيه، فبقى صامتا، وكانت الأمور تسوء بالنِّسبة إليه، وتمنَّى، أكثر من أى وقت مضى، أن يكون كل ما يحدث الآن هو حلم، حتى لو كان حلما رذلا.

"حلم رذل خير من حقيقة رذلة".

- يا والدى، تدخل المسجد والخف فى قدميك!؟

"سريرة" بحلقت عينيها، كانت عيناها، رغم ذلك، ضيقتين كخرزتين غطَّاهما سحاب شفيف.

- تسكت يا "بكير" أم اضرب وجهك بالقعبة؟

وامتدَّت يد "حجيزى" نحو الإناء المملوء باللبن الرَّائب.

وقف "بكير" يتحاشى غضبة "حجيزى" وقال: خلاص يا "حجيزى".

ثم قال: الشِّيخ "مزيد" وبعض رجال "الوعرة" جاءوا يطمئنون عليك.

- جاء معهم "سعدون"؟

كان "حجيزى" يسأل هذا السؤال وهو يمدَّ يده نحو القعبة ليشرب ما فيها.

التفت "بكير" إلى "سريرة" وقد فتح فمه مشدوها، وهمس متعجبا: "سعدون"؟!

ثم نظر إلى أبيه وقال: "سعدون" مات بالأمس يا والدى، وأنت غسَّلته، ودفنته.

وارتعد قلب "سريرة"، وكادت تسقط على الأرض، ووقف شعر "بكير"، لمَّا عوى "حجيزى" وهو يقوم ويمشى نحو الباب الخلفى: يا "سعدووون"، يا "سعدوووون"، دفنوك يا "سعدووون".

ثم يدوخ ويقع.

2

تَعَالَ انظُر لِعَظَمَةِ ربِّك

كان "حجيزى" قد صلَّى الفجر فى المسجد، وجلس جلسته التى يُسبِّح الله فيها، ويشم النسيم الذى لا يشك أبدا فى أنه قادم من عند بحر "العلمين"، ويستمع لشقشقات العصافير البعيدة، ويسأل نفسه عن كيفية بناء هذا المسجد، فى هذا اليوم طرأ على عقله سؤال: "ماذا تعنى كلمة النُّشور؟".

"الدُّعاء كله ماذا يعنى؟! والله الشِّيخ مزيد هذا يُعلِّمنا كلاما من رأسه له العجب، قال "الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور"، أقوله بعد ما استيقظ! لِمَاذا أقوله بعد ما أستيقظ؟! النَّوم ليس موتا حتى أحمد الله بعدما أستيقظ على أنه أحيانى!...".

ولم يكمل "حجيزى" تأمُّلاته، إذ أن "سعدون" ملأ بجسده البدين باب المسجد، يقف وهو ينهج، وجسده يرتعش، وقال بصوت متقطِّع: قُم يا "حجيزى"، تعال انظر لعظمة ربك.

وبينما هو يقوم، وضع السِّبحة فى سيَّالته، وقال: مالك يا آكل أهلك؟!

خرج "حجيزى" من المسجد، ومشى بجوار "سعدون"، ودخلا فى مدق بين بيوت مبنيَّة من الطوب الرَّملى تتساند إلى بعضها، حتى وصلا إلى بيت "سعدون".

هسيس الصَّباح يطلع بطيئا، ونور رضيع يحبو فى مشارق السماء.

قال "سعدون" وهو يفتح البوَّابة الثَّقيلة: أمور ما يُجريها إلا صاحب العظمة.

دخلا البيت، وعبرا المدخل الضَّيق كدهليز، كلما عبر "حجيزى" هذه المداخل الضَّيقة لبيوت الـ "الوعرة" حمد الله أن بيته ليس مثل هذه البيوت، نعم هى تتَّسع بالداخل، حيث الأماكن التى يُجفَّف فيها الزَّيتون والبلح فى موسميهما، وحيث الزَّرائب أيضا، وأحواش البهائم وغرف الخزين، لكنها ليست متَّسعة مثل بيته، ومثل البيوت الأخرى التى بُنيت حديثا على مشارف البلد.

ألقى "حجيزى" نظرة سريعة إلى هذه الغرفة التى مازال على بابها قُفل كبير، وهمس محدِّثا "سعدون"، الذى يتقدَّمه إلى الحظيرة التى ليس بها إلا بعض طيور، وخمس نعجات: متى تفتح هذه الغرفة يا بنى آدم؟ مضى على الذى حدث سنين طويلة.

لم يرد "سعدون"، وإنما فتح بوَّابة الحظيرة، وأشار إلى شىء لم يتبين "حجيزى" ملامحه.

اقترب "حجيزى" أكثر وهو يهمس: ما هذا؟!

نور السماء ضعيف، لكنَّه استطاع أن يَميز دلوا من الصاج، وقد انكفأ فيه شىء ما.

وكان يقترب أكثر ليرى جيدا، ويقول: هه؟ ما هذا؟!

فقال "سعدون": عَميت يا "حجيزى"؟!

فزعق "حجيزى": ما شقشق النُّور بعد يا بغل.

- هذا ذكر الإوز، غرق فى دلو المياه!

شهق "حجيزى"، وقال: ذكر إوز يغرق فى دلو مياه!؟

قال "سعدون": هذه الطُّيور لا تغرق فى البحور، لكن إذا أراد الله، تغرق فى شبر مياه.

وقال "سعدون": رأيت العظمة؟!

مدَّ "حجيزى" يده وقبض على ذيل الطائر ورفعه، قال: أنا رأيت الحكمة.

كانت رقبة الطائر قد تيبَّست ملتوية نحو جناحه الأيسر، وثمَّة فزع التصق بعينيه، بينما منقاره مفتوح نصف فتحة، وكانت المياه تقْطُر منه.

ونظر "حجيزى" فى قعر الدلو، ثمَّة مياه قليلة ما كانت لتُغرق الطَّائر لولا أنه انحشر فى الدلو.

تلفت "حجيزى" ينظر فى نواحى الزَّريبة، كان يبحث عن شىء.

- ألا تضع إناءً منخفضا تشرب منه الطيور؟

أشار "سعدون" إلى جوارهما: ها هو الإناء، قلت لك أنت صرت أعمى.

كان "حجيزى" مازال ممسكا بالطائر الغريق، فرفعه إلى فوق، وأخذ ينظر فى عينيه.

- عجائب يا "سعدون"، فى عينيه نفس النظرة التى تكون فى عيون النَّاس لمَّا يغرقون.

اقترب "سعدون" وأخذ ينظر فى عينى الطَّائر، وهمس: أنا لم أر عيون الغرقى من قبل.

نظر "حجيزى" إليه مقطِّبا جبينه: ما رأيتَ عينى "صالح" ولد "سعدانى"؟!

تفتَّحت السَّماء فوقهما بلون أزرق كثيف.

"سعدون" اربدَّ وجهه فجأة، وقال: نعمل دور شاى.

وبينما يتَّجه إلى أحد الأركان ليأتى بالشَّاى والسُّكَّر، قال: "صالح" ولد "سعدانى" أخرجوه من البئر بعين واحدة. ولم أرها.

أخذ يشعل النار فى الكانون، وصمت طويلا قبل أن يتكلَّم، وكان يضع الكنكة فى النَّار: يا أخى أنا قرفت من الموت وسيرته.

ثم سرسع صوته فجأة، وجسده الضَّخم ارتج، وأخذ ينادى بصوت مخنوق: يا "جميل"، يا أم "جميل"، ياولدى، يا أم "جميل"، يا "زليخة".

هرول "حجيزى" وبيده طائر الإوز الغريق نحو "سعدون"، الذى جلس على الأرض منهارا، واستند إلى الجدار، ورفع وجهه إلى فوق: النَّار أكلت "جميل" يا "حجيزى"، ما أبقت منه عينا ولا حتى إصبع رجل، يا ولدى.

ربت "حجيزى" على كتف "سعدون": سنون مضت يا "سعدون". لماذا تتذكَّر الآن....

لم يكمل "حجيزى" كلامه، إذ أن "سعدون" ضرب الطَّائر الغريق بكف يده، فأطاره من قبضة "حجيزى"، وزعق: أنت أتيت بسيرة ولد "سعدانى" يا "حجيزى".

غلى الشَّاى وفار، وتصاعد دُخَان من الكانون يحمل رائحة شاى بسكَّر محترق.

"حجيزى" نظر إلى الطَّائر الذى طار ثم اصطدم بباب الزَّريبة، وسقط منقلبا على ظهره، ورأى "سعدون" يقف يعمل شايا جديدا.

جلس "حجيزى" على الأرض واستند بظهره إلى الجدار: أنا أعرفك يا "سعدون"، أنت ابن كلب، أنا كنت قاعد فى المسجد مع نفسى، وجئت تهرول إلىَّ وتقول تعال انظر إلى العظمة.

وأردف: أنا جئتُ إليك أم أنت جئتَ إليّ؟!

- احك يا "حجيزى" فى سيرة أخرى غير الموت.

مد "حجيزى" يده، وتناول كوب الشاى من "سعدون" وصمت.

كان نور الصباح قد انسكب، وملأ الأرض، وكان "حجيزى" قد أفرغ كوب الشاى بثلاث رشفات طويلة، ونهض واقفا.

- أروح إلى غنمى أرعاها.

وبينما "حجيزى" يمضى يريد الخروج من بيت "سعدون" سمع صوته يخرج من حنجرته محشورا: خلاص يا "حجيزى" أنا كرهت الموت.

كان "سعدون" يتكلَّم وهو ينظر إلى جثَّة الطَّائر المقلوب على ظهره، وقد التصقت ساقاه بريش مؤخرته.

وكان "حجيزى" يمضى نحو البوَّابة، فنظر إلى الحجرة المغلقة بالقُفل، وحاول أن يجعل صوته عاليا وهو يقول: لو كنت كرهت الموت حقيقة افتح هذه الغرفة!

فنظر "سعدون" إلى الغرفة.

*****

"مهما حكينا من قصص ممتعة، لم نكن نستمتع بسماعها مثلما كنا نستمتع بسماع حكايات الموت".

خطا "حجيزى" من البوَّابة فصار خارج بيت "سعدون"، وما أن مشى خطوتين حتى توقف، وهمس لنفسه: ما قلت لـ "سعدون" الحكمة التى رأيتها.

استدار عائدا إلى بيت "سعدون"، لكنَّه ما أن خطا خطوة واحدة حتى تصلَّبت قدماه، وغامت البوابة فى رؤية عينيه، وانسحب نور الصَّباح الربَّانى فجأة ليكون ظلام منتصف الليالى، وأنوار ألسِنَة لهب عظيمة تتقلَّب على جدران البيوت الملتصقة ببيت "سعدون"، وناس "الوعرة" يجرون قادمين نحو بوَّابة "سعدون" وهُم يتصايحون، وصياحهم يمتزج بهسيس النيران وهى تأكل البيت من الدَّاخل، وخشب تعلو طقطقاته، وثغاء مذعور، وصرخات امرأة ملتاعة: يا "جميل"، يا ولدى.

رأى "حجيزى" نفسه وهو يغالب تدافع النَّاس الدَّاخلين والخارجين، ثم وهو يدلف إلى داخل الدار.

وعندما دخل راعته النِّيران الفتَّاكة، وراعه هزيمها وهى تبتلع نظام البيت ولا تبقى منه إلا الرماد، كانت النيران تزوم مثل ضِبَاع تخشى ضياع الرِّم، وأم "جميل" تصرخ صرخات الموت، وهى غارقة فى النِّيران التى عبَّأت حجرتها، والنَّاس ينظرون إلى جسمها الذى يذوب ويتراقص مع تراقص الألسنة المسعورة، بينما تحتضن جسدا صغيرا يتراقص ويذوب هو الآخر، ورغم أن العجز ملأ عيون النَّاس، إلا أن أيديهم العفيَّة كانت تدفع، بكل ما أوتيت من قوَّة، بالأوانى، فتنطلق منها الرِّمال مثلما تنطلق من بؤرة عاصفة.

"أين سعدون ؟!"

أخذ "حجيزى" يُنقِّل عينيه فى وجوه الناس المحمرَّة باللهب، يبحث عن "سعدون"، ويخترق الزِّحام، حتى استطاع الوصول إلى عمق البيت، حيث الزَّريبة.

النِّيران أفاعٍ عظيمة تلتهم كبد السماء، وتلتهم الأغنام، التى أفلح النَّاس فى فتح باب حظيرتها، تتقافز فزعة، وقد أمسكت النِّيران فى أصوافها، إلى خارج الزَّريبة، ثم تنطلق إلى الصَّحراء من الباب الخلفى مثل سهام مُفوَّقة.

كان البعض يرمى بالرِّمال على الأغنام محاولا إطفائها، فإذا انطفأت نيران إحداها ظلَّت تتقافز، بينما ينبعث منها دخان برائحة الصوف المحترق.

"أين سعدون؟!"

غرفة الخزين، الغرفة الوحيدة فى البيت التى لم تكن النَّار قد مسَّتها، كان بابها مغلقا، ومع أنه لا أحد من أهل "الوعرة" ينام فى غرفة الخزين، إلا أن "حجيزى" فكَّر فى أن "سعدون" ربما يكون نائمًا فيها، فدفع بيده بابها المغلق فانفتح بسهولة، ولمح على ضوء النِّيران الجسد الضَّخم ملقى على أحد الأجولة المملوءة بغلال الذُّرة الشاميَّة.

لأوَّل وهلة ظنَّ "حجيزى" أن "سعدون" ميت، فاقترب منه ببطء، وهو يفتح فمه متهيِّأً للصراخ، لكنَّه لمَّا اقترب منه تماما لاحظ أن جسده يرتعش، كان "سعدون" مستلقيا على ظهره وذراعاه مفرودتان ومرميَّتان متدليتان على جانبى الجوال الذى كان ينام عليه، وخُيِّل لـ"حجيزى" أن "سعدون" فاتح عينيه، كان فى الحقيقة مسبلا عينيه، وعرق غزير يتفصَّد من جبينه، كأنه

يصارع وحشا، فصدره يعلو ويهبط من غير نظام، ويأخذ نفسه خطفا، فيشخُر مثل بقرة تذبح.

- "سعدون".

صرخ "حجيزى" وهو يلطم بيده وجه "سعدون" لطمة خفيفة، لكن "سعدون" لم ينتبه، كان يزوم، ويحرك رأسه كأنَّما يتعارك.

- "سعدون".

كان "حجيزى" ينادى عليه وقد قبض بيديه على جانبى رقبته، وأخذ يهزُّه هزًّا شديدا، فاستفاق "سعدون"، واعتدل وهو يلهث، وهتف بصوت مخنوق: كابوس شديد يا "حجيزى".

أخذ "حجيزى" يمسح بطرف جلبابه العرق من جبين "سعدون"، ويقول: خيرا، خيرا.

قال "سعدون": رأيت يا "حجيزى" النَّار تأكل البيت. أكلت "جميل" وأم "جميل"، وكانت...

ولم يكمل كلامه.

هوى "حجيزى" برأسه إلى الأمام فسقط على صدر "سعدون"، وأخذ يعوى، ورأى "سعدون" من فتحة الباب ألسنة النَّار، والنَّاس يروحون ويجيئون وهم يصرخون.

دفع "سعدون" جسد "حجيزى" عنه ووقف مبهوتا، وهَمَّ بالخروج، غير أنه فجأة جلس مكانه مرَّة أخرى بهدوء، وظلَّت ألسنة النيران تتلوَّى فى بؤبؤ عينيه.

*****

وأُذِّن للصلاة من يوم "الجمعة".

"الجمعة" الأولى بعد ليلة "الثلاثاء" الحزين، ليلة النَّار.

وكان المؤذن دائمًا هو "سعدون"، ولم يكن أذانه هذه المرة مثل أى أذان أذَّنه من قبل.

صعد الدَّرجات إلى سطح المسجد بتثاقل شديد، وعندما صار فوق السَّطح غرق فى وهج الشَّمس، ودارت عيناه تمسحان وسع الصَّحراء، وتصطدمان بالصُّخور الضَّخمة البعيدة، عجيبة الأشكال، التى نبتت من الرمال، صخرة تشبه نصف بغل خلفى من غير ذيل، وصخرة تشبه رأس ديك رومى من غير منقار، وصخرة تشبه صدر عذراء مدفونة منتصبة من غير رأس، وصخرة لم ير ما يشبهها، واقفة بعيدا بعيدا، ضخمة فى حجم عمارة من عمارات "أسيوط" التى ترتفع لعشرة طوابق، وصخرة تشبه أم "جميل" وهى تضم إلى صدرها "جميل"، ترضعه.

وجرت مياه فى عينيه، ورفع كفَّيه إلى أذنيه وناح: الله أكبر، الله أكبر.

وشهق، ورفع عينين إلى السماء مملوءتين عتبا، وناح ثانية: الله أكبر، الله أكبر.

وانسكبت دموعه.

قال "سعدون": أنا أذَّنت يا "حجيزى" قدر ما أذَّنت، ما شعرت بحلاوة كلمة "الله أكبر" مثل ما شعرت بها وقتها...

وسكت قليلا، ثم قال: وأنا أعرف إنه هو الذى أحرق عيالى...

وسكت، ثم قال: تعرف يا "حجيزى"! أنا ما أستطيع أن ألومه، دائما يلبِّى ما أطلبه منه، ويُحضر لى ما أعوزه، وأنا المخطئ فى هذه الليلة، أنا الذى قلت لـ"بثينة": الله يحرقك أنت وولدك.

وجلجل صوت "سعدون" فوق سطح المسجد: أشهد ألَّا إله إلَّا الله.

صدح بها منفصلا عن الدُّنيا، فسالت دموع "مزيد" وهو جالس على المنبر يتهيَّأ لخطبة "الجمعة".

يا لروعة "لا إله إلَّا الله" لمَّا تخرج مخلوطة بحزن القلوب.

وتضوَّع صوت "سعدون" وهو ينطلق فى سماوات الصَّحراء، وفى سماوات المسجد: أشهد ألَّا إله إلاَّ الله.

ورفع المصلُّون الجالسون فى صحن المسجد وجوههم إلى البقعة من السَّقف التى يقف فوقها "سعدون"، مآقيهم بحيرات طاف عليها سؤال "مالك يا سعدون تُقطِّع قلوبنا؟!".

قال "سعدون" لـ"حجيزى": قلت "أشهد ألَّا إله إلَّا الله" وتذكَّرت أننى ظللت أدعوه أنا و"زليخة" ثلاثين سنة لكى يعطينا ولدا، وظللت أدعوه أنا و"بثينة" عشر سنين أخرى، أربعين سنة أدعوه يعطينى الولد، ولبَّى دعائى وأعطانى، ولمَّا قلت لـ"بثينة" فى ساعة غضب "الله يحرقك أنت وولدك" لبَّى دعائى بعد ساعتين! طيِّب....

وسكت قليلا، ثم قال: كان انتظر أربعين سنة ثم لبَّى..

وسكت، ثم قال: أنا فرحان أنه يلبِّى دعائى..

لكن "حجيزى" نظر فى عينى "سعدون" وقال: فرحان يا "سعدون"؟!

قال "سعدون" وهو يُجفِّف زوايا عينيه بطرف جلبابه: فرحان.

كانت الرِّيح تصفق جلباب "سعدون"، وكان قد ضمَّ كفيه حول أذنيه مستغرقا فى الأذان: أشهد أنَّ محمَّدا رسول الله.

وانغلقت حنجرته وانفتحت، وارتعشت شفتاه.

قال "سعدون": تذكَّرت كلام الشيخ "مزيد".

ونظر فى عينى "حجيزى" وقال: تذكُر كلامه؟

هزَّ "حجيزى" رأسه بالنفى، ونظر إلى بعيد، حيث السَّماء ترتطم بالصَّحراء، وقال: أى كلام؟ الشيخ "مزيد" يتكلَّم كثيرا.

- ما من مصيبة إلا وموت رسول الله أعظم منها.

- عليه الصلاة والسلام، أتَذكَّر هذا الكلام.

قال "سعدون": حزنت على رسول الله ونسيت "جميل" وأم "جميل".

أدار "حجيزى" رأسه لينظر فى عينى "سعدون"، كانت نظرة شاكَّة، كأنه يريد أن يقول له: أنت كذَّاب يا "سعدون".

الرِّيح تحمل الصَّهد، و"سعدون" يستدير إلى اليمين بأعلى جسده، ويزعق: حى على الصَّلاة.

فتلمح عيناه أطراف بيته المحترق، ويختنق صوته.

قال "سعدون": أنت يا "حجيزى" ترحل إلى "موط"، وتغيب عن "الوعرة" أياما، وتغيب أسابيع، لكن أنا ما كنت تركت البلد حتى للرعى، وما تركت فرضا إلا وصلَّيته فى المسجد..

وسكت قليلا، ثم قال: فى كل صلاة أطلب منه الصِّحة والسَّتر.

وتنهَّد طويلا وهو ينظر إلى بعيد، حيث ترتطم السَّماء بالأرض، وارتشف رشفة من الشَّاى، وقال: تُجيد "سريرة" عمل الشاى.

وقال: ما يستر الرجل عند الموت إلا عياله، أين العيال؟

وخرج صوت "سعدون" مثل ضب يزحف على بص متأجج: حى على الفلاح.

استدار بأعلى جسده بطيئا نحو اليسار، ليكمل النداء، فرأى الصَّحراء والصُّخور الشَّاهقة النَّاتئة، ورأى المدق المسافر إلى "موط"، رفيعا مثل خيط أبيض يتعلق بالأفق، ورأى فى المدق ناقة تركض لها رأس شيطان، تركبها "بثينة" وقد احتضنت "جميل"، وتصعد بهما إلى الأفق.

صبَّ "حجيزى" فى الكوب الفارغ شايا آخر، ومدَّه لـ"سعدون" وقال: اشرب، اشرب.

قال "سعدون": وأين الفلاح، وأنا رجل قاربت على السبعين من عمرى، وليس لى ولد؟! ولا حتى زوجة عاقر!

شهق "سعدون"، وأشاح "حجيزى" بوجهه بعيدا، يدارى دمعتين تنزلقان على جانبى أنفه.

كان "سعدون" على سطح المسجد قد شعر بنفسه يدوخ، وكان يشعر أنه لم يكمل الأذان بعد، فاستند بيده إلى صهريج المياه، فلسعته سخونته، وحاول أن يقف متوازنا، ورفع كفَّيه إلى أذنيه، وتحشرج صوته: لا إله إلَّا الله.

رفع وجهه إلى السماء، ثم مال بوجهه لينظر إلى بيته المسود بلون حريق النَّار، فرأى "بثينة" جالسة فى الفسحاية أمام الحظيرة تُرضع "جميل".

للحظة تهلَّل وجهه فرحا، لكن سرعان ما غامت الدُّنيا فى عينيه، ودارت فجأة، فالتوى جسده، وشعر برأسه ينفصل، ثم يطير ويسقط بين الصُّخور.

*****

وقف الشَّيخ "مزيد" على المنبر.

- الحمد لله رب العالمين، حمدا كثيرا طيبا، حمدا واسعا، حمدا مباركا فيه، حمدا يملأ السَّماء، ويملأ الأرض، ويملأ ما بينهما، ويُملأ ما شاء من شىء بعد.

وتنحنح الشَّيخ "مزيد".

- وأصلِّى وأسلِّم على المبعوث رحمة للعالمين، خير خلق الله أجمعين، خاتم النَّبيين والمرسلين، صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

وبعد برهة صمت قصيرة قال: أما بعد...

عجيب، المسجد ضيق، لكن صوت الشَّيخ "مزيد" يتردد بين جدرانه كأنه يتردَّد بين صخور الصَّحراء.

- يقول الله تعالى فى محكم تنزيله، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِين إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون".

كان "سعدون" يجلس مستندا إلى أحد جدران المسجد، ويضع ذراعه مفرودة على ركبته اليمنى المنصوبة أمامه، بينما فرد ساقه الأخرى، صدره يعلو ويهبط، ورفع وجهه ينظر فى فراغ القبة.

"سعدون" عندما سقط، بعدما أنهى الأذان، أحدث ارتطام جسده البدين بأرضيَّة السَّطح صوتا مكتوما داخل المسجد، فهرع بعض المُصلِّين إلى السَّطح، وحملوه، وبصعوبة شديدة نزلوا به عبر السلَّم العتيق الضَّيق، وما أن مدَّدوه على الأرض حتى أفاق.

قال الشَّيخ "مزيد": ولقد أخبرنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم أن أشد النَّاس ابتلاء الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، فالأمثل. ولقد ابتلى أخونا "سعدون" ابتلاء عظيما منذ ليلتين، فإن هو صبر، صار من هؤلاء الأماثل الكرام، ففاز فوزا عظيما، ولتعلم أخى المسلم، أنه كلَّما عظم إيمانك عظمت مصيبتك...

يرفع الشِّيخ "مزيد" عقيرته مواصلا خطبته، ورغم ذلك، "حجيزى" الجالس مستندا بظهره إلى العامود الكبير فى منتصف صحن المسجد سرح بفكره.

"سعدانى ما صلَّى لله ركعة منذ ولدته أمه، لم يكن عظيم الإيمان يوما، وغرق ولده الصغير فى بئر الرَّاهب!".

كان الشيخ "مزيد" يهتف: لم يبلغنا عن أجدادنا الأوَّلين قط، أن نارا أكلت خيمة، فما حاجة أجدادنا إلى مصابيح فى خيام سيطوونها فى اليوم القادم، ليرتحلوا خلف قطعانهم؟! لكنَّنا لمَّا خالفنا طبائعنا البدوية الأصيلة، وملكتنا الأرض مثلما ملكت الفلاحين أتباع أذناب البقر، كان على الأرض أن تعاملنا مثلما تعاملهم، وتحرقنا مثلما تحرقهم، وهبكم الله صحراء الذَّهب وحركة وتغييرا، فآثرتم أرض الطين وسكونا وثباتا.

زعق الشيخ "مزيد": الحركة هى الحياة، والسُّكون موت، ووقتما كان أجدادنا يتحركون بخيامهم لم تكن هناك حرائق، لأنهم كانوا أرباب النَّار، يسخِّرونها ولا تسخِّرهم، كانت كعبد لا يجوز دخوله خيمة سيِّده ليلا، الآن نحن عبيد النَّار، تسخِّرنا ولا نسخِّرها، لأنه قد صارت لنا بيوت ثقيلة لا تتحرَّك، فيها أفران للخبيز، وكوانين للطبيخ، وغرف مظلمة تطلب نور النَّار، ولياليها المدلهمة لابد لها من إضاءة...

كان "حجيزى" يهز رأسه مؤيدا كلام "مزيد"، وهو ينظر طويلا إلى كلمات غائرة فى جدار المسجد المواجه للمُصلِّين على يسار المنبر، كتابة لم يفلح الطلاء بالجير فى إخفائها.

"كلام كتبه فارس مملوكى هرب من العثمانيين، وكان قد فعل فيهم الأفاعيل فى معركة..."

تبدو الحسرة فى تجاعيد وجه "حجيزى"، وهو يهمس لنفسه: دائما أنسى اسم هذه المعركة.

نظر إلى يمينه، كان "غنيمة" يجلس بمحاذاته بعد ثلاثة رجال.

"غنيمة لا ينسى اسم هذه المعركة أبدا".

ونظر إلى حيث يجلس "سعدون" مستندا بظهره إلى الجدار، رافعا وجهه إلى فراغ القبَّة.

"وسعدون أيضا".

وارتفع صوت الشَّيخ "مزيد": بيوتنا تبقى طعمة سهلة للنيران، مادام ليس هناك ماء، إلا الماء الصَّعب، ماء الآبار، وطالما ليس هناك طريق أسفلتى يربط بين "الوعرة" و"موط"، الطريق هو صك اعتراف الحكومة بوجود "الوعرة"، الطريق منذ زمن هو حلم أهل "الوعرة"، لكنهم لا يملكون إمكانياته.

الطرق الأسفلتية للمدن الكبيرة، و"الوعرة" مجرد قرية صغيرة، قرية بدوية، محصولاتها الزِّراعية بالكاد تكفيها، أما التَّمر والزَّيتون الذين يفيضان فقوافل الجمال تقوم بالمهمَّة عبر المدق الضيِّق، فلماذا تحمِّل الحكومة نفسها تكلفة طريق أسفلتى سيمتد فى عمق الصحراء لأكثر من مائة كيلو متر من غير فائدة تجنيها؟

يعلو صوت الشيخ "مزيد": الطريق تحمينا من الحريق، وإذا كنا غير مستطيعين للعودة إلى الخلف، فليس هناك مهرب من التقدُّم للأمام، لنطالب بالطريق، وفى يوم سيتحقق المطلب، ثم نطالب بأنبوب ماء يجرى بمحاذاة هذا الطريق، نشرب منه، ونطفئ حرائقنا به.

القضية لا تهم "حجيزى"، بل إنه ضد فكرة الطَّريق تماما، الطَّريق التى حتما ستأتى بالغرباء، وأخلاقهم الرديئة، وإذا كان من الممكن أن تكون الطَّريق حلما لأهل "الوعرة"، فهو حلم بعيد التحقيق، وأَجَل "حجيزى"، الذى عمره تجاوز المائة عام، قريب، لن يعيش ليرى هذه الطَّريق.

القضية لا تهمُّه، فأخذ يحملق فى الكتابة المنحوتة على الجدار يسار المنبر، ويتذكَّر "غنيمة" لمَّا حكى له قصَّتها.

"بقى العثمانيون هنا شهورا يبحثون بين البدو فى الواحات عن...".

يهز "حجيزى" رأسه متضايقا، النِّسيان آفة، لقد نسى أيضا اسم الفارس المملوكى الذى دوَّخ العثمانيين فى صحراء الغرب.

"أسماؤهم ثقيلة...".

قال "غنيمة": ما إن أنهى العساكر العثمانيون بناء هذا المسجد، حتى صلّوا فيه أول صلاة، كانت صلاة العشاء، ولمَّا جاءوا ليصلّوا صلاة الفجر وجدوا هذه الكتابة منحوتة على الجدار فى مواجهتهم، وتخرج لهم لسانها...

كان "غنيمة" يحكى بقلب فائر، وقد صار الفارس المملوكى "شقمق بيك" بالنسبة إليه بطلا مغوارا، ولا حتى "أبو زيد الهلالى" يدانيه فى البطولة، فـ"أبو زيد" الهلالى غالبا يحارب فى رفقة الفرسان، وكان أحيانا يقود جيوش،

لكن "شقمق بيك"، كان وحده يلعب بكرامة جيش إمبراطورية العثمانيين فى الواحات، وأهانهم إهانات بالغة.

سأل "حجيزى" "غنيمة" وهو يلعن جهله بالقراءة: وماذا تقول هذه الكتابة يا "غنيمة"؟!

نفخ "غنيمة" صدره، يستعد لالقاء أعظم كلمة قالها أعظم فارس مغوار، قال: صلَّيت بينكم بالأمس صلاة العشاء.

فتح "غنيمة" عينيه منبهرا، فى كل مرة يقرأ هذه الكلمة كان يفتح عينيه منبهرا، يقلِبون عليه الصَّحراء، ويبحثون عنه وراء كل صخرة، ويفتِّشون عنه جحور الضِبَان، وهو واقف بينهم يصلِّى العشاء، ولا يشعرون به!

تجلَّى صوت الشيخ "مزيد": أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم.

وبسط "حجيزى" كفَّيه يدعو الله، لكن عينيه كانتا مازالتا متعلقتين بالكتابة المنحوتة.

قال "غنيمة": ونحت الفارس اسمه تحت الكتابة.

وأجرى "غنيمة" طرف سبَّابته على الاسم المنحوت: أهااه.. "شقمق" بيييك.

انفرجت أسارير "حجيزى": تذكَّرت اسم ابن الملعونة.. "شقمق" بيك.

وقال الشيخ "مزيد": قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ما من يوم جمعة إلا وفيه ساعة إجابة، فادعوا الله مخلصين عساها تكون هذه السَّاعة، اللهم يا أرحم الراحمين، ويا ملاذ المستضعفين، ويا مُجير المظلومين، اعف عنَّا، واغفر لنا، وارحمنا....

وكان "حجيزى" يقول: آمين.

والمسجد ازدحم تماما بالمصلّين، وكل المصلِّين يقولون: "آمين"، فتخرج "آمين" واحدة كالهدير، "آمين" تغازل جدران المسجد فترعشها، قبل أن تنطلق من فتحات القبَّة إلى لُجج السَّماء.

كان "حجيزى" يقول "آمين" وهو لا يسمع صوت "مزيد"، وإنما كان صوت "غنيمة" هو الذى يطغى: الأتراك قرأوا الكلمة التى نحتها الفارس فارتخت آذانهم مثل كلاب خائبة، ولمّوا أغراضهم، وما جاءت صلاة الظُّهر فى اليوم التالى إلَّا وكانوا قد رحلوا من "الوعرة".

وجاء صوت "مزيد": والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، قوموا إلى صلاتكم يرحمنى ويرحمكم الله.

نزل "مزيد" درجات المنبر، وحصلت حركة فى المسجد، النَّاس يقفون ويصطفُّون وهم ينظرون إلى أمشاط أقدامهم، يسوّون الصُّفوف، و"سعدون" لم يقف، وإنما جلس على ركبتيه مستقبلا القبلة.

- "الله أكبر".

قالها "مزيد" خاشعا، وانتشرت همهمات المُصلّين بالتكبير.

وسمع "حجيزى" قهقهة "غنيمة" قبل أن يقول: حتى ما أزالوا الكتابة. الخجل شغلهم.

*****

كان "سعدون" أمام باب الغرفة الموصد بقفل كبير، عندما ناداه "حجيزى" وهو يدلف إلى البيت من البوابة: "سعدون"، جئت أقول لك الحكمة التى رأيتها.

ابتسم "حجيزى" لما رأى "سعدون" يقف أمام الغرفة المغلقة منذ سنين، وقال: نويت تسمع الكلام وتفتح الغرفة؟

وقال: أنا تأخَّرت عن أغنامى، الحكمة التى طلعت بها من موت ذكر الإوز فى دلو الماء، هى حكمة من كلمتين، "إرضَ بالمقسوم"، فالسَّعى لِما هو أكثر من المتاح قد يميتنا ميتة تكون عبرة.

قال "سعدون": لو رأى ذكر الإوز الماء فى الإناء المنخفض لَما غامر بالشرب من الدَّلو!

أمسك "حجيزى" بيد "سعدون" واتَّجه به إلى داخل البيت، حيث الحظيرة، كان ذكر الإوز ملقى على ظهره بجوار الباب، دلفا إلى داخل الحظيرة، وأشار "حجيزى" إلى إناء الماء الفخَّارى المغروس نصفه فى الأرض، والممتلئ بالماء الذى صار قذرا. وإلى الدلو القريب منه جدا وفى قعره القليل من الماء الصَّافى.

أشار "حجيزى" إلى آنية الماء، وقال: كيف لا يرى ذكر الإوز الماء الموجود تحت قدميه؟

واستدرك: إنه لم يرض بالموجود الميسَّر، وذهب يمد رقبته ليشرب من الدلو العميق!

صمت "سعدون"، لكن "حجيزى" قال: "ذكر الإوز هذا أغبى من الضَّب".

3

يَدفِنُ النَّاسُ أعزَّ النَّاسِ

فتح "حجيزى" عينيه بصعوبة، رائحة بصل تخترق خياشيمه، وشىء ما رطب ولزج يضغط على أنفه، كان "بكير" يحرَّك بصلة مشدوخة على أنف "حجيزى"، بينما رءوس عديدة منكبَّة فوقه، تكاد تمنع عنه الهواء، وأياد تدلِّك صدره وبطنه من أسفل ملابسه.

- إن شاء الله زين.

ورأى وجه "مزيد" يضحك.

كان ممدَّدا على "الدكَّة" تحت التِّينة، وثغاء النِّعاج يعلو، مترادفا مع صوت ولولة "سريرة"، الواقفة عند بوَّابة حظيرة الأغنام، وعندما حاول الاعتدال، ساعدته الأيدى الكثيرة، وجلس يشد الهواء ويتنفَّس بصعوبة، بينما كلام كثير يجرى حوله، والعيون تنظر إليه بإشفاق، وكان يهزَّ رأسه فوق وتحت من غير أن يفتح فمه.

كانت السَّماء قد ابتهجت بضياء ناصع، و"القعبة" المملوءة باللبن الرَّائب موضوعة هناك على أحد براميل "الجاز" الفارغة، وأخيرا بدأ النَّاس يولونه ظهورهم ويخرجون، يرافقهم "بكير".

قال بصوت خافت وقد نظر إلى "سريرة" التى كانت تقترب: أنا نائم يا "سريرة" أم صاح ؟!

قالت وهى تنحنى بصعوبة للجلوس على طرف "الدكة": صاح يا "حجيزى".

فقال "حجيزى"وهو يدلِّى ساقيه هامًّا بالوقوف: يبقى الأمر لله يا "سريرة".

وما لحقت "سريرة" تجلس، وإنما سارت تدفع نفسها على عكازها خلف "حجيزى" الذى مضى نحو باب البيت الخلفى.

سطع النُّور فى كل أرجاء السَّماء، وأضاءت الصَّحراء، ففاحت ببريق الذَّهب.

أغنام "حجيزى" تثغو متظاهرة، و"حجيزى" جلس على الأرض مستندا إلى الجدار، ينظر إلى الصُّخور الضَّخمة البعيدة، ذات الأشكال العجيبة.

جاء "بكير" حاملا "الجوزة" وهو يشد أنفاسها ليتأجج البص الملتهب فوق المعسَّل، وقدمها لأبيه الذى أخذها بيد خاملة.

- حجر معسَّل سيضبط رأسك يا عم "حجيزى".

لم يفتح "حجيزى" فمه بكلمة، لكن انطلق قطيع الأغنام من الباب بجواره إلى وسع الصَّحراء مثل سهام مُفَوَّقة تعرف أين تصيب. يجرى خلفها "سويلم" و"سلمان" ولدا "بكير"، كل واحد منهما يخرج من الباب يجرى وهو يزعق: خير صباحك يا جَد.

يقولانها وهما يخطفان نظرة سريعة لـ"حجيزى".

"حجيزى" زعق: "سالم"، "سلمان"، ولد، تعالا.

"سلمان" نظر للخلف وهو يجرى وراء القطيع: يا جَد. الغنم تتبعثر فى الصَّحراء!

صرخ "حجيزى": تعال هنا يا ولد، تعاليا، اتركا الغنم، فهى تعرف طريقها فى الصَّحراء أفضل منكما.

مضت الأغنام تهرول نحو قطعان أخرى بعيدة تبدو مثيرة غبار الرِّمال فى الأفق، وأخذ "حجيزى" يقبِّل الولدين على وجناتهما ورأسيهما وقد غرقا فى الدَّهشة، و"سريرة" تنظر من وراء الباب وتبكى، كان "بكير" قد أخذ الجوزة من أبيه، ووقف ينظر إلى "سريرة" التى اتَّكأت على عصاها، واستدارت، وتساندت على الجدار، حتى وصلت إلى جذع نخلة قُطعت منذ زمن بعيد، لكنَّه بقى يضرب بجذور ميِّتة فى الأرض، أراحت ظهرها إليه، وأخذت تنشج.

- تعطيان قُبلة لـ"سليم" أخوكما، لا تنسيا، أخبراه أن "حجيزى" فرحان به، قولا له : كان جَدُّك يتمنى رؤية التِّمثال الذى ستنحته. قولا له: جَدُّك يقول لك اعمل أكبر تمثال لـ"سكيرة" وليذهب "رسلان" أبوها ويخبط رأسه فى أكبر صخرة فى الصَّحراء.

انطلق الولدان نحو الأغنام البعيدة، وكان "بكير" يعطى "الجوزة" لوالده مرَّة أخرى عندما سمعه يهمس: يا "سريرة".

فدخل "بكير" البيت يُخبر "سريرة" وقلبه منقبض.

الجوزة تكركر، وأصوات الأطفال الرُّعاة تأتى من بعيد سارحة على وجه الصَّحراء، صافية مثل النَّدى، يضحكون ويتصايحون، بينما الأغنام تنطلق بتؤدة نحو آفاق أبعد، ومراعى قد تكون أخصب، وعينا "حجيزى" تشبَّثتا بنقطة ما شديدة البعد، نقطة أبعد من الأفق.

"لماذا يدفن النَّاسُ موتاهم، بأى قلب يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاسِ؟".

"سالم" و"سلمان" ولدا "بكير" صارا نقطتين صغيرتين امتزجتا بسواد القطيع الذى يضرب الآن فى ملتقى السَّماء بالأرض، و"سريرة" قادمة تتَّكئ على عصاها، بينما تحمل بيدها الأخرى "قعبة" اللبن، وقد مسحت عينيها من أثر الدموع، وفردت وجهها.

"حجيزى" يسحب نفسا من الجوزة طويلا، وعيناه مازالتا مسمَّرتان بتلك النُّقطة التى هى أبعد من الأفق، وصوت "سعدون" يتراقص على كركرة الجوزة، قادما من الوجدان: ندفنهم لأنهم يتعفَّنون.

- فطورك يا "حجيزى".

هز رأسه بالرَّفض وهو يشد الدخان من غاب "الجوزة".

فقالت "سريرة" بصوت خفيض متوسل: غيِّر ريقك.

كان الدخان يخرج من فمه وأنفه كثيفا، ولم يكن يدفعه بقوة، يحب "حجيزى" أن يترك الدخان ينساب متماوجا أمام وجهه، فكان الدخان، بفعل نسيم الصَّباح الرَّائق، يتحرَّك ببطء نحو لحيته المهذَّبة وشاربه الغزير كثعابين شبعة تتَّجه إلى أوكارها.

ربت "حجيزى" الأرض بكف يده اليمنى، وقال: اقعدى يا "سريرة".

نادت "سريرة": "ثريا"، تعالى خذى قعبة اللبن.

جاءت "ثريا" زوجة "بكير"، وأخذت القعبة، وقبل أن تدخل بها، رأت "سريرة" تسند العصا إلى الجدار، وتتساند على كتف "حجيزى" لتستطيع الجلوس على الأرض، وكان "حجيزى" يبذل مجهودا كى لا يهتز جسده، فيسقط البص الملتهب من على حجر "الجوزة".

ابتسمت "سريرة" وهى تقول: صلاة النّبى عليك يا "حجيزى"، أكبر منى بثلاثين سنة، وأشد منى!

وضحكت "ثريا" وتركتهما ودخلت.

كانت القطعان قد بدأت تختفى فى خط الأفق، وراء هذه الصخور العملاقة غريبة الأشكال، لكن أصوات الرُّعاة المرحة ما زالت تأتى هامسة وصافية.

قالت "سريرة" بعد أن استوت جالسة على الأرض بجوار "حجيزى": شاخت "سريرة" وصارت قبيحة، مثل هذه الصَّخرة الملتوية هناك، صخرة قبيحة بين صخور جميلات.

فقال "حجيزى" والدخان يتدافع من أنفه وفمه: مازلت أجمل امرأة عجوز فى "الوعرة" يا "سريرة".

حوَّلت "سريرة" وجهها عن الصُّخور بسرعة لتنظر إلى وجه "حجيزى"، وقد فتحت عينيها على آخرهما، وكان "حجيزى" يقول: كنت أجمل بنت فى بنات أيامك.

عينا "سريرة" ضاقتا، فصارتا كخرزتين، وبياضهما اختفى تحت غلالة رقيقة من الصُّفرة، ولم تعد لهما علاقة أبدا بعينيها القديمتين اللتين كانتا مثل عيون

البقر، حتى وجهها تكرمش تماما، وامتلأ بتجاعيد غائرة، وإن كان ما زال يضرب بحمرة تشى بجمال فتَّان كان يصقل هذا الوجه قديما، فيلمع مثل سبيكة ذهب.

فتحت "سريرة" عينيها على اتساعهما الذى ضيَّقه الزمن، فبان فى زوايا العينين ركام من اصفرار غامق.

"تقول يا حجيزى إنى أجمل امرأة؟!".

"وى.. وى.. وى.. وى.. وى".

ولولت "سريرة" من المفاجأة، ووضعت كفَّيها على الأرض، تستند عليهما لتهم بالوقوف، وزعق "حجيزى": مالك يا بنت الجحش؟!

وأمسك كتفها: اقعدى.

قعدت "سريرة"، وقالت فى نفسها: اليوم حالك عجيب يا "حجيزى"!

قال "حجيزى": أنا يا "سريرة" سأموت بعد ثلاثة أيام.

فابتسمت "سريرة" وقالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، عمرك يا "حجيزى" عدَّى المائة عام، تريد تخلد فيها؟!".

نظر "حجيزى" فى عينى "سريرة" نظرة حائرة، وقال: ما تحزنى علىَّ يا "سريرة"؟!

ضحكت وقالت: طول عمرك يا "حجيزى" تتكلَّم عن الموت ولا تموت، أنت لن تموت يا "حجيزى"، أنت ستحمل جثَّتى وتدفنها فى مقابرنا البعيدة.

ركن "حجيزى" الجوزة إلى الجدار، وغرس بصره فى الأرض الرَّملية المدكوكة تحت رجليه: أنا ما أخاف من الموت، أنا خائف من الدَّفن.

*****

قال "سعدون" لـ "حجيزى": "أنا يا أخى ما أعرف لماذا تخاف من الدَّفن؟!".

كانت الشمس قد صارت فى كبد السَّماء تمجُّ النَّار، والأغنام توقفت عن الرَّعى واختارت الرَّاحة فى ظل صخرة "الذيب"، صخرة لا يمكن التعرُّف على ملامحها للواقف تحتها من فرط ضخامتها، لكن من بعيد تبدو مثل ذئب جلس على مؤخرته، ورفع صدره ورأسه إلى فوق، يشب من غير ذراعين، وكأنه يريد أن يفترس شمس النَّهار، أو يبتلع نجوم الليل. وبجوار الغنم جلس كل من "حجيزى" و"سعدون" وقد استندا بظهريهما إلى هذه الصَّخرة.

كانت "الوعرة" فى مواجهتهما، بيوت كالحة تتساند على بعضها كأنَّها تخشى الانزلاق من فوق الأكمة التى بُنيت فوقها، والسَّراب أسفل منها يجعلها تبدو وكأنَّها جزيرة تعوم على سطح بحر هادئ، بينما انبثقت من هذا السَّطح مئات من أشجار النَّخيل.

أخرج "سعدون" السِّبرتاية الصَّغيرة من كيس قماش سميك أعده خصيصا لهذا الغرض، حَمْل السِّبرتاية وكنكة شاى صغيرة وكوبين وما يلزم من شاى وسكَّر، وبينما يشعل النَّار فى شريط السِّبرتاية قال: ما أجبت عن سؤالى يا "حجيزى".

"نصنع هذه الحياة جميعا، ثم لمَّا يموت الواحد منا يعزلونه بعيدا، يدفنونه، أنا بنيت هذه البيوت مع الذين بنوا، وزرعت هذه النَّخيل مع الذين زرعوا، ومشيت على هذه الأرض، ورعيت الغنم فى هذه الصَّحارى، هذه الدُّنيا

ليست دنيا الذين سيبقون من بعدى وحدهم، ولكنَّها دُنيَتى أيضا، ستظل تحمل آثارى، أنا أنجبت "بكير"، و"بكير" أنجب "سليم" و"سالم" و"سلمان"، قطع منى ستبقى تعمر هذه الأرض، فلماذا عندما أموت يريدون إقصائى بعيدا؟ من الذى علَّم الإنسان هذه القسوة، من الذى علَّم الإنسان دفن أحبَّائه؟ من الذى أوحى إلينا بدفن أعزِّ النَّاس إذا ماتوا؟".

النِّعاج تمطُّ رقابها على ظهور بعضها، وهى تستمتع بنوم الظَّهيرة فى ظل صخرة "الذيب"، ومن حين لآخر يعلو ثغاء إحدى النِّعاج، فترفع الأخريات رءوسها تستطلع ما حولها بانتباه شديد.

وارتفعت ضحكة "سعدون"، وقدَّم الشاى لـ "حجيزى" وقال: واه عليك يا شيخ حجيزى! تريد إذا مت تقعد بين النَّاس وأنت جثة ؟!

قبض "حجيزى" من الأرض قبضة رمل، وكان يصوِّب بصره نحو أسوار بساتين النَّخيل البعيدة التى تمتد لمسافات شاسعة فى شمال "الوعرة"، وكان الرَّمل ينساب هاربا من بين أصابع قبضته، قال هامسا: الونس يا "سعدون".

قال "سعدون": الونس نعمة.

وقال: "لمَّا تذهب "بثينة" لزيارة ناسها، وتبقى هناك أسبوعا، يتحول البيت إلى قبر، وأصير ما أريد دخوله، والله كلامك صحيح يا "حجيزى".

وقال: لكن يا "حجيزى" الأحياء فقط هم من يحتاجون الونس هذا.

فقال "حجيزى": وأنا كم مرَّة أقول لك إنك ما تفهم شيئا يا "سعدون"؟!

*****

كان "بكير" متمددا على سريره فى غرفته، وقد أراح رأسه على وسادة مرتفعة، عندما دخلت زوجته "ثريا" تضحك، وبين يديها القعبة المملوءة باللبن الرَّائب، قالت: وى. وى. وى. لو رأيت "سريرة" و"حجيزى"!

ومدت يدها بالقعبة نحو "بكير": اشربه أنت، أبوك ما له نفس هذا الصَّباح.

وضحكت جدا وهى تقول: نفسه هذا الصَّباح فى أمِّك.

وقالت: لو رأيتهما ما تقول عنهما اثنين من العواجيز، تقول صبايا!

أخذ "بكير" القعبة، ورفعها إلى فمه، وأخذ يشرب، كان يمص اللبن بصوت مثل صوت فأر يقرض قطعة من الخشب الرقيق، وكانت "ثريا" تقول: ما رأيت رجلا فى حياتى مثل "حجيزى".

فقال "بكير": كنا سنسافر اليوم إلى "موط"، يجب أن نبيع التُّمور، وراءنا مصالح و"حجيزى" سيعطِّلنا.

كانت إحدى الدَّجاجات قد دخلت الغرفة، وخطت فيها بضع خطوات متلصِّصة، فهشَّتها "ثريا"، ففرَّت الدجاجة إلى الخارج وهى تقرقر وتضرب بجناحيها، وقالت "ثريا" وهى تنظر لـ "بكير" نظرة استغربها: مهما غربلت الشَّعير يا "بكير" ما يصير قمحا.

فرغت القعبة، وأعطاها لـ"ثريا"، ومسح شاربه، وقال فى نفسه: ماذا تقصد بنت الشَّيخ "عامر"؟!

فقال بصوت عال، تعمَّد أن يجعله غاضبا: ما علاقة الشَّعير والقمح بما كنَّا نتكلَّم فيه؟!

جاءت "ثريا" وجلست بجوار "بكير" على حافَّة السَّرير، وقالت: فى مغارب أمس، دخل "حجيزى" الحظيرة وراء الغنم، وطالت قعدته فيها، قلت لنفسى

هو بالتَّأكيد ينظِّف الحظيرة، وقلت أدخل أساعده، ودخلت فوجدته جالسا فى ركنها القبلى، لم يكن يفعل شيئا، وكان ساكنا تماما، أنا خفت، لا أعرف لماذا ظننت أنه ميِّت؟! فاستدرت أخرج وجسمى كله يرتعش، لكنِّى سمعته ينادينى بصوت خافت، فحمدت الله فى سرِّى أنه حى، وذهبت إليه وقلبى مازال يدق كالطَّبل، قال لى وكأنه قرأ فكرى: ما عاش "حجيزى" يا "ثريا" حياته كلَّها يفكِّر فى الموت، ليموت فى النِّهاية تحت مباعر الغنم.

وسكتت "ثريا".

سكتت "ثريا" فضرب "بكير" كفًّا بكف، وقال وهو يهم بالنزول من على السَّرير: ما عرفت بعد العلاقة بين الشَّعير والقمح، وما تقولينه الآن!

أمسكت "ثريا" بذراعه وهمست: سُقت عليك النَّبى تجلس، الحكاية ما كملت بعد.

كانت نبرة "ثريا" قد اختلفت، فنظر "بكير" فى عينيها.

عينا "ثريا" بحر لبن تسبح فيهما جزيرتا ليل مدوَّرتان، لكنَّهما الآن بحيرتا دماء متوهِّجتين، ونشجت: على نور المغارب رأيت عينىْ "حجيزى" يا "بكير"، كأنَّهما النَّار، وكانت دموعه تتبخَّر، وحياة سيدنا النَّبى رأيت البخار يتصاعد من عينيه، قال لى: تعرفين يا "ثريا"؟ "سعدون" مات فى الصَّباح.

قلت له: أعرف.

قال: منذ أسبوع مات "غنيمة" فضاقت "الوعرة"، اليوم ضاقت الصَّحراء كلها.

وسكتت "ثريا".

"بكير" مدَّ سبَّابته إلى القعبة فى حجر "ثريا"، مسح من جوانبها لبن رائب عالق، ثم مصَّ سبَّابته، قال: ما أحبَّ "حجيزى" أحدا بقدر ما أحبَّ "غنيمة" و"سعدون"، خاصَّة "سعدون".

قالت "ثريا": كل الذى قاله حجيزى عن موت "غنيمة" و"سعدون" ما أبكانى، أبكانى لمَّا قال: الدُّنيا ما ضاقت علىَّ هكذا يوم ماتت "سريرة".

فتح "بكير" عينيه بأسرع من حرباء تقذف لسانها تريد اصطياد ذبابة، وهتف: هيه؟!

قالت "ثريا": مدَدت ذراعى ووضعت كفّى على كتفيه، هزَزته وقلت: مالك يا با "حجيزى"، "سريرة" ما ماتت، "سريرة" بالدَّاخل فى حجرتها.

قال: "سريرة" فى قبرها، مدفونة فيه منذ زمن.

قلت وأنا أشهق: ما تترك موت أبويا "سعدون" يعمل بك هذا!

تقول "ثريا": خبا نور المغارب، وصارت الحظيرة عتمة، وربضت الغنم تريد النَّوم، وقال "حجيزى" وهو ينهض متساندا على ذراعى: عشرون سنة مضت ما ناديتها باسمها، ولا نادتنى باسمى، عشرون سنة ما قلت لها يا "سريرة"، ولا قالت لى يا "حجيزى".

وعند باب الحظيرة نظر فى عينَىْ وقال: تبقى ماتت أم لا ؟

"بكير" صامت تماما، ينظر وهو جالس على سريره فى مرآة التَّسريحة نظرة ثابتة، نظرة من يقرأ فى كتاب غير مفهوم، وبالفعل همس، وقال: ومال القمح والشَّعير بكل هذا؟!

قامت "ثريا" من على حافة السَّرير، وضربت بكفها كتف "بكير"، وزمَّت شفتيها، وأخذت تلويهما شمالا ويمينا، وقالت وهى تهم بالخروج من الغرفة: ما ولدت عقربك يا "حجيزى"!

أخذ "بكير" الوسادة الصَّغيرة، وألقاها نحو "ثريا" وهو يزوم، وكانت هى تهرول نحو باب الغرفة ضاحكة.

*****

"متى يأتى المُعزِّى إذن؟!".

مدَّ "حجيزى" ساقيه واضعا إحداهما على الأخرى، وسرح ببصره إلى أفق الصَّحراء . ومن غير أن يشعر قامت "سريرة" من جواره بصعوبة، وهى تتَّكئ على الجدار وعصاها، حتى استطاعت الوقوف تماما.

"طالما سرح حجيزى فليست هناك فائدة من الجلوس بجواره، لن يكون بيننا إلا الصَّمت".

"عشرون عاما تنتظره يا حجيزى وهو لا يجىء، هل كان المسيح كاذبا، أم أن كل ما حدث ليس أكثر من وهم؟!"

دلفت "سريرة" من الباب الموارب إلى حيث فسحاية البيت، اتَّكأت على الجدار، ثم اتَّكأت على "المزيرة"، ثم اتَّكأت على جذع النَّخلة المتبقِّى متشبِّثا بالأرض، وأخيرا وصلت إلى "الدكَّة" أسفل شجرة التِّين، وجلست تنهج، وضعت عصاها إلى جوارها، وجلست تنشج، وغنَّت بالصوت الواطى كلاما باكيا، وندبت "وااااها وااااها يا حجيزى".

بالكاد تُسمع نفسها، وبالكاد تَسمع خرير الدُّموع الفيَّاضة من عينيها.

"قلت يا حجيزى كلاما حلوا".

"يحلو الإنسان قبل أن يموت".

خرجت "ثريا" من غرفتها فى يدها القعبة الفارغة، فرأت "سريرة" تهتز بجذعها على الدكِّة اهتزازات رتيبة، تميل يمينا وتميل شمالا، وسمِعَتها تترنَّم كأنَّها تعدِّد، فوضعت القعبة على منضدة خشبية متهالكة فى الركن الذى فيه فرن الخبيز وكانون الطَّبيخ، وأسرعت إليها وقد انزعج وجهها، وارتمت تجلس بجوارها، ثم شدَّتها تحتضنها، وهمست "ثريا" بصوت ملتاع: مالك يا "سريرة"؟!

و"سريرة" صارت فى حضن "ثريا" جسدا متهالكا يرتج بعنف، بينما فحيح البكاء يتدفَّق من فمها وأنفها.

*****

كانت صلاة ظهر، والشيخ "مزيد" سلَّم منهيا الصَّلاة: السَّلام عليكم، السَّلام عليكم.

و"حجيزى" قال: السَّلام عليكم، السَّلام عليكم.

ثم نظر فى وجه الجالس شماله وقال غاضبا: إيه يا وِلْد "فُتحَة"! تربِّى فى فمك زرزورا؟!

وِلْد "فُتحَة" نظر إلى "حجيزى" وابتسم، لكن "حجيزى" رفع كفَّيه مقلوبين إلى ما بين صدره وركبتيه، وأخذ يهزَّهما إلى فوق وتحت، بينما يحرِّك سبَّابتيهما

ووسطاهما حركة سريعة، وكان يقول: تقرأ القرآن مع "مزيد" وفمك يصوْصوْ، صوصوصوصوصو !

لم يقل وِلْد "فُتحَة" شيئا، وإنّما نهض واقفا وهو يبتسم أكثر، و"حجيزى" زحف على يديه وركبتيه إلى العامود، وجلس متَّكئا بظهره إليه كعادته، وكان يخرج السِّبحة من جيبه، ووِلْد "فُتحَة" قد اقترب من باب المسجد، وبينما يرفع رجله ليعبر الحاجز الخشبى الواطئ ليخرج، قال "حجيزى": أبوك "فُتحَة" كلب ابن كلب، يربِّى فى فمه جاموسة تنعر.

زادت ابتسامة وِلْد "فُتحَة" قبل أن يختفى.

لكن ضحكة "فُتحَة" نفسه علت من آخر الصَّف، من وراء ظهر "حجيزى"، ثم علا صوته: يسامحك الله يا عم "حجيزى".

ولم يهتم "حجيزى" بالنَّظر ناحية "فُتحَة" وهو يقول: من يسمعكم تقرأون مع "مزيد" يقول الإيمان فى قلوبكم زاد وطفح، وأنتم ولاد كلب ما عندكم دين.

خرج صوت "غنيمة" عاليا يكركب: ما الحكاية يا "حجيزى"، كل صلاة نقعد نسمع كلامك الماسخ هذا؟!

وجاء صوت "فُتحَة" يتخبَّط بين الجِد والهَزْل: حسبنا الله ونعم الوكيل، على آخر الزَّمان ما عندنا دين!

كان "حجيزى" منهمكا فى التَّسابيح، بينما البعض يصلُّون السُّنَّة، والبعض يقوم يخرج.

وكان "سعدون" جالسا على ركبتيه بجوار العامود، فقال "حجيزى": "فُتحَة" الكلب حضر بالأمس دفن "صالح" ولد "سعدانى"، الولد ينزلونه القبر، وهو جالس على مؤخرته يدخِّن سجائر!

قال "سعدون": وما العيب يا "حجيزى"، دائمًا ناس ينزلون الجثث إلى القبور، وناس يجلسون على مؤخِّراتهم يدخِّنون سجائر، والكل يركبه الحزن!

تمتم "حجيزى": نرتكب الذُّنوب فى مواقف العبر.

قال "سعدون" مندهشا: وأين الذَّنب الذى عمله "فُتحَة"؟!

"حجيزى" وضع السِّبحة فى جيبه، ونظر فى عينى "سعدون" وقال: رأيتَ جثَّة "صالح" ولد "سعدانى"؟! رأيتَها كيف انزلقت إلى القبر بسرعة؟! مثل كل الجثث، لا أعرف لماذا تنزلق الجثث إلى قبورها بكل هذه السُّرعة؟!

قال "سعدون": الله يصبِّر "سعدانى" وزوجته.

ثم تمتم: لكن "سعدانى" لا يتَّقى الله أبدا، ما رأيته فى يوم دخل المسجد وصلى لله ركعة.

كان "غنيمة" قد انتهى من أذكار بعد الصَّلاة، ولم يكن بعيدا، فحبا هو الآخر على يديه ورجليه حتى جلس بجوار "حجيزى" و"سعدون".

"حجيزى" قال: قصدك يا "سعدون" تقول إن الله يعاقب "سعدانى"؟!

قال "سعدون": العيال نعمة، المحافظة عليها تكون بتقوى الله.

كركب صوت "غنيمة": أنا أصلِّى الوقت حاضرا، و"الزبير" ولدى تركنى من سنين، ولا أعرف خبرا واحدا عنه، يا إخواننا مالها تقوى الله وحالنا فى الدُّنيا ؟! ولا أحد فيها خالى من الهم، ولا واحد إلا وكانت شجرة المصائب مزروعة فى بستانه.

قال "سعدون": لكن مصيبة "سعدانى" جاءت شديدة، ولده الوحيد، وفى عمره الحلو، بالكاد كمَّل السنتين، كان يروح ويجىء به وقد حمله على كتفيه، والولد يلاغى النَّاس كلها، هى مصائب تدردف على الرءوس.

رفع "غنيمة" طرف جلبابه ومسح مخاطا تسرَّب من فمه، وصوته كركب: "سعدانى" صغير، وزوجته صغيرة، ابن الكلب نطَّ عليها فى أوَّل ليلة، ما عدَّت التِّسعة شهور حتى جاءه الولد، ينجب ثانية.

ورفع "سعدون" ذراعيه، ونظر إلى السَّماء مخترقا ببصره قبَّة المسجد، وقال بصوت محروق: يا رب احفظ لى "جميل"، تعلم أنه جاء بعد عذاب السنين.

وبينما "حجيزى" يتساند على العامود ليقف، قال: لكن رأيتم كيف قفزت جثَّة الولد إلى القبر؟

هتف "سعدون" وهو يستند بكفّى يديه إلى الأرض ليقوم: قَفَزت!

قال "حجيزى" وكان قد وقف معتدلا تماما: نعم، انزلقت إلى القبر بسرعة!

"غنيمة" يصغر "سعدون" فى السنِّ بأكثر من عشر سنوات، عبر الستين عاما بالكاد، جسمه خفيف، بشرته تميل إلى السُّمرة، يحرص على حلق ذقنه وشاربه ليلمع وجهه مثل مرآة، بينما يترك شعر رأسه مهوَّشا تحت العمامة التى يطبِّقها فوق رأسه بطريقة عفوية، مثل كل رجال الواحات.

وقف "غنيمة" على قدميه، ثم انطلق نحو الحائط المنحوتة فيه كلمات الأمير المملوكى "شقمق" بيك.

نظر "حجيزى" نحو "غنيمة" وقال موجها كلامه لـ"سعدون": صاحبك مجنون بالشقمق هذا، النَّاس بعد الفرض تصلِّي ركعتين، لكن هو يذهب يتحسَّس الكلام المنحوت!

فقال "سعدون": كل واحد فيكما له ما يجن عقله، أنت يا "حجيزى" مجنون بالموت.

ولما وصلا إلى باب المسجد خرج "حجيزى" أولا، وبينما كان "سعدون" يخطو الحاجز الخشبى خارجا، استدار برأسه ونظر إلى عمق المسجد، وقال: والله أنا أستعجب! لماذا تركوا هذا العامود ناقصا؟! العامود واقف فى نصف المسجد كالخازوق!

قال "حجيزى": ما كان يمكن أن يكملونه، لأن فوقه سرَّة القبَّة، هو معمول فقط لترتكز عليه هذه العروق الخشبيَّة الثَّقيلة، يا أخى السَّلاسل المدلَّاة ربَّما زاد وزنها عن طُن!

غمرتهما شمس ما بعد الظَّهيرة.

قال "سعدون": يمكن جيش العثمانيين لم تكن له خبرة بالبناء!؟

قال "حجيزى" بلا مبالاة: يمكن!

4

الحىُّ ذَاهِبُ إلِى المَوتِ، والميِّتُ يَحيَا

عندما جاء الإنجليز إلى "مصر"، ورأوا حجم الخيرات المبارك فيها، قالوا "هذه هى البلاد التى تستعمر بحق"، فعملوا فيها أعمالا لا يعملها المغادرون، وإنما يعملها المخلَّدون فيها، وكان من بين ما عملوا، شريطا للسِّكة الحديد يصل ما بين "أسيوط" و"الخارجة"، فى صحراء غرب "مصر" القاحلة، حيث رأوا فى هذه الصَّحراء ما لم يستطع أهلها أن يروه، رأوا جبالا من فوسفات، وهضاب منجنيز، وحديد، ومعادن أخرى، ورأوا أنه لا يمكن الاستفادة بكل هذه الكنوز لو لم تكن هناك طريقة سريعة لتصريف الإنتاج إلى مصانعهم فى بلاد "إنجلترا"، حيث تُصنَّع هذه المنتجات، لتدخل فى منتجات أخرى يعوزها النَّاس فى كل العالم. وتكسب "إنجلترا" الأموال الكثيرة، فتصنع مزيدا من البنادق ومدافع الأساطيل البحرية، وتنشئ جيوشا جديدة، لتستولى على بلاد أخرى، وعباد آخرين، وتعمل امبراطورية لا تغيب عنها الشَّمس.

ولم تكن الشَّمس قد غابت، عندما جلس "حجيزى" و"غنيمة" على فرشة بسيطة من صوف الخراف، تحت شجرة الجَّميز أمام بيت "حجيزى"، وكانا يشربان الشَّاى، ويدخِّنان "الجوزة".

وكانت ضجَّة العصافير التى تسبق المغارب قد بدأت، مئات العصافير تصأصئ فى نفس الوقت، ولمسة من عبير نسيم صحراوى، وقمم الصُّخور

غريبة الأشكال داكنة فى عين الشَّمس، وقبَّة المسجد تنعكس عليها أشعَّة الشَّمس الغاربة، فتبدو قبَّة مبنية من سبائك الذَّهب، وتبدو الجدران البيضاء للبيوت المتلاصقة مثل رخام يشع بوهج أحمر، بينما الجدران المطلية بالجير الأزرق تسطع بلمعة رمادية ساحرة.

شد "حجيزى" نفسا طويلا، ثم نفخه وهو يسعل، وأعطى الجوزة لـ "غنيمة" وهو يقول: العصافير ليست مثلنا، العصافير يا "غنيمة" تصلِّى فى اليوم مرَّتين فقط ، فى الفجر وقبل الغروب.

قال "غنيمة": تكره الإنجليز يا حجيزى؟

وكان "غنيمة" سيُكمل تساؤله، لكن "حجيزى" قال: قامت الحرب بيننا وبينهم فى "سيوة"، كنت بالكاد عمرى أربعة عشر عاما، وكان "شديد" أبى أخذنى معه فى قافلة مسافرة ببعض الرُّهبان إلى دير قبلى "العلمين".

ولمَّا سكت "حجيزى"، همَّ "غنيمة" بالكلام، لكن "حجيزى" قال: كانت المرَّة الوحيدة التى سافرت فيها إلى بحرى، لم أر البحر، لكنِّى كنت قريبا منه جدًّا، حتى أننى سمعت وشيش الموج، ورائحة الماء عبأَّت ضلوعى.

سكت "حجيزى"، وسكت "غنيمة".

وعندما طالت فترة الصَّمت، و"غنيمة" يشد الدُّخَان من "الجوزة" من غير كلام، قال "حجيزى": لماذا تسكت يا "غنيمة"؟! كنت تريد تقول شيئا.

قال "غنيمة": ما أقول؟! أنت أخذت الكلام كلُّه لنفسك يا "حجيزى"، ما تعطى فرصة لغيرك يتكلم يا أخى! لن أقول شيئا؟!

قال "حجيزى": لكنَّك كنت تريد تقول شيئا عن الإنجليز يا شيخ.

قال "غنيمة" وهو يعطى الجوزة لـ"حجيزى": كنت أريد أقول شيئا عن العصافير، لكنِّى لن أقول، تأخذ الكلام وحدك وليس عندك أخذ وعطاء.

دلق "حجيزى" كوب الشَّاى فى جوفه، ثم خبط قعره فى الصِّينية وهو يضعه فيها، وبان على وجهه الغضب، وزعق: لا تقل شيئا، عجائب أمرك يا "غنيمة"! امَّا تتكلَّم وحدك، وامَّا لا تتكلَّم أبدا! لا تقل شيئا يا أخى.

لم يجتمع غضبا "حجيزى" و"غنيمة" أبدا، إذا غضب أحدهما لان الآخر بسرعة، كانت طريقة وضع "حجيزى" للكوب فى الصِّينية، واحمرار وجهه، يؤكدان أن "حجيزى" غضب فعلا، كان "حجيزى" أحيانا يتصنَّع الغضب ليُرغم "غنيمة" على العودة عن مواقف لا يحبُّها، وكان "غنيمة" يرجع حرصا على ألَّا يغضب "حجيزى"، لكن "غنيمة" اكتشف حيلة "حجيزى"، فأصبح لا يعود عن أى موقف إلا إذا تأكَّد من أن غضب "حجيزى" حقيقى.

- رأيت القطار يا "حجيزى".

- أنت تعرف أنى ما رأيته فى حياتى، لكن سمعت عنه.

- إذا نظرت إليه من بعيد، شكله مثل شكل الثُّعبان...

- قالوا لى رأسه مثقوب من فوق، ويخرج منها دخان أسود.

- وإذا اقتربت منه تجده بيوتا خشبية لها نوافذ وأبواب، ومربوطة إلى بعضها بالحديد، ولها عجلات من حديد، وتجرى على سكَّة من حديد.

- سبحان الله، ابن المرأة ما غلبه إلا الموت!

- خذها منى كلمة يا "حجيزى"، سيأتى على ابن آدم اليوم الذى يغلب فيه الموت.

فنظر "حجيزى" إلى "غنيمة"، الذى كان يدلق القهوة فى فمه، نظرة انبهار، بينما نور النهار يقترب من الانطفاء.

*****

نور النَّهار يقترب من الإنطفاء، و"حجيزى" و"سعدون" يمشيان على مهل عائدَين إلى البيوت، تسبقهما الأغنام وهى تجرى. الصَّحراء بدأت تخبو، وأطراف الصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال تضيئ بأشعة الشَّمس التى غربت، و"ضب" يزحف بأقدامه القصيرة فوق الرِّمال، متجها إلى جحره أسفل شجرة من أشجار "العبل" القصيرة، التى تنتشر فى بقع متناثرة من الصَّحراء، وبيوت "الوعرة" تبدو من بعيد فى بدايات الظَّلام مثل مستعمرة النَّمل، كالحة ومبهمة .

قال "حجيزى": الموت نفسه لا يخيفنى يا "سعدون"، طالما سأموت بين النَّاس، الموت فى الونس ليس مشكلة، حتى الغُسل سأتقبله، رغم أنه فضيحة، لكن طالما فى الونس سأتقبَّله، يحملونك على محفة فوق أكتافهم، ونس أيضا، لكن الدَّفن! الدَّفن يعنى الوحدة يا....

وتوقَّف "حجيزى" عن الكلام، وعن المشى، ونقر الأرض بعصاه التى يرعى بها غنمه، فاصطدمت بشىء يشبه الزَّلطة، فمال إليها، وأزاح الرَّمل من حولها، لم تكن زلطة، لكنَّه أمسك بها ورفعها إلى عينيه يتأمَّلها، كانت صَدَفة من أصداف البحر، بالكاد تملأ يده.

قال "سعدون" متعجِّبا: هذه الأصداف لا تكون إلا فى البحور.

واستدرك: يقولون أن هذه الصَّحارى كانت فى يوم من الأيام البعيدة بحورا وغابات!

وضع "حجيزى" الصَّدَفة على أذنه: وشيش البحر مازال يهمس فيها، نفس الوشيش الذى سمعته لمَّا سافرت مع والدى إلى قِبلى "العلمين".

وغرس أنفه فيها، وشمَّها، وقال: لكن ليس فيها رائحة البحر!

وبينما يواصلان مشيهما نحو البيوت، قال "سعدون": حظَّك حلو يا "حجيزى"، هذه الأصداف تكون مدفونة بعيدا، وأنت تجدها على وجه الرِّمال!

*****

نظر إلى الصُّخور النَّابتة على سطح الرِّمال، مثل تماثيل تشوَّهت، كانت منذ آلاف السِّنين جدرانا صخرية عظيمة، هل كانت هنا بيوت الفراعنة؟ كانت هنا غابات! وأسود تصرع الغزلان، هل كان فعلا قبل ذلك كله بحر كبير له رائحة مثل تلك التى يشمُّها "حجيزى" قادمة من عند بحر "العلمين" بعد كل فجر؟!

"لكن بحر العلمين بعيد جدا، أبعد من التصور، الرحلة يومها مع والدى أخذت شهرا تقريبا من السَّفر المرهق، البحر أبعد من أن تأتى رائحة مياهه إلى هنا.

ربَّما رائحة البحر هذه تنبعث من تحت رمال الصَّحراء، من باطنها السُّفلى، حيث تسرسب البحر فى الزَّمن القديم من بين ذرَّات الرِّمال واختفى .

لكن مالى الآن والبحر؟! ليكن اهتمامى بما أنا مقدم عليه من موت.

آن لى أن أبدأ فى تنفيذ الخطَّة، فلن أسمح لهم أبدا بأن يدفنونى.

قام "حجيزى" من جلسته، وقبل أن يدلف إلى منزله من الباب الخلفى، نظر مرَّة أخرى إلى الصُّخور ذات الأشكال العجيبة، نظر إليها طويلا، ثم عرَّج على الأفق، وألقى بعين قلبه نظرة على قطعان الغنم والماعز وهى تأكل بنهم من كلأ الصَّحراء، بينما الرُّعاة الصِّغار يلهون ببعض سحالى الحرباء، أو يجرون خلف ضَب ضل طريقه إلى جحره، بينما تتعالى صيحاتهم المرحة.

ثم عبرت بصيرته هذا الأفق القريب، إلى أفق آخر أبعد، لا يُرى من هنا، حيث جبل الرُّهبان، والأشجار المتراصَّة أسفله، والكهوف التى يسكنها هؤلاء المنقطعون عن دنيا البشر، وشعر بالحنين إلى الجلوس مع الراهب "يوأنَّس"، وتمنَّى لو يسمع منه مرَّة أخرى حكايته التَّعيسة مع البنت "سيرين"، كما أنه يود لو رأى الذِّئب ثانية.

"لم تنس الموت أبدا يا حجيزى، قضيت عمرك تفكِّر فيه، وتظن أنك تعرفه، لكنَّه ها هو الآن يطل بوجه لم تعرفه أبدا، رأيت النَّاس يموتون، والعالم حولك باق كما هو، يركض فى الحياة بعنفوان الحى، لكن الآن أنت من سيموت، انظر يا حجيزى، واملأ عينيك وصدرك، وودِّع".

دخل البيت، وسحب النَّاقة من مربضها، وأخرجها إلى تحت شجرة "الجميز" أمام البيت، وأناخها مرَّة أخرى.

رغت النَّاقة رغاء قصيرا متقطِّعا، وهى ترفع رأسها وتنظر حولها ملتفتة إلى الشِّمال واليمين، تعرف ما الذى سيفعله "حجيزى"، لذلك هى فرحة، رغاء الجِمال هو الذى يُبيِّن فرحها، أمَّا عيونها فآبار حزن.

جاء "حجيزى" بدلو ماء وصابون وقطعة من خيش الأجولة التى يعبِّئون فيها التَّمر، شمَّر أكمام جلبابه القصير، وثنى أطراف سرواله، وبدأ يغسل النَّاقة.

"سأغسل النَّاقة".

"وما الجديد؟! طول عمرك تغسل النُّوق!".

"هذه آخر مرَّة سأغسل فيها النَّاقة!".

"ما معنى هذا؟ ما معنى أن هذه المَّرة هى الأخيرة التى سأغسل فيها النَّاقة؟".

"معناه أن هناك مئات المرَّات التى غسلت فيها ناقتك قد مضت دون أن تنتبه للمتعة فى هذا الأمر".

السَّعادة هى جِماع المُتع المنثورة فى كل تفاصيل حياتنا، حتى أسوأ تفصيلة تحمل متعة ما، لكننا فى بحثنا المحموم عن السَّعادة، كُتلة واحدة مكتملة وواضحة، ندهس هذه المتع، ولا نجد السَّعادة أبدا.

السعادة لن تأتى أبدا كُتلة واحدة مكتملة وواضحة.

ها هى النَّاقة سعيدة جدا عندما تدعك لها ما أسفل وحول أذنيها، المتعة فى أن تجعل هذه النَّاقة تستمتع أكثر وأكثر، ادعك ما تحت حنكها، أسفل رقبتها، استمع إلى رغائها الذى يكاد يغنِّى، واستمتع أنت.

كان قد انتهى من غسل كل جسدها وهى منيخة، فأقامها وانهمك فى دعك بطنها.

متِّع الناقة يا "حجيزى"، متِّع.

خرجت "سريرة" من باب البيت تتوكَّأ على عصاها، ثم جلست بعد جهد على طرف المصطبة، وظلَّت متوكِّئة بكلتى يديها على انعقافة عصاها، وسندت ذقنها الغاطس فى التَّجاعيد إلى ظهرى يديها الّذين برزت منهما عروق الدِّماء الخضراء، وأخذت تنظر إلى "حجيزى" وهو منهمك فى غسل النَّاقة.

قالت لنفسها: إذا كان "حجيزى" سوف يموت، فالبكاء الآن ليس بالعمل الصَّائب، العمل الصَّائب الآن هو أن أملأ عينىَّ منه، وأضع صورته فى قلبى.

لذلك مسَحَت العبرات، وخرجت تجلس على المصطبة، وتنظر إلى "حجيزى".

الكلمة التى قالها "حجيزى" منذ قليل، ترن فى أذنيها مثل شقشقة عصفور: كنت أجمل بنت فى بنات أيامك.

وبسمة ترف على جانبى فم "سريرة".

"حجيزى مازال جميلا، عمره مائة عام، لكن ها هى عضلات تتراقص فى سمَّانتيه، وهو يتلوى تحت النَّاقة يغسل مابين فخذيها وذراعيها، لا يتَّكئ على عصا مثلى".

كانت "سريرة" تسرح بناظريها فى جسد "حجيزى".

وبينما يدور حول النَّاقة، رأى "سريرة" جالسة على المصطبة، تسند رأسها على يديها القابضتين على انحناءة عصاها، وتُمعن النَّظر فيه.

عينا "سريرة" كانتا مختلفتين عن عينيها اللتين عرفهما "حجيزى" طوال السِّنين الطَّويلة التى مضت، تبدوان الآن أليفتين، بل تبدوان داعيتين!!

"استح يا سريرة، مالك وعضلات حجيزى، أكثر من عشرين سنة لم تفكِّرى فى عضلاته، ولا فى أى قطعة أخرى من جسده، تفكِّرين الآن؟! استح يا سريرة".

كلام تقوله لنفسها، ورغم ذلك بقيت "سريرة" تنظر ناحية "حجيزى" الذى رمقها بنظرة خاطفة، ثم استدار، وأخذ يصب الماء على سنم النَّاقة.

"سريرة تدعونى الآن للفراش؟! نعم، ما أنسى أبدا نظرة سريرة الدَّاعية لنوم الفراش، نظرة شاربة من ينابيع العهر الصافى".

وشعر "حجيزى" بالمرتخى يشتد، ومد يده بين فخذيه فلم يجد جلدة ميِّتة مدلَّاة، وإنما وجد وتدا يتَّجه للامتلاء، ونظر ناحية "سريرة" فوجدها تبتسم، وعيناها الضيِّقتان غجريتين، والذى كان منبطحا ينتصب.

وقالت "سريرة": يا "حجيزى".

ووقفت فى فتحة الباب تستند على عصاها، ونظرت ثانية إلى "حجيزى" ونادت: يا "حجيزى".

ودخلت.

والنَّسمات حملت أنفاسا ملتاعة نفخها الجوى، فقال "حجيزى" فى سرِّه: يا رب، الحىُّ ذاهب للموت، والميِّت يحيا!؟

ترك النَّاقة مبتلَّة من غير أن يجفِّفها، وراح إلى باب البيت. بينما راحت الشَّمس تضرب فى مرتفع السَّماء، وبدأ وهجها ينسكب على الأرض، وكذلك حميمها.

*****

صحن المسجد فى أوقات الظَّهيرة نعمة طيِّبة، إذ يكون رطبا طريًّا، وفى الخارج سكون القيلولة، والجو يدعو إلى الاسترخاء، ومن ثمَّ إلى النَّوم. وكثيرا ما يفضِّل "حجيزى" أن يقضى قيلولته فى صحن المسجد.

صلَّى "حجيزى" كعادته صلاة الظُّهر، ثم ذهب إلى بيته وتغدَّى، وعاد إلى المسجد لينام، فوجد "غنيمة" يقف عند كتب الشَّيخ "مزيد"، وقد فتح أحد هذه الكتب بين يديه، وانهمك فى النَّظر إلى ما فى بطنه.

لا ينام "حجيزى" أبدا طالما كان هناك أحد فى المسجد، وإنما يجلس فى مكانه عند العامود مستندا بظهره إليه، ويمدَّ ساقيه، ويبدأ فى تأمل أى شىء من تكوينات المسجد.

"الجدران عريضة جدا، يقترب عرض الجدار من متر كامل!".

يتذكر "سعدون" وهو يقول: بنى العثمانيون هذه الجدران سميكة لهذه الدَّرجة، ليحتفظ المسجد بالبرودة صيفا، وبالدِّفء شتاء.

واستدرك "سعدون": العثمانيون كانوا أتقياء، لذلك اهتمُّوا بالمساجد أكثر من اهتمامهم ببيوتهم.

واستدرك قائلا: تهدَّمت بيوتهم ولم يبق لها أثر، لكن بقى المسجد الذى بنوه.

لكن "غنيمة" أعصابه انفلتت لما سمع "سعدون" يقول: العثمانيون أحبُّوا الله أكثر مما أحبَّه السَّلاطين المماليك، لذلك مكَّنهم الله منهم فأهلكوهم.

صرخ "غنيمة" فكركبت حنجرته، وتخبَّط صوته: الأتراك أنجاس أرجاس أولاد كلب، يتكلَّمون من أنوفهم، ويعتقدون أن أى بشر غيرهم عبيد أبناء عبيد، وواحد فقط مثل "شقمق" بيك كسر أنف جيشهم بالكامل الذى أتى إلى هذه الصَّحراء يطارد فرسان المماليك.

وضحك بِغِلٍ ساخر وهو يقول: بيوت؟! الجيوش لا تبنى بيوت، وإنما تنصب معسكرات من مبانى هشة حقيرة، تتركها ببساطة عند الرَّحيل، المعسكرات دائمًا أضعف من أن تبقى فى مواجهة الزَّمن.

نظر "سعدون" بعينين حادَّتين إلى "حجيزى"، وقال: يا "حجيزى"، المماليك جبناء، هربوا إلى الصَّحارى البعيدة عن بلادهم، لكن العثمانيين ما تركوهم.

لكن "غنيمة" هتف وهو يقبض بيديه على جانبى ياقة جلبابه، كأنه سيمزقه: والله العظيم يا "حجيزى" ما هرب المماليك، المماليك كانوا يستدرجون العثمانيين إلى الصَّحارى الغويطة، أنت رأيت يا "حجيزى" كيف "شقمق" بيك جعلهم يسفُّون الرَّمل!

قال "حجيزى": مالك يا "غنيمة" يا كذَّاب يا ابن الكلب، أنا ما رأيت "شقمق" ولا "بقمق".

فهبَّ "غنيمة" واقفا، ثم هرول إلى الكتابة المنحوتة فى الجدار، وأخذ يمسح عليها بكفِّه وهو يهتف: ما رأيت هذا يا "حجيزى"؟! ما رأيت هذا يا" سعدون"؟!

ثم اتجه ناحيتهما مهرولا، يقول: صلَّى العشاء بينهم، وهم يبحثون عنه تحت كل حجر من أحجار الصَّحراء، لكنه صلَّى العشاء بينهم، وما شعروا به.

وجلس على ركبتيه، وكان متحمِّسا جدا، يتكلم وينثر الرَّذاذ من فمه، وفم "غنيمة" أسنانه مكتملة، وناصعة البياض، لكن إذا صلَّى على يسار "حجيزى" صرخ فيه بعد أن يسلِّم التَّسليمة الثَّانية: أنت فى فمك يا غنيمة رِمَّة كلب.

و"غنيمة" يتكلَّم بحماس، حتى أنه كان ينهج، وحتى كأن قلبه سيقفز من فمه: تظنَّان "شقمق" بيك صلَّى بينهم وفقط؟! "شقمق" بيك لابد قتل من عساكرهم عشرة قبل أن يصلِّى، تظنَّانه جاء من مكانه فى قلب الصَّحراء ليصلِّى فى هذا المسجد وفقط؟! أهو المسجد الحرام؟! هذا مسجد الأتراك الكفرة.

هتف "سعدون": إذا كان هذا مسجد الأتراك الكفرة، لماذا صلَّى صاحبك فارس الفرسان بين الكفَّار؟!

ضحك "غنيمة" بتشف، وتكلَّم وكأنَّه قبض على رقبة "سعدون" وداس عليها بقدمه: ما تعرف لماذا صلِّى بينهم؟! ما تعرف؟!

واستدرك: أنت يا "سعدون" فى رأسك هذه، التى تشبه رأس سلحفاة، مخ حمار.

وسكت سكتة مثل لمحة، ثم نظر ناحية "حجيزى" وقال: وأنت لولا ملامة الناس، يقولون شتم الكبير، كنت قلت لك....

وقطع كلامه لما رأى "حجيزى" يجمع فى فمه بصقة.

قال "غنيمة" وهو ينظر لـ"سعدون" من فوق إلى تحت: اسمع يا مدعوك يا ابن المدعوك، سأقول لك لماذا صلَّى "شقمق" بيك بين الكفَّار، حتى يغيظهم

ويفقع مرارتهم، ولولا هذه الصَّلاة ما كانوا رحلوا والذُّل يركب ظهورهم، ويدلدل رجليه.

قلَّب "حجيزى" وجهه فى أنحاء المسجد وهمس: يعنى نحن نصلِّى فى مكان بناه كفَّار؟! استغفر الله العظيم.

فنظر "سعدون" وهو يفتح فمه وعينيه إلى وجه "حجيزى": تصدِّق هذا الذى رأسه فارغة مثل قُلل الشِّتاء؟!..

قاطعه "حجيزى": أسكت يا "سعدون"، أنت صوتك يعجبك، وتريد تؤذِّن، لكن هذا البناء ليس مسجدا، هذا يشبه قدس الأقداس فى بِربة للمساخيط مررنا عليها بقافلة الرُّهبان زمان مع والدى "شديد".

استلقى "غنيمة" على ظهره، وأخذ يغرق فى الضحك، و"سعدون" ينظر حوله ببلاهة من يشاهد العجائب.

وهمس "سعدون": يعنى صلاتنا كل هذا العمر باطلة؟!

قال "حجيزى": نسأل الشَّيخ "مزيد".

واستدرك وكأن الحقيقة تجلت تماما لفهمه: طول عمرى أقول مسجد من غير نوافذ! كيف؟

وقال "سعدون": والعامود المربَّع هذا الذى يقف من غير اكتمال!

قال "حجيزى": لم أر فى قُدس البِربة عامودا مثل هذا.

ثم استدرك: وربَّما كان هناك عامود وأنا الذى لم انتبه لذلك، أو انتبهت وقتها ونسيت!

قام "غنيمة" وهو مازال غارقا فى الضَّحك، وأخذ يخطف الكلمات من بين شهقاته: أنا طول.. عمرى.. أقول عليكم.. زوج بهائم.

وبينما "غنيمة" يستدير بكل سرعة ليجرى نحو باب المسجد، كانت بصقة "حجيزى" قد التصقت بقفاه.

*****

قبل كل سفر إلى "موط"، أو إلى أى واحة قريبة أو بعيدة، لابد من غسل النَّاقة، وتعلَّم "بكير" هذا الطَّقس من أبيه، يقول "حجيزى": الاستحمام ينعش النُّوق أيضا.

أخذ "بكير" ناقته، وسحبها إلى خارج البيت، وعندما وجد ناقة أبيه تقف وحدها والماء يَقْطُر منها، أخذ ينظر حوله يبحث عن "حجيزى".

وسأل "بكير" نفسه: هل قرَّر "حجيزى" السَّفر؟!

ورفع عقيرته: يا "حجيزى"، يا والدى.

لم يجبه أحد، فدخل البيت، ورفع عقيرته: يا "حجيزى".

فظهرت "ثريَّا" من خلف شجرة التِّين، وهى تضع سبَّابتها على شفتيها، ونظرة خبيثة فى عينيها، وبسمة ماكرة على شفتيها، وهمسَت وهى تشير إلى حجرة "سريرة": "حجيزى" فى حجرة "سريرة".

بحلق "بكير" عينيه، وهمس: ماذا يفعل "حجيزى" فى حجرة "سريرة"؟!

هزَّت "ثريَّا" رأسها بدلال، وهمست: ينقُّون التَّمر من شوائبه يا ناصح! قلت لك أبوك اليوم نفسه فى أمِّك!

كانت لهجتها ساخرة، لكن "بكير" كان مندهشا لدرجة أنه لم ينتبه لسخرية "ثريَّا"، حتى لم ينتبه إلى أنه استدار مثل ضبع حائر، وخرج من البيت.

ومشت "ثريَّا" إلى باب حجرة "سريرة" على أطراف أصابعها، وقربَّت أذنها من الباب كثيرا، كانت تريد أن تسمع التنهُّدات، لكنَّها سمعت "سريرة" تقول بحرقة وشوق: متِّعنى، متِّعنى.

فوضعت "ثريَّا" كفَّها على فمها، ومضت مهرولة والدَّم يضرب خدَّيها.

وابتسم وجه "ثريَّا"، كانت تقول فى سرِّها: كبيران فى السن، ويعملان عمل الصِّغار، هذى عجائب، الكركوبة تقول "متِّعنى"؟!

*****

الموضوع حلو فى ليالى الشِّتاء، وحلو أيضا فى ليالى الصيف، لكنَّه أحلى فى الشِّتاء، العناق والضمُّ فى الشِّتاء ألذ وأطيب، والعرى فى الصيف أشهى.

فى الشتاء، يصلِّى "بكير" العشاء، ويأتى إلى البيت، وفى المتَّسع الذى خلف البوَّابة يضع "القروانة" بالقرب من "الدكَّة" التى سيأتى "حجيزى" من صلاة العشاء ليجلس عليها، ويفرد عليه بطَّانية ثقيلة.

يشعل "بكير" النَّار فى حطب الأشجار الذى قُطِّع للتدفئة، ويتجمَّع حول النَّار كلُّ من فى البيت، "سريرة"، والعيال "سليم" و"سالم" و"سلمان"، وأنا.

و"حجيزى" فى لمَّة ليالى الشِّتاء، يكون مثله مثل العيال، يحب الحكايات، فما أن يطلب منه عيِّل من العيال حكى حكاية، حتى ينطلق، ودائما حكاياته شيِّقة، ولا نعرف من أين يأت بها، لكن أحلى حكاياته، هذه التى تكون مخيفة، التى يكون الموت هو بطلها.

كانت نار "القروانة" تلقى ظلالنا على الجدران بعنف، حتى أن هذه الظِّلال كانت تتمزَّق على الجدران بقسوة، وكان "حجيزى" يقول بصوت تعمَّد أن يجعله عميقا: ما يحلو الكلام إلا بعد الصَّلاة على النَّبى العدنان، كان فى واحة من الواحات الصَّغيرة التى تملأ الصَّحراء رجل فقير، وكان هذا الرَّجل متزوِّجا من امرأة تعانى من مرض شديد، وكانت له ابنة صغيرة، عمرها سبع سنوات، فى مثل عمرك يا "سلمان"...

لكن "سليم" قاطع "حجيزى": يا جَدِّى، لا يوجد فى واحاتنا فقراء، كل من حولنا يقول أننا يجب أن نحمد الله كثيرا لكونه خلقنا أغنياء.

فقال "حجيزى": يا ابن الكلب يا "سليم"، هذى حكاية، يعنى قصَّة غير حقيقية..

وكان "حجيزى" يهمُّ بالتَّكملة، لمَّا قاطعه "سليم" مرَّة أخرى: لماذا يا جَدِّى تكون الحكايات قصص غير حقيقيَّة؟

قال "حجيزى" وهو يعتدل تحت بطَّانيته: ومن قال لك أن الحكايات قصص غير حقيقيَّة؟

- أنت يا جَدِّى قلت هذا الآن! وكان "سليم" يرفع حاجبيه مستغربا.

فقال "حجيزى": عندما تكبر قليلا سأقول لك كيف يمكن أن تكون القصَّة الحقيقيَّة غير حقيقيَّة.

ثم أخذ يكمل حكايته: فكان الرَّجل لا يستطيع شراء الأدوية لزوجته التى يحبُّها كثيرا، فأخذ يفكِّر.....

لكن "سالم" هو الذى قطع كلام "حجيزى"، وكان يضحك: هل كان هذا الرَّجل يا جَدِّى يحب زوجته، مثل ما أنت تحب "سريرة"؟!

لكز "بكير" الولد "سالم" فى جنبه، وهو يزعق: يا ولد تحشَّم، أنت ابن كلب.

أنا خبأَّت بِكُمِّ جلبابى ضحكة رَفَّت على وجهى، و"سريرة" أنَّت، وحرَّكت الحطب المشتعل، وقالت: جَدُّك يا "سالم" صار يحبُّ ناقته أكثر من "سريرة".

وأنَّت ثانية.

تجاهل "حجيزى" كلَّ هذا الكلام، وأكمل حكايته: وقعد الرَّجل يفكِّر، كيف يتحصَّل على مال يشترى به الدَّواء لزوجته التى...

وسكت لحظة، ونظر إلى "سالم" نظرة متخابثة، ثم أكمل:... لزوجته المريضة، وبعدما فكَّر كثيرا، لم يجد طريقة غير سرقة أكفان الموتى.

كانت النَّار تخبو، فيضع عليها "بكير" حطبا آخر، فتعود للتَّأجُّج، فتتوهَّج الوجوه الملتفَّة حولها بحمرة اللهب، فتبدو كوجوه العفاريت.

يشعر "حجيزى" بالقلوب حوله، وقد بدأ الخوف يشاكسها، فيلوِّن صوته بلون الرُّعب: فكان إذا عرف أن أحدا مات، لا ينتظر حتى يتبع الجنازة، وإنما

يسبق الجميع إلى القبور، ويختبئ هناك خلف صخرة من تلك الصَّخرات الأربع المهولة التى تحيط بالجبَّانه....

يقطع "سلمان" حكاية "حجيزى": هذا الرجل من بلدنا ؟! من هو يا جَد؟!

قال "حجيزى" بوجه ارتسم عليه الغضب الصِّبيانى: يا ابن البقرة، قلت لك هذى حكاية، الحكايات قصص غير حقيقيّةٍ.

هتف "سلمان": لكن أنت يا جَد منذ قليل قلت إنها حقيقيّةٍ!

قال "حجيزى" وهو ينظر للوجوه كأنَّه يستجديها الردَّ نيابة عنه: أنا قلت الحكايات قصص حقيقيَّة!؟

وكانت الوجوه تنظر إليه محتارة أيضا، كانت الوجوه تقول: "قلت".

وأيضا تقول: "لم تقل".

- إذا قاطعنى أحد مرَّة أخرى فلن أكمل الحكاية، أنا وقفت عن الحكى عند..

قال "سالم": الرَّجل الفقير كان يسبق الجنازة، ويختبئ خلف صخرة من الصَّخرات الأربع التى....

قال "حجيزى": يختبئ خلف صخرة من هذه الصَّخرات الشَّاهقة الارتفاع، وينتظر حتى يدفن النَّاس ميِّتهم ويمضون، فيخرج من خلف الصَّخرة ويتَّجه إلى القبر، يحفره مرَّة أخرى، حتى يصل إلى الجثَّة....

ويتوقَّف "حجيزى" قليلا، ويعمِّق صوته، وهو ينفذ ببصره داخل أعيننا المصوَّبة إليه.

وقال ببطء: وعندما يصل إلى الجثَّة، يظل يقلِب ويعدل فيها ليخلع عنها الكفن، والجثَّة تنظر إليه بعينين مفتوحتين نصف فتحة.

ظِلُّ "سريرة" يتراقص على الجدار البعيد خلفها مثل شبح ضخم، وهى نفسها تتقلَّب أضواء النَّار على وجهها، فتبدو مثل جنِّية من جن الصَّحراء.

أكمل "حجيزى": ويأخذ الكفن، ويتركها عارية، ثم يهيل عليها التُّراب، ويمضى إلى البيت، يعطى بنته الصَّغيرة الكفن، ويقول لها: خذى يا بنتى هذا القماش، اغسليه، وافرديه، حتى أبيعه فى السُّوق، فأحضر نقودا، أشترى بها الدَّواء لأمِّك المريضة".

وتأخذ البنت الكفن، فتغسله وتجفِّفه وتفرده، ويأخذه الرَّجل الفقير إلى السُّوق، ويبيعه، وبالفلوس يشترى الدَّواء، وبما تبقَّى يشترى طعاما فيأكلون.

كلما خبت النَّار، وضع "بكير" على جمرها الحطب، ونفخ فيها حتى تتأجَّج، فإذا ما أجَّت، انطلقت الأشباح ترقص على الجدران.

قال "حجيزى": وفى يوم من الأيام، امرأة ماتت محترقة، أكلتها النَّار، فذهبوا يدفنونها، وكان....

وقطع الولد "سلمان" كلام جَدِّه، وقال كلمة قلبت حال القعدة: هذه المرأة "أم جميل" زوجة "سعدون"؟

صمت "حجيزى".

صمت طويلا وهو ينظر فى "قروانة" النَّار، كانت ألسنة اللهب تتلوَّى على زجاج عينيه مثل أفاع تتهارش، ثم بدأت صور الأفاعى تذوب فى ماء طَفَر

من عينيه، ثم انسحب إلى الوراء، وفرد جسده على "الدكّة"، وغطى نفسه بالبطّانية.

قامت "سريرة" تتساند على ذراع "الدكّة"، قبل أن تتوكّأ على عصاها، وتتحرَّك ببطء ناحية حجرتها، وهى تلوى شفتيها مضمومتين يمينا ويسارا.

ولكز "بكير" "سلمان" فى كتفه: قلنا اسكت يا ابن الكلب.

ثم هتف وهو ينظر للولدين الآخرَين: خذا هذا البهيم واذهبوا ناموا فى أماكنكم.

وأطفأ النَّار بالماء، وغمر الرَّماد بمزيد من الماء، حتى لا يتعالى الدخان الكثيف.

*****

كان الدخان الكثيف يتعالى من سقف الحجرة الذى تآكل تماما، وكان يتدفَّق أيضا من النَّافذة التى فحَّمت النِّيران ضلفتيها الخشبيتين، وكان النَّاس يتدافعون للدخول إلى الحجرة.

حرارة الوهج مازالت لا تطاق، لكن كان لابد من إخراج جثَّة "بثينة" وابنها "جميل"، والكلوبَّات لا تفلح فى إزالة عتمة الغرفة، فالدخان يتفجَّر من كل ما هو محترق، وجثَّة "بثينة" غير مرئية، كانت الرمال التى ألقيت لإطفاء النِّيران تغطى أرضيَّة الحجرة، وتغطِّى خشب السَّقف الذى تهالك إلى أسفل، وجثَّة "بثينة" وولدها لاشك فى أنها أسفل كل هذا.

تعلو الأصوات، وتختلط، وكلها تصف طرقا عديدة لابد من اتِّباعها لإخراج الجثَّتين: على مهل، على أقل من المهل.

- ارفعوا الفِلْق هذا.

- لا ترفعوا الرَّمل بالمساحى، أرفعوه بأيديكم يا ناس الخير.

وواحد من النَّاس، يقف بجوار الباب، يهمس لآخر يقف وهو يشرئب برأسه، يريد النَّظر إلى داخل الحجرة: لن يجدوا شيئا، غير عظام، جسم بنى آدم مثل الشَّمع، تذيبه النَّار.

و"سعدون" جلس على الجوال الملىء بغلَّة الذُّرة، والذى كان نائما عليه، من غير حركة، حتى عيناه لم تقطُرا دموعا، فقط كان ينظر إلى خارج باب الغرفة، حيث ضوضاء النَّاس، ووشيش النَّار، لكنَّه مال بوجهه، ونظر فى عينى "حجيزى" الدَّامعتين، وابتسم!

ووصلت أصوات النَّاس وهى تعلو فجأة: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

كانوا قد وجدوا الجثَّتين، بعد أن سحبوا الرَّمل، لم تأكل النَّار لحمهما، لكن فقط أذابته، صهرته، فالتصقا بحيث لا يمكن فصلهما أبدا، وأصحاب القلوب القويَّة رفعا الجثَّتين ببطء شديد، خشية أن يتمزَّقا، وأصحاب القلوب الرَّقيقة فرُّوا إلى الخارج وإلى الأركان، وأخذوا يستفرغون ما فى بطونهم.

الجثَّتان بشعتا المنظر، ساح اللحم فتغيرت خلقتهما، هل هذا هو الإنسان الجميل الخلقة؟! ليس جميلا فى الإنسان إلا بشرته، هذا الغلاف الغاية فى الرِّقة، لكن كلُّه بعد ذلك بشع.

ظل "حجيزى" يجلس على الأرض، تحت رجلى "سعدون"، ودخل ناس الغرفة، ودخل "سعدانى" وفى يده كوب من الصَّفيح ممتلئ ماء، وقدَّمه لـ"سعدون".

ولم يمد "سعدون" يده ويأخذ الكوب، فقال "سعدانى": خذ اشرب يا خال.

وقرَّب الكوب من فم "سعدون"، لكن "سعدون" ضرب الكوب بيده فطيَّره من يد "سعدانى"، وصرخ: لا أريد الشُّرب.

وقال "غنيمة": وحِّد الله يا "سعدون، وحَّد الله.

فنظر "سعدون" فى عينى "غنيمة" نظرة قاسية، كأن "غنيمة" قد ذكَّره بعدو، فقال "غنيمة": استغفر الله العظيم.

*****

- العصفور دخل القطار فى محطة "الخارجة"، دخل العربة المخصَّصة لمدير شركة المعادن، شركة الخواجات الإنجليز، هذه عربة غير كل عربات القطار، هناك عربتان يشبهانها، لكن بقية العربات هى مسطَّحة لنقل خام المعادن.

النور ينسحب، وبعض من رجال يتجهون فرادى إلى باب المسجد، يستعدون لصلاة المغرب.

قال "غنيمة": العربة ليست مخصَّصة بالتحديد للمدير، بل هى لأى شخصيَّة أخرى مهمَّة، المهندسين مثلا، والزوَّار من "مصر" المحروسة، الخلاصة، هذه العربة للشخصيَّات المهمَّة، يسمُّونها "بولمان" يا "حجيزى"، كراسيها محشوَّة بقطن مكبوس فى قماش قطيفة، وغير مثبتَّة بأرضية العربة، حتى تأخذ هذه الشخصيَّات الكبيرة راحتها، وعلى شبابيكها ستائر ملوَّنة، مرسوم فيها ورود، ومرسوم فيها صور نساء، نساء يا "حجيزى" سبحان من صوَّر، نساء نساء، لسن مثل هذه الغربان التى نربيها فى بيوتنا.

وارتفع صوت "سعدون" بأذان المغرب.

فهبا واقفين، وتحرَّكا ناحية المسجد، وقال "غنيمة": بين الكراسى مناضد مثبتَّة فى أرضية العربة، لابد من تثبيتها حتى لا تهتز فينقلب ما عليها من عصائر وأطعمة يقدِّمونها لهذه الشَّخصيَّات المهمَّة، العصفور دخل هذه العربة طبعا خطأ، ما كان يقصد دخولها، وهل هناك عصافير تسافر بالقطارات؟!

ووصلا إلى باب الميضأة، وكان "سعدون" يزعق فوق سطح المسجد بآخر كلمة فى الأذان: لا إله إلا الله.

5

بـئـرُ الـــرَّاهب

هناك بئر فيَّاضة شمالى "الوعرة"، ماؤها فيه بركة، يسقى العشرين فدَّان ويظل ماؤها يقب، كأنَّه يريد الهرب من ظلام الغياهب فى بطن الأرض إلى نور الشمس على سطحها، حتى ولو سيتبخَّر.

وهناك نبع ربَّانى قِبلى "الوعرة"، كانت ماؤه زمان تعمل بحيرة، وكان فى البحيرة سمك، ولسبب إلهى ظل هذا النَّبع يضمُر، وظلَّت البحيرة تتناقص بدرجة غير ملحوظة، حتى انتبه النَّاس فى يوم لعدم وجودها، لكن بقيت بِركة، ثم اختفت البِركة، وانكشف فم النَّبع.

فتحة صغيرة تمثِّل دائرة قطرها نصف متر، أو أكثر قليلا، والماء نزل تحت مستوى هذه الفتحة شِبرا، ولأنه كان قد وضح تماما أن النَّبع يغيض، بدأ النَّاس فى المسجد يصلَّون لله ألَّا يجف هذا الماء الذى يشربون منه، ويطبخون منه، ويستحمُّون به، حتى ماء الخزَّان الخاص بالميضأة يجلبونه منه.

لكن الماء نزل شِبرا آخر، وبعد ستَّة أشهر كان الماء قد نزل إلى ما هو أكثر من سبعة أمتار، وتعذَّر جلب الماء منه جدا، ليس لبعد الماء، فقد كان بإمكان ناس "الوعرة" دائما جدْل حبال طويلة ومتينة من ليف النَّخيل، وإنما لسبب آخر يتعلق بتكوين النَّبع نفسه، لم يكن النَّبع يتجه إلى عمق الأرض باستقامة عمودية، وإنما كان يتجه إلى باطن الأرض بميل بسيط، ممَّا كان

يجعل سحب الماء مجهدا للغاية، لكن استمر سحب المياه بدِلاء تم ثنى حوافها، وتغطيتها بجلود الجِمال النَّافقة بعد دبغها، ليسهل سحبها وهى تحتك بالجدار الصَّخرى المائل للنَّبع.

ورغم الصَّلوات الكثيرة، كان ماء النَّبع يغور أكثر وأكثر، حتى جاءت إلى "الوعرة" قافلة صغيرة تحمل راهبا يقصد أعماقا أبعد فى الصَّحراء، اسمه الرَّاهب "يوحنا"، وطلبوا منه الدُّعاء للنبع، أن ينبع ماؤه، فيفيض مثلما كان، ويصبح ماؤه فى متناول أيدى نسائهم التى كلَّت، ودعا الرَّاهب "يوحنا" طويلا، ثم سرح بعمق، ولمَّا أفاق قال لهم: ماء النَّبع لن يزيد، لكنَّه لن ينقص بعد الآن.

ولم ينقص ماء النَّبع من يومها، فسمُّوا النَّبع "بئرُ الرَّاهب".

فى هذه الصَّحارى الشَّاسعة، لا يمكن التفريط فى قطرة مياه، نعم جلب الماء من البئر الشَّمالى أسهل كثيرا، وقد صاروا مؤخَّرا يأتون بمياه ميضأة المسجد منه، لأن الميضأة تحتاج لمياه كثيرة، لن يمكن توفيرها بسهولة من النَّبع المائل، لكن استمروا فى سحب المياه الخاصة باحتياجات البيوت منه.

ولم يكن ممكنا أن يبنوا سورا بمحاذاة الفتحة كلِّها، بسبب ضيقها الشَّديد، فبنوا نصف سور منخفض حول نصف الفتحة، وأبقوا النِّصف الثانى على حاله، ليسهل جذب الدِّلاء، وكانت نخلتان تخرجان من جذر واحد تضربان فى السَّماء، قُرب البئر من ناحيتها الغربيَّة، فكان، دائما، يرتمى ظلُّهما على البئر والمنطقة الضَّيقة المحيطة بها، بحيث تحلو القعدة هناك وإن اشتد حرُّ الظهيرة فى أيام الصيف الملتهب.

والنِّساء هنَّ من يجلبن الماء من النَّبع، الرِّجال تركوا هذه المهمَّة لهن، وذهبوا يزرعون فى غيطانهم، أو يسافرون على أسنمة الجِمال، يقطعون الصَّحراء، التى تقطع، بدورها، أعمارهم.

وكان "سعدانى" فى "الحِطِّيَّة"، حقله المُسوَّر بالطُّوب الجِّيرى الأبيض، عندما أخذت "منيرة" زوجته صفيحة المياه الفارغة، وجَرَّت خلفها الولد "صالح"، واتَّجهت به صوب "بئر الراهب".

وعلى الرغم من إجهاد سحب الماء من النَّبع، فإن أجمل الأوقات بالنِّسبة لنساء "الوعرة" هى هذه الأوقات التى يقضينها هناك، يتضاحكن فيها ويتغامزن، ويفضفضن لبعضهن ويبكين، والنَّخلتان تنتصبان حانيتين، والصُّخور الضَّخمة عجيبة الأشكال، راسخة فى الوراء البعيد، تراقبهن فى صمت، بينما الرِّمال تمتد أمامهن، وعلى يمينهن، من غير انتهاء.

كانت "ثريَّا" تقف بجوار فتحة النَّبع، تحت رجليها صفيحتها، تنتظر دورها فى ملء المياه، عندما فوجئت بـ"منيرة" تقرصها فى فخذها، وتقول: هيه يا عروسه، أيام وتكونين عند البئر السَّاخنة.

تضاحكن النُّسوة وتغامزن، وقالت واحدة: سنلقى بها فى حوض المياه لتعوم فيه مثل سمكة.

وضحكت واحدة أخرى، وقالت: ليصيدها "بكير"، ويأكلها على السرير.

وارتفعت صيحاتهن إلى السَّماء مثل الطُّيور البيضاء، التى تحلِّق بعيدا إلى الشَّمال، بينما تكاد "ثريَّا" تذوب خجلا، مثل قطعة سكَّر فى دورق مياه.

لم يكن هناك ما يمهِّد لهذه الفاجعة، الشَّمس فى العصارى متوهِّجة، والسماء صافية، والصَّحراء برَّاقة بلون الذَّهب، والبيوت فى علاقاتها الحميمة، والنَّبع نضَّاح، والضَّحكات رقراقة، وفى الصَّحراء القريبة ثلاثة جِمال تتهادى من غير راعٍ، تأكل من عشب الرِّمال.

ماذا رأى "صالح" لكى ينطلق بكل سرعته ويلقى بنفسه فى "بئر الرَّاهب"؟!

لا أحد يعرف، ولا أحد سيعرف!

كان يلهو عند جذع النَّخلتين مع بقية العيال الذين أتوا مع أمَّهاتهن، يبنون من طين الرِّمال المنتشر حول النَّبع بيوتا، وصخورا غريبة الأشكال، ويعملون جِمالا وحميرا، لا تستطيع الوقوف أبدا على سيقانها الأربعة، وكان "صالح" يقطع بيديه الصَّغيرتين من طين الرَّمل، عندما نظر فجأة نحو فتحة النَّبع، ثم جرى إليها.

كانت النِّساء قد غرقن فى اللهو والضَّحك، حتى أن المرأة التى تملأ آنيتها، توقفت عن الملء، ففتح النَّبع فاه، ولم تنتبه واحدة منهن لهذا الصَّغير الذى كان يجرى فى اتجاه النَّبع، "منيرة" انتبهت فى اللحظة الأخيرة، هذه اللحظة التى دائما ما تسبق المصائب، ولا يكون بمقدور الإنسان فيها عمل أى شىء، غير النَّظر إلى ما يحدث وهو يشهق.

كان "صالح" يريد التوقُّف عند حافَّة البئر، لكن اندفاعه السَّريع لم يُسعف رغبته فى التَّوقُّف، فالتقمه فم النَّبع المفتوح.

*****

كان باب حجرة "سريرة" مفتوحا، فاتَّجه "حجيزى" إليه وهو ينظر حوله خشية أن يراه أحد.

المسافة بين مدخل الوسعاية وباب غرفة "سريرة" ليست أكثر من عشرة أمتار، لكن "حجيزى" شعر بها طويلة جدا، حتى أنه بدأ يلهث، فلأكثر من عشرين سنة لم يمش "حجيزى" فى هذه الطريق.

حدَّث نفسه وهو يدلف من باب الحجرة إلى الدَّاخل: ماذا تريد "سريرة" من رجل يستعد للموت؟! نسيتنى وأنا حى، وتتذكرنى الآن؟!

أغلق "حجيزى" الباب خلفه بهدوء، أكرة الباب نحاسية وتبرق، وصوت النِّسوة المتجمِّعات بالخارج يطنُّ فى أذنيه، كان صياحهن صياحا فرحا مبهجا، وكانت تعلو أحيانا ضربات منغَّمة على الطَّار، كل هذه الأصوات لم تكن فى أذنيه إلا طنينا غير مفهوم، كان عقله مركَّزا فى المهمَّة القادمة، سينام لأول مرة مع امرأة، وليست أى امرأة، إنها "سريرة".

رفع وجهه عن أكرة الباب الوهَّاجة، ونظر إلى "سريرة".

كانت واقفة فى الرُّكن مابين الحائط والسَّرير النُّحاسى العالى، كانت واقفة قمرا يضوى، ليس بالضِّياء الأبيض، وإنما بفستان من كل الألوان، مثل هذه الأزهار التى تبزغ فجأة على أغصان بعض أشجار الصَّحراء الشَّيطانية.

وفى الرُّكن المقابل كانت حمامة صغيرة تقف منكمشة، وهى تهز رأسها بينهما.

كل شىء فى الحجرة يصرخ بالحياة، كل شىء يشرب من نور الكلوب، ويشع بهجة، لكن "حجيزى" يتذكر الموت الآن!

"سريرة عروس تمتلئ موتا".

"كيف تكون هناك لحظات مبهجة فى حياة تمتلئ بالموت ؟!".

ارتفع صوت أغانى النِّساء خارج الغرفة، وكان على "حجيزى" أن ينهى المهمِّة، فتحرك ثقيلا نحو "سريرة"، وعندما وصل إليها تحركت ذراعاه نحو كتفيها، فبرجمت الحمامة فى ركنها، واضطرب شىء فى صدره، ولمَّا ارتاحت يداه على جانبى رقبتها، عربدت فيه روح المجون، فرفعها من تحت إبطيها ليلقى بها على السَّرير.

وانسدحت "سريرة"، وشعرها الفاحم الطويل ملأ الفراش، وذيل فستانها الملوَّن هرب إلى أعلى، فطلَّت سمَّانتا ساقيها ليفتحا الباب لهوس الرَّغبة، فأصاب الجنون "حجيزى"، فنسى الموت، ورمى نفسه فى أحضان المرأة.

هذا كان منذ زمن لا يجيد "حجيزى" إحصاءه، لكن الآن أُكرة الباب لم تعد برَّاقة، حتى يبدو أنها لم تعد نحاسية، كل شىء فى الحجرة حال لونه، و"سريرة" تجلس على السَّرير هيكلا عظميًا تعلَّقت عليه ملابس نسائية، تنظر إليه بعينين داعيتين، وفمها فيه ابتسامة حافظت رغم طول السِّنين على

بقايا من سحرها القديم، فتحرك "حجيزى" نحوها ببطء، ونظر إلى الرُّكن الآخر، لم تكن هناك الحمامة الصَّغيرة.

*****

كان هناك فى قلوبهم خوف، رغم أن الحكاية لم تكتمل. تمدَّد "سالم" و"سلمان" على سريرهما، وتغطَّيا بلحاف ثقيل، وتمدَّد "سليم" على دكِّة وحيدا، ولفَّ حول جسده بطَّانية ثقيلة أيضا.

الغرفة غارقة فى الظَّلام، ولم يكن فيها من نور، سوى شعاع من ضوء القمر المكتمل، ينسل وحيدا من شرخ فى خشب النَّافذة الوحيدة، هذه النَّافذة الوحيدة والضَّيقة أيضا، قال "سلمان" بصوت خافت: هل سيسرق هذا الرَّجل الفقير كفن "أم جميل"؟!

قال "سالم": لم يكن جَدِّى يتكلَّم عن "أم جميل"، كان يتكلَّم عن امرأة أخرى.

قال "سلمان": امرأة محروقة أيضا، شكلها مرعب، مثل شكل "أم جميل" لمَّا احترقت.

جاء صوت "سليم" عاليا فجأة: وهل رأيت شكل "أم جميل" وهى محترقة؟ كنت أنت وقتها فى علم الغيب يا بارد.

قال "سلمان" بصوت خفيض: ماذا يعنى بأننى كنت فى علم الغيب يا "سالم"؟

قال "سالم": يعنى لم تكن وُلدت بعد، كنت فى عالم غير العالم.

قال "سلمان" مندهشا: عالم غير العالم!! أين هذا العالم؟! أنا خائف.

قال "سالم": إذا كنت خائفا، فلتسكت حتى تنام، الكلام فى الظلام مخيف.

سكت "سلمان"، لكن صوت "سليم" جاء جَهْوَريا عاليا: بعد أن دفن النَّاس المرأة المحروقة، خرج الرَّجل الفقير من خلف الصَّخرة، واتَّجه إلى القبر، وحفره مرَّة أخرى، حتى وصل إلى الجثَّة المحروقة.

سكت "سليم"، كان الصَّمت الثَّقيل يدوس على ظلام الغرفة، وكان الصَّمت والظَّلام يدوسان على قلبى "سلمان" و"سليم".

- كانت الشَّمس تغرب، والنُّور ينسحب من القبر، وأخذ الرَّجل الفقير يشد الكفن، لكن الكفن كان ملتصقا بالجثَّة المحترقة، فكان كلَّما جذب القماش خرجت فيه قطع من لحم المرأة، وعندما كان الكفن يسحب عينيها، لم تتحمَّل المرأة نزع عينيها، فصرخت فى وجه الرَّجل: واااااااااااع.

قالها "سليم" فجأة، وبصوت عال، فقفزت المرأة المحترقة على جسدَى "سلمان" و"سالم"، وقبضت على رقبتيهما، وهما يصرخان: يا اااااااااباه، يا مااااااه .

*****

الموضوع حلو فى ليالى الشِّتاء، وحلو أيضا فى ليالى الصيف، لكنَّه أحلى فى الشِّتاء، العناق والضم فى الشِّتاء ألذ وأطيب، والعرى فى الصيف أشهى.

تكوَّم "حجيزى" تحت بطَّانيته، وأخذ ينشُج، ولكز "بكير" العيال مغاضبا، فانطلقوا نحو حجرتهم، الحكاية مخيفة، وصارت بذكر "أم جميل" محزنة أيضا، وشبح "سريرة" وهى تتوكَّأ على عصاها، يمشى مرتجًا على الجدران، بسبب لهب اللمبة الجاز الذى يتراقص دونما سبب، فلم تكن هناك ريح، كل ما حولى مرعب، حتى "بكير" كان مرعبا وهو يطفئ النَّار، مثل غول يهجم

على بنت تتلوى تحت قدمه تتشبَّث بالحياة، ولمَّا يئس من مقاومة النَّار لقدمه، صبَّ عليها الماء، فخرجت روحها بصوت مثل صوت جناح يرفرف.

البرد، صقيع يلتصق بكل شىء، حتى يد "بكير" صارت مثل يد الهون النُّحاس، مثلَّجة، ينتفض جسدى من حركة يده على جلدى تحت جلبابى، همستُ: يدك مثلَّجة يا "بكير".

أخذ "بكير" يحرِّك يده بسرعة على جنبى وظهرى، وقال: ستدفأ يدى يا "ثريَّا".

ثم قال بصوت متكسِّر: وسأدفئك الآن حتى تتصبَّبين عرقا.

أُحب العناق والضمَّ فى ليالى الشِّتاء، البرد يدفعنى دفعا للالتصاق بـ"بكير"، و"بكير" يلتصق بى حتى لو نام معطيا ظهره لى، لكن لو نام معطيا وجهه لى فإنه يعانقنى، وأنا أحب "بكير" لمَّا يعانقنى فى البرد، جسده يتوهج بالدِّفء، وأنفاسه كأنَّها روح النَّار، يؤجِّجها فىّ، ثم يقوم يعتلينى بجسده الثَّقيل، ويظل يهرس عظامى، ولا يتوقَّف إلَّا إذا أطفأ النَّار.

لكن فى هذه الليلة أحببت عناقه، ليس بسبب البرد وفقط، وإنَّما بسبب الخوف أيضا، فما أبشعها أكفان الموتى، وما أبشع منظر الأجساد التى سلبت منها الحياة، وما أبشع شبح "سريرة" وهو يتأرجح على جدران المنزل، وجثَّة "حجيزى" وهى تتلوَّى تحت البطَّانية، وتنشج، وثلاثة ملائكة فى ثياب بيضاء تغرق فى الظَّلام وهى تتَّجه إلى حجرتها.

- أنا خائفة.

يد "بكير" تروح وتجئ على بطنى وتحت إبطى.

- البرد قارس يا "ثريَّا".

- اللون الأبيض جميل، لماذا تكون الأكفان لونها أبيض؟!

قام "بكير" وتمدَّد بجسده فوقى، همس: ليالى الصيف حلوة، أرى فيها قميص النَّوم الأحمر، وبياضك يبرق تحته.

"بكير" يحلو كلامه فى الليل فقط، لكن طوال النَّهار ينهر ويشتم، وليل "بكير" ينسينى دائمًا نهاره، وأبقى فى النَّهار أنتظر ليل "بكير".

وبدأ يهرس عظامى، وكان خوفى ينز من مسامى، وكنت سأغيب عن هذه الليلة، عندما خف حمل "بكير" فجأة، واصطدمت الليلة المريعة بوجهى.

"سلمان" و"سالم" يصيحان مفزوعين

*****

خرج "حجيزى" من المسجد بعد انتهاء صلاة المغرب، وخرج وراءه كل من "غنيمة" و"سعدون"، كانت السَّماء تتلوَّن بالعتمة، والبيوت تبدو من بعض أبوابها أضواء لمبَّات الجَّاز، والأطفال الرُّعاة يدخلون بأغنامهم البيوت، حيث حظائرها، ثغاء الغنم والماعز، بلبلة جديان، وصياح الأطفال الفرحين بالعودة من المراعى البعيدة.

قال "غنيمة" لـ"حجيزى": العصفور دخل عربة القطار وهو يكاد يتحرَّك، فأغلق عامل العربة بابها، وكان الخواجة مدير الشَّركة يجلس وحده، وينظر فى كتاب.

قال "سعدون": أنا ذاهب إلى بيتى أتعشَّى مع عيالى .

فقال "غنيمة": أنا ذاهب أتعشَّى مع "حجيزى".

فقال "حجيزى": اليوم أنت تغدَّيت معى، تتعشَّى أيضا!؟

سحب "غنيمة" "حجيزى" ناحية بيته، وهو يقول: يا أخى أُكمل لك حكاية العصفور.

جلسا على المصطبة الصَّخرية أمام البيت، وزعق "حجيزى": "سلمان"، هاتوا العشاء هنا، "غنيمة" سيتعشَّى معى.

"غنيمة" قال: العصفور أخذ يحلِّق فى سماء عربة القطار، ويرى الأرض تجرى خلف زجاج بعض النوافذ، فيطير ليخرج، لا يعرف العصفور أن هناك زجاج يمنع خروجه، فكان يخبط فى الزُّجاج ليعود ويحلِّق من جديد.

صوت خبط العصفور فى الزُّجاج جعل الخواجة ينتبه، وفى هذه اللحظة دخل عامل العربة، بيده صينية ترهج بلون الفضَّة، عليها كوب من عصير الليمون يبرق من نظافته.

نظر "غنيمة" فى وجه "حجيزى" الذى ذابت ملامحه فى عتمة ما بعد المغارب: كوب الزُّجاج هذا ليس مثل الأكواب الصَّفيح التى عندنا، ولا حتى مثل

الأُكواب الزُّجاج التى عندنا، هذا كوب رشيق، يقف فى منتصف الصِّينية طويلا، ضيِّق قليلا من أسفل، ويتَّسع كلَّما طال، قعره يميس مثل جوهرة تصب بريقا.

قال "حجيزى": أنت رأيت جوهرة طوال عمرك يا "غنيمة"؟

عاد "غنيمة" بظهره إلى الوراء، وأخذ نفسا طويلا نفخ به صدره، وكركب صوته: يووووه، رأيت جواهر كثيرة، رأيتها فى فتارين محلات الذَّهب فى "أسيوط"، يضعون فصوص الجواهر فى الخواتم والحلقان.

كان "سليم" و"سالم" قد فرشا حصيرا على الأرض فى مواجهة باب البيت من الخارج، حيث ينسكب ضوء لمبة الجاز، وجاء "سلمان" يدحرج الطَّبلية ذات الأرجل القصيرة، حتى وضعها على الحصير.

قال "غنيمة": المهم، وضع الرَّجل كوب العصير أمام الخواجة، واستدار ليمضى، لكنَّه سمع الخواجة يقول: تعرف يا ولد تمسك هذا العصفور؟

الولد لم يكن ولدا يا "حجيزى"، كان رجلا متزوجا ومعه عيِّل، لكن الإنجليز عندهم عنطزة التُّرك، مثلهم، وجوههم حمراء ومنتفخة، والذى يخدمهم مهما كان كبيرا فى السن ينادونه: يا ولد!

وضع المصريُّ الصِّينية على إحدى المناضد، وكان العصفور يطير بطول العربة، وعندما يتعب يقف على أى بروز، رف العربة، أو منضدة، أو حافة الشُّباك من الدَّاخل، يقف يهز رأسه وهو ينظر لكل شىء بسرعة، والخوف ملأ صدره، خاصة لمَّا رأى هذا الآدمى الأسود يحاول أن يسد عليه مجال طيرانه، ناظرا إليه بعينى ثعلب.

ونظر "غنيمة" إلى "سليم" وهو يضع على الطَّبلية "طاجن" فخَّارى أسود عتيق، يتصاعد منه بخار طبيخ المرق الذى غرقت فيه قطع كبيرة من اللحم.

قال "غنيمة": الخواجات الإنجليز يختارون للخدمة مصريين وجوههم سوداء مثل قعر هذا الطَّاجن، لا أعرف لماذا يختارون السُّود دون غيرهم!!

ضحك "حجيزى"، ضحكة رجل يسخر، وقال: أنت أسود يا "غنيمة".

وقال "غنيمة": خلقة ربنا.

وقام "حجيزى" من على المصطبة، وقام "غنيمة" أيضا، وجلسا حول الطَّبلية، وجاء "بكير" وسلَّم، وجلس يأكل معهما.

- أخذ المصريُّ يتنطَّط فى عربة القطار مثل قرد، ولا يستطيع الإمساك بالعصفور، حتى تعب جدا، فنسى نفسه من التَّعب، وجلس على أحد هذه الكراسى الفخمة، لكن صوت الخواجة، وهو يصرخ كالملدوغ، جعله ينتصب واقفا بسرعة الطُّريشة: قم يا ولد من على الكرسى، نسيت نفسك؟! العصفور، امسك العصفور يا ولد.

لكن الرَّجل كان قد فقد طاقته.....

كان "حجيزى" يغمس لقمة خبز فى المرق السَّاخن، عندما دوَّت كركبة ضحكة "غنيمة"، و"غنيمة" عندما يضحك فإنه سيظل يضحك طويلا، وقد يفعل مثل "سعدون"، وينسدح على ظهره قبل أن يفيق، فظلَّ "حجيزى" يأكل، و"بكير" تملأ وجهه ابتسامة مندهشة وهو ينظر إلى "غنيمة".

أخيرا شهق غنيمة، وقال: المصرىُّ طلعت روحه وهو يحاول الإمساك بالعصفور، لكن العصفور وحده سقط فى يد الخواجه!

ثم غرق "غنيمة" فى الضَّحك مرة أخرى.

*****

قالوا للشَّيخ "مزيد": كيف نغسِّلها يا مولانا؟ النَّار أذابت الجسد، وولدها ملتصق بها!

فقال الشَّيخ "مزيد": الذى يموت محترقا يموت شهيدا، والشَّهيد لا يغسَّل، وإنما يكفَّن على حاله، لفُّوها مع ولدها فى كفن واحد، وهاتوها للمسجد نصلِّى عليها، إسرعوا، فإكرام الميِّت دفنه.

كان "حجيزى" قد وقف أمام باب حجرة الخزين، التى يجلس "سعدون" بداخلها، وكان يسمع ما يقوله "مزيد".

"من قال إن إكرام الميِّت دفنه؟! دائما الأحياء هم من يقولون هذا، سأصدق لو قالها ميِّت!".

دخل الشَّيخ "مزيد" حجرة الغلال، ووضع يده على كتف "سعدون"، وقال له: الأمر لله يا عم "سعدون"، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

فنظر "سعدون" فى وجه "مزيد" نظرة تائهة، وهمس: خير لكم!؟ أين الخير الذى هو لنا؟!

وفجأة هبَّ "سعدون" واقفا وهو يجأر: خير لكم!؟ بيتى تأكله النَّار، وتقول خير لكم؟!

ثم اندفع إلى خارج الحجرة مثل ناقة غاضبة، وتكلَّم وصوته يرعد: "زليخة" تأكلها النَّار، وتقول خير لكم؟!

وحاول النَّاس أن يمنعوه من الوصول إلى جثَّة "بثينة" وولدها، لكنَّه كان يدفع النَّاس بقوَّة ثور هائج، ويصرخ: يا "زليخة"، يا "زليخة".

وكان النَّاس يزعقون: وحِّد الله يا "سعدون".

وخافوا أن يذهب عقله، ينادى "زليخة" التى ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وينسى "بثينة" التى ماتت الآن؟!

وقف "سعدون" أمام كومة اللحم المشوَّهة، وتكلَّم، وصوته غرغر: أين "جميل"؟

لم يكن واضحا من "جميل" غير ملامح لجسد طفل عمره سنتين، ونعر "سعدون": يا "جميل"، يا "جميل".

تكالبوا عليه، وأبعدوه عن كومة اللحم المشوَّهة، وكان يضربهم ويلكزهم وهو ينعر، ثم سقط بينهم، وهمد جسده بعد أن ذهب فى غيبوبة.

و"حجيزى"كان ينظر لكومة اللحم.

"لو كنت أنا هذا اللحم المشوَّه، هل كنت سأكره الدفن؟!".

*****

- القبر أوَّل منازل الآخرة.

قالها "مزيد" فى أحد الدُّروس التى يلقيها أحيانا بعد أذان العشاء، قبل الصَّلاة.

فى ظل شجرة أثل كبيرة كانت إحدى النِّعاج قد استسلمت تماما، كانت ملقاة على جنبها بينما "حجيزى" يجلس وقد فرد إحدى ساقيه على رقبتها، بينما كان يدوس بيديه على مؤخِّرتها، وكان "سعدون" يجز صوفها بمقص حاد.

قال "حجيزى": شجرة أثل قبيحة، لو كانت شجرة برتقال!

قال "سعدون" من غير أن يرفع وجهه عن الصُّوف الذى يجزّه: ومن سيزرع شجرة برتقال فى هذه الصَّحراء البعيدة؟!

قال "حجيزى": فى الطَّريق إلى "موط" شجرة برتقال.

قال "سعدون": ربما أحد المسافرين زرعها هناك.

لوى "حجيزى" شفتيه: أكثر ناس يحتاجون لزرع أشجار على الطريق هم المسافرون، وهم أكثر ناس لا يفكِّرون فى زراعتها.

وقال: تذكَّرت شجرة البرتقال هذه عندما قال "مزيد" إن القبر أوَّل منزل فى طريق الآخرة، وإنه إما يكون..

وقال "مزيد" فى درسه أيضا: القبر منزل تجهِّزه فى دنياك، عملت أعمالا صالحة، يصير لك روضة من رياض الجنَّة.

وأوضح الشيخ "مزيد": الرَّوضة قطعة من الجنَّة، شىء يشبه بستان مزروع بأشجار الفواكه، مثل هذه التى تزرعونها، لكنَّها أروع بأكثر مما نتخيَّل.

واكمل كلامه: أمَّا لو عشت حياتك تعمل الذَّنوب ولا تتوب، فسيكون القبر والعياذ بالله حفرة من حفر النَّار.

كان "سعدون" قد أتمَّ جزَّ هذه النَّاحية من جسم النَّعجة، فرفع "حجيزى" ساقه من على رقبتها، فهبَّت واقفة، وقبل أن تركض مبتعدة، كانا قد ألقياها على جنبها الآخر، ورقَّص "سعدون" طرفى المقص فشخلل.

قال "حجيزى": يا "سعدون"، أنا ذهبت للمقبرة التى وجدوا فيها أمواتا مدفونين منذ آلاف السِّنين، بعد "موط" بمسافة طويلة، رأيتهم، وكان قبرهم مثل غرفة، ولم يكن فيه ولا شجرة فواكه، ولم تكن جدران القبر مسوَّدة بالهباب حتى نقول إنه كان حفرة نيران!

رفع "سعدون" وجهه عن الصُّوف والمقص، خطف وجهه خطفا مثل ملدوغ، وقال: استغفر الله يا "حجيزى"، عقلك دائما يسرح بك فى ما يغضب الله، أخاف نهايتك تكون سوداء.

لكن "حجيزى" نظر لعينى النَّعجة، وقال: ماذا تقولين؟!

توقَّف "سعدون" عن الجزِّ تماما، ونظر فى عينى "حجيزى" ببلاهة، ثم قال: تكِّلم النَّعجة يا "حجيزى"!؟

قال "حجيزى": أنا ما كلَّمت النَّعجة يا "سعدون"، هى التى كلَّمتنى.

ضحك "سعدون": النَّعجة كلَّمتك يا "حجيزى"؟!

هزَّ "حجيزى" رأسه مؤكِّدا، فقال "سعدون": وماذا قالت لك يا "سليمان" زمانك؟!

- قالت لى، كلِّمنى أنا أحسن، فأنا نعجة، لكن صاحبك هذا حمار.

فألقى "سعدون" المقص على الرِّمال، وأخذ يضحك، وبطنه يرتجُّ مثل عجين الخبز النيِّئ فى الماجور لما تخبطه "ثريَّا" بيدها وهى تقلِّبه.

*****

صحن المسجد ساحر فى الليل، عندما يضيئه الكلوب بنور خافت، وفى هذا النُّور يجلس الشيخ "مزيد" مواجها للمصلِّين الذين ينتظرون إقامة صلاة العشاء، بينما يستمعون لكلامه: وسأل حبيبى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الصَّحابة الكرام: إن من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فما هى؟

وقلَّب الشَّيخ "مزيد" نظراته فى الوجوه التى تبدو وكأنَّها على شفا النَّوم، وقال: هل يعرف أحدكم هذه الشَّجرة؟

بدأ المصلُّون فى فتح أعينهم، فقال الشَّيخ "مزيد": شجرة لا يسقط ورقها، وهى مثل المسلم، ألا يعرفها أحدكم؟!

قال "فُتحَة": كل الشَّجر الذى نعرفه، تسقط أوراقه!

ابتسم الشَّيخ "مزيد": صحابة الرَّسول صلوات الله وسلامه عليه، عندما سألهم هذا السُّؤال، كانت إجابتهم تشبه إجابتك يا عم "فُتحَة"، أخذوا يذكرون أسماء كل شجر الصَّحراء، ما عدا الشَّجرة المقصودة، ولمَّا رأى حبيبنا المصطفى حيرتهم قال اسمها.

كركبت حنجرة "غنيمة": ونحن احترنا فقل لنا اسمها وأرحنا!

فقال "مزيد": النَّخلة.

علت همهمات المُصلِّين وهم ينظرون لبعضهم باندهاش، وزعق "فُتحَة": لكن النَّخلة يا شيخ "مزيد" ليست شجرة!

وضحك "مزيد" ضحكة طويلة، قبل أن يقول: وما هى النَّخلة إن لم تكن شجرة؟!

قال "غنيمة": النَّخلة نخلة يا شيخ "مزيد".

وقال "حجيزى": والنَّخلة كلُّها خير، لكن المسلم ابن كلب، أغلبه شر، فكيف تكون النَّخلة مثل المسلم؟!

وضحك المُصلُّون بقهقهات عالية.

ولم يسكت "حجيزى"، وإنِّما قال مخاطبا "مزيد": أنت تألِّف كلاما مثل أبيك الشَّيخ "علوان" الله يرحمه.

*****

كان "حجيزى" فوق، فى قلب إحدى نخيله الكثيرة، عمر"حجيزى" ثمانين عاما، ويحوط عراجين النَّخلة المثقَّلة بالبلح بأكسية معمولة من نبات الحلفاء المضفَّر بسعف نبات الخشخاش، حتى يحتفظ العرجون ببلحه كاملا، وحتى لا تنقر العصافير البلح فتفسده.

أمشير، شهر ضم البلح على عراجينه فى "الوعرة"، شهر الفرح والمشاركة والتعاون، شهر المحبَّة المتأجِّجة بين إنسان الصَّحراء ونخيلها، النَّخيل عراجينها معطاءة الآن، بلح أخضر رامخ، طعمه نصف محلَّى، لكنه شهى، وتشعر النَّخلة بالإنسان وهو يتسلَّقها وقد أحاط خصره بالبطان، هذا الحبل الغليظ

المضفور من ليف النَّخيل، ليشد الإنسان إلى النَّخلة فلا يسقط من عل، يطلب نتاجها فى مقابل أن يعطيها ألقا.

سيبقى الإنسان فى الصَّحراء عاشقا للنَّخيل، يهش عنها الغنم وهى نبتة، ثم يبقى يرعاها وهى تعلو، ولا تعلو النَّخلة ببساطة، وإنما بعمر ابن آدم، فالنَّخلة قد يدفن نواتها فى الأرض طفل ما، لكنها لن تطعمه أول بلحها قبل أن يكون شابا يافعا، فهو الذى سيأخذ من طلع ذكورها اللِّقاح الذى سيضعه فى طلع إناثها، لتبدأ النَّخلة فى الحمل، ثم العطاء.

ونخيل الصَّحراء ليست كأى نخيل فى أى مكان من العالم، نخيل الصَّحراء تفهم لغة الإنسان، وتعرف معاملاته، طالما أعطاها اهتماما، فأزال من عليها زوائد جذعها من ليف وكرانيف، وخفَّف قلبها من الجريد الزائد، وغذَّى جذرها بالأسمدة البلدية، فلابد وأن ترُد هداياه، بلحا لا ألذ ولا أطيب.

كان "حجيزى" فى قلب النخلة، وناس أخر كثيرون فى قلوب نخيلهم، يغطُّون العراجين ويتصايحون وكانوا يضحكون وهم يصرخون لبعضهم: على مهلك يا ولد أنت وهو، لا تغضبوا عمَّتكم النَّخلة. وتنطلق القهقهات.

كانوا قد سمعوا الشيخ "مزيد" لما قال: حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال: أكرموا عمَّتكم النَّخلة.

وغمغم "حجيزى": النَّخلة عمَّتنا، يبقى ذكر النَّخل عمَّنا.

ورفع صوته: يا "مزيد" نكرم عمَّتنا ولا نكرم عمَّنا؟!

وبدا الشَّيخ "مزيد" غير فاهم: ماذا تقول يا عم "حجيزى"؟

- نكرم النَّخلة الأنثى ولا نكرم النَّخلة الذكر؟!

قال "مزيد" هاتفا: أكرموا النَّخل كله، إنما خصَّ حبيبنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه النَّخلة الأنثى بالذِّكر لأنها الأكثر فى الأرض، لكنه، فداؤه نفسى وأبى وأمى، كان يقصد النَّخل كله.

زعق "حجيزى": والله يا "مزيد" أنا أشعر أنك تأتى بهذا الكلام من رأسك.

قام "سعدون" ليقيم الصَّلاة، وكان الشَّيخ "مزيد" يقول غاضبا: أنا آتى بالكلام من رأسى؟! تعنى أنا اتقوَّل على رسول الله!؟ تريدنى أتبوأ مقعدى من النَّار؟!

وقف "سعدون" ورفع صوته متهدِّجا: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألَّا إله إلَّا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصَّلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصَّلاة قد قامت الصَّلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلَّا الله.

كانت الشَّمس فى ضحاها، و"حجيزى" فى قلب النَّخلة العالية، والنَّاس فرحين بزماط النَّخيل، كأنَّهم فى العيد، عندما كانت نقطة فى أفق الصَّحراء تبدو وهى تتحرَّك مثيرة لغبار الرِّمال، كانت النُّقطة تتحرَّك بسرعة كبيرة، فبدت، فى خلال دقائق، إنسيًا يجرى بكل سرعته، ثم وصل صوته الصَّارخ: يا خلق الحقوا أبا "غنيمة"، الحقوا أبا "غنيمة".

كان أحد الأولاد الرُّعاة.

*****

- "شقمق" بيك يا "حجيزى" كان صديقا حميما للسُّلطان "طامانباى"، "طامانباى" هذا كان آخر سلاطين المماليك، لكن الكلب التُّركى شنقه، وعلَّقه فى باب "زويلى".

- والـ "طمنبى" هذا، ترك التُّركى يشنقه، ويعلِّقه فى الأبواب؟!

- لا يا "حجيزى"، السُّلطان "طامانباى" ما سلَّم نفسه هكذا، وإنما قاتلهم، وسقى جيوش العثمانيين الرِّدى، وأطعمهم المرار والقرض، وكان "شقمق" بيك معه.

- وكيف يا "غنيمة" قبضوا على السُّلطان، وما قدروا يقبضوا على "شقمق"؟!

- الخيانة يا "حجيزى"، البدو تجرى الخيانة فى دمائهم.

- البدو؟! البدو عرب يا "غنيمة"! هم مشايخ عرب!

- وهل العرب ملائكة؟! لا، فيهم الأنجاس أولاد الكلاب الخونة، وأغلبهم من البدو، أنت قلت بنفسك إنهم كانوا يسلبون بيوت أهلنا وناسنا فى الواحات البحرية أكثر من الإنجليز أنفسهم، تذكر رحلتك القديمة إياها للعلمين مع "شديد" أبوك؟!

لقد دكَّ الإنجليز الواحة بمدفع ضخم، أول مرة يرى مقاتلو الواحة مثل هذا المدفع، كان يطلق كرة من النَّار لا تنفجر إلا وسط البيوت، فينسفها بمن فيها، ولم يكن أمام المقاتلين إلا الاستسلام بالفرار، فهذه الكتلة الصَّماء التى تقذف الحميم، ستقضى على نسائهم وعيالهم لو استمروا فى الحرب، فر مقاتلو الواحة

إلى الصَّحراء البعيدة، وكالعفاريت ظهر البدو على أفراس لها عيون مثل عيون الجان، فهجموا على البيوت الملقاة بجروحها، ونهبوها.

قال "غنيمة": وهل برابرة النُّوبة إلا بدوا؟! بمن كان يستعين الإنجليز فى إخضاع الواحات؟! كانوا يستعينون بالبرابرة النُّوبيين سود الوجوه الملاعين.

وقال: نحمد الله أن "الوعرة" صغيرة، لم يشعر بوجودها أحد.

قال "حجيزى": أنا لا أريد الطَّريق من أجل هذا، الطَّريق تأتى بالغرباء دائما، والغرباء سيأتون لنا بالمشاكل. والشَّيخ "مزيد" يصدِّع رؤوسنا كل صلاة جمعة، الطَّريق الطَّريق، "مزيد" صغير، ما عنده خبرة بالمصائب التى ستجلبها الطَّريق.

ماكنت وُلدت أنت يا "غنيمة" لما جاء خواجه انجليزى ليشترى الفارس الذى حنَّطه "شديد"، جاء "الوعرة" ومعه امرأة انجليزية مثله، كانت عارية تقريبا، شعرها مكشوف، وذراعاها، وصدرها، وساقاها، كانت حكاية الواحات، لو عملنا الطَّريق ستأتى لنا مثل هذه النوعيَّات التى ما عندها دين ولا أخلاق، الخوجاية كانت تقبِّل الخواجة أمام عيون ناس "الوعرة" كلِّهم، كان منظر الفارس المحنَّط فوق فرسه المحنَّطة قد أخذ ألباب النَّاس، وما أخرجهم من دهشتهم غير قُبلة المرأة للرجل أمامهم.

كركبت حنجرة "غنيمة": المهم، قبض التُّرك على السُّلطان "طامانباى" وهو فى أمان واحد من مشايخ العرب فى أرياف بحرى.

وخرجت ضحكة ساخرة من أنف "غنيمة": شيخ العرب ابن المرأة القحبة أعطاه الأمان، ثم هو نفسه وشى به عند التُّرك، فجاءوا وقبضوا عليه.

- لماذا وشى شيخ العرب بالسُّلطان؟!

- لتكون له حظوة عند الأسياد الجدد، ويبقى فى بلاده شيخ عرب.

- ولماذا يريد أن يبقى شيخ عرب؟

- الحكم يا "حجيزى" له شهوة، ثم مشايخ العرب ينهبون أموال النَّاس، يفرضون عليهم ضرائب ومكوس، ويأكلونها.

سكت "حجيزى" لحظة، نظر فيها للقمر المكتمل، ثم قال: ما من واحد تولَّى أمر النَّاس إلا وطلب أموالهم، حتى.. حتى.. حتى الأنبياء.

فتح "غنيمة" عينيه على اتساعهما، فبرق ضياء القمر فيهما.

لكن "حجيزى" قال: هؤلاء يقولون ضرائب، وهؤلاء يقولون زكاة.

"غنيمة" همس: استغفر الله العظيم!!

- و"شقمق"؟

- كانت هجمة الأتراك سريعة، و"شقمق" يبات فى حجرة غير حجرة السُّلطان، فلمَّا رآهم يهجمون على باب غرفته، قفز من الطَّاقة، وركب فرسه وهجَّ فى ظلام الليل، كان القمر بدرا يا "حجيزى"، والنَّخيل فى زروع الفلَّاحين ليلا لها مهابة، وكان البدر نوره ينعكس على مياه البحر الكبير، النيل يا "حجيزى"..

كان "حجيزى" ينظر لـ "غنيمة" الذى كان يتحدث وقد سرحت عيناه ناحية الصُّخور عجيبة الأشكال، والتى بدت فى ضوء القمر مثل برابرة ضخام يُرضخون "الوعرة".

زعق "حجيزى": ما تريد تشفى من الدَّاء الذى فيك يا كذَّاب يا ابن الكلب، تقول كلمة صحيحة وتضيف إليها مائة مكذوبة، أنت رأيت الشقمق صاحبك يهرب فى الليل؟! والبدر والنَّخيل فى زروع الفلَّاحين؟! يا هيَّات، صرت مثل "مزيد"!

6

الذِّى يقعُ فى بَراثِن الموْتِ

- وِرِنْدا، وِرِنْدا.

زعق "سلمان" وهو يشير ناحية "ضب" يجرى على الرِّمال بين أشجار العبل القصيرة المنتشرة فى هذه البقعة من الصَّحراء.

لم تكن الأغنام مهتمَّة بهذا الضب، وإنما كانت مهتمَّة بقضم أوراق هذه الأشجار، ولم تكن بيوت "الوعرة" تبدو من هنا، لكن الصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال تطل من كل النَّواحى، والشَّمس فى سماء صافية، ترفل فى ضحاها.

- وِرِنْدااااا، دااااااااا.

تردَّد صدى صرخة "سلمان" بين الصُّخور الشَّاهقة، وجرى "سليم" ناحية "الضب" محاولا الإمساك به، وزحف "الضب" على الرِّمال بسرعة عجيبة، قبل أن يقفز إلى أسفل شجرة من هذه الشُّجيرات، ويختفى فى جحره.

ضحك "سالم" و"سلمان" من فشل "سليم" فى الإمساك بالضب، و"سليم" اغتاظ جدا، وزعق: أنا الآن سأمسك كل الوِرِنْدات التى فى الجحر.

واتَّجه إلى إحدى الشُّجيرات، ونزع منها بعض أغصانها التى جفَّت، ووضعها أمام فتحة الجحر، وأشعل فيها النَّار.

قال "سليم": ستخرج الآن كل الوِرِنْدات هربا من الموت اختناقا بالدخان .

تأججت النَّار فى كومة الأغصان اليابسة، وبقليل من الرِّمال أطفأها "سليم" ليتصاعد الدُّخان الكثيف، لكن الدُّخان لم يكن يدخل الجحر، كانت الريح تحمله للإتجاه المعاكس، فضحك "سلمان"، وضحكت الصُّخور الشَّاهقة.

حاول "سليم" أن يُدخل الدخان جحر الضَّب بطرف جلبابه، لكن الدخان لم يدخل الجحر أبدا، ولم يخرج أى ضب، وصاح "سليم" وهو يجرى ناحية شىء ضئيل يخطو ببطء على الرِّمال: حرباء، حرباء.

وردَّدت الصُّخور صوت "سليم" الذى غلُظ من المراهقة: حربااااء، بااااء.

والحرباء دائما أبطأ من أن تهرب، لذلك تتلوَّن. وكانت صفراء مثل الرِّمال، لكن العيون التى اعتادت الصَّحراء، يمكنها ببساطة رؤية حرباء صفراء تمشى على رمال صفراء، وفى لحظة كانت الحرباء مستكينة تماما بين إبهام وسبَّابة يد "سليم".

ليس للحرباء وجه، فعيناها على جانبى رأسها، لذلك ليست هناك ملامح يمكن أن تتشكَّل نتيجة الفزع أو السَّكينة، فرأس الحرباء هو هو فى كل الحالات، كتلة مُضلَّعة على جانبيها عينان تدوران فى محجريهما مثل ساقية، لكن المؤكَّد أن الحرباء كائن غبى!

- إنها صفراء، لكن غطِّها يا "سلمان" بجلبابك، ستتلوَّن بلون الظلِّ.

قال "سلمان": النَّاس كلُّهم يعرفون أن الحرباء تتلوَّن.

قال "سليم": لكنَّهم لا يعرفون أنها غبيَّة، أغبى من الوِرِنْدا. أنا أمسكها وهى لا تتحرَّك أبدا، وها هو لونها يتغيَّر، تظن أننى لن أراها وهى فى يدى! .

قال "سلمان" لـ"سليم": من قال لك إن الرَّجل الفقير أخذ كفن المرأة المحترقة؟

ألقى "سليم" الحرباء، فخطت مبتعدة على الرِّمال، وصرخ بأعلى صوته، فتقاذفت الصُّخور الضَّخمة الصَّيحة فيما بينها: واااااااعوووووو.

لكن "سالم" قال: نحن لا نخاف فى النَّهار.

وقال "سلمان": نعم، نحن لا نخاف فى النَّهار.

وقال "سليم": زمان جَدِّى حكى لى كل الحكاية، كان يريد أن يخيفنى، لكنَّه حكاها لى فى النَّهار.

الدخان يتصاعد من الأغصان المحترقة، وأطلَّ رأس الضَّب من الجحر، يتلفَّت يمينا وشمالا، وزعق "سلمان": الوِرِنْدا، الوِرِنْدا.

وزعقت الصخور: وِرِنْداااااا، دااااا.

*****

كانت القافلة صغيرة، مجرد ناقتين، واحدة يركبها الدَّليل، والثانية يركبها الرَّاهب، وكان الرَّاهب يقصد مكانا ما فى الصَّحراء البعيدة، وتوقفا فى "الوعرة" للتزوِّد بالماء، وكان الرَّاهب يريد التزوِّد بالتَّمر أيضا، وبالخبز الجاف، والجبن المملَّح، وكان "حجيزى" يحب قوافل الرُّهبان، لأن الرُّهبان كانوا يحكون له حكايات عجيبة عن الله الذى نزل للأرض فى هيئة الإنسان.

قال "حجيزى" لـ"سعدون": كم مرَّة صلَّينا لله فى المسجد لكى يفيض النَّبع، أو حتى لا يستمر فى النُّقصان؟ صلَّينا كثيرا ولم يستجب لنا، واستجاب لـ"يوحنا" النَّصرانى!

قال "سعدون": فتنة يا "حجيزى"، الشَّيخ "مزيد" قال هذه فتنة، يريد الله أن يختبر قلوب المسلمين، هل ترى ببصيرتها، أم أنها ستنخدع بما تراه العيون؟

كانا يجلسان فى ظلِّ نخلة، وكانت زروع البرسيم تغطِّى الأرض، وبعيدا تلوح الصُّخور الضُّخمة، وعلى حواف الحقول وقفت أبقار وجواميس تأكل من حشيش الحواف، وربضت جِمال تجتر وقد رفعت رءوسها تنظر حولها بعيون غارقة فى السواد.

وفجأة رتَّل "حجيزى" القرآن: "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت، وَإِلَى السَّمّاءِ كَيفَ رُفِعَت، وَإِلَى الجِبَالِ كَيفَ نُصِبَت، وَإِلَى الأَرضِ كَيفَ سُطِحَت"..

وأخذ "سعدون" يهز رأسه طربا، لأن صوت "حجيزى" كان يميس فوق حقول البرسيم وهو يحمل دفء الصَّحراء المشمسة، فبدا القرآن ساحرا، وسكت "حجيزى"، لكن "سعدون" صاح وهو مازال يهز رأسه: الله الله الله الله.

فتغنَّى "حجيزى": "وَالشَّمسِ وَضُحَاهَا، وَالقَّمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيلِ إِذَا يَغشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالأَرضِ وَمَا طَحَاهَا ...".

توقَّف "حجيزى" عن الترتيل، ولم يتوقَّف "سعدون" عن التمايل بجذعه كله وهو يقول: الله الله الله الله.

فنظر "حجيزى" إليه وقطَّب جبينه، وقال: يا ابن الكلب تهز جسمك وتقول الله الله، وأنت لا تفهم شيئا! هذه هى مخلوقات الله التى يريدنا أن ننظر إليها بعيوننا، ما تُوجد بصيرة القلب إلا بعد وجود بصر العين.

كان الماء يجرى فى الجدول الضَّيق، وأشعَّة الشَّمس تتكسَّر على أمواجه الصَّغيرة، وأصوات النَّاس فى الحقول تصنع ونسا مبهجا.

- يا "سعدون".

- ماذا تريد يا "حجيزى"؟!

- "يونَّاس" الرَّاهب قال لى كلاما عجيبا، أعجب من أى كلام قاله لى رهبان آخرون.

قال "سعدون": الرُّهبان! أنا لا أحب أن أسمع سيرتهم، أو أرى أشكالهم، أحس أنهم ليسوا بشرا مثلنا، ليسوا أحياء مثلنا، لذلك يفضِّلون العيش فى قبر واسع اسمه الصَّحارى، ويستأنسون فيه بالحيَّات والضباع والذِّئاب.

فوجئ "سعدون" بـ "حجيزى" يهبُّ واقفا، وهو يزعق مثل مجنون: يا "سعدون" قلت ما لا يمكن أن يقوله حمار مثلك! كيف فهمت ذلك؟! أحيانا أرى فى جمجمتك مخ يا "سعدون".

جلس "حجيزى"، و"سعدون" على شفتيه بسمة صغيرة، وفى عينيه استغراب.

قال "حجيزى": قلت لـ"يونَّاس" الرَّاهب: لماذا تنقطعون فى الصَّحراء؟

فقال لى، نبعد عن أذى النَّاس.

قال "حجيزى": كان قد مرَّ بـ"الوعرة" راهب آخر اسمه "يوحنَّا" وسألته عن سبب انقطاعه فى الصَّحراء، فقال لى: نبعد عن مشاكلنا.

- قلت لـ "يونَّاس"، فى دينكم ينزل الله للنَّاس، وأنتم تبتعدون عن النَّاس؟! فقال، هو خلقهم، وهو مسؤول عن إصلاحهم، كان لابد أن ينزل لإصلاح صنعته.

ابتسم "حجيزى" وهو يقول: قال الله مسؤول!؟

وابتسم وهو يقول: من هذا الذى يمكنه أن يسأل الله!؟

وقال: ما يصير الله لو أنه خضع للسؤال.

قال "سعدون" متأفِّفا: أستغفر الله العظيم، قلت لك لا أطيقهم، حتى كلامهم لا أطيقه، إبليس نفسه ما قال كلامهم!

قال "حجيزى" وهو يرنو إلى بعيد، إلى الأفق، حيث السَّماء ترتطم بالصَّحراء: لكن الراهب "يونَّاس" قال لى كلاما عجيبا آخر، قال إن ربَّهم عندما صلبوه ومات، دفنوه.....

لم يكمل "حجيزى" كلامه، لأن "سعدون" خرجت من فمه قهقهات مسرسعة، وأخذ يقلِّد حركات "غنيمة" لما يغرق فى الضَّحك، ثم استلقى على قفاه، كان يحاول الكلام وهو يقهقه، يقول: دفنوا الله!؟

ودموعه سالت، ولحمه يرتج، ويقول: يا أولاد الكلب!

و"حجيزى" دَكَّه بقدمه فى جنبه، وقال: اسمع باقى الكلام.

اعتدل "سعدون" وهو يمسح زوايا عينيه من الدُّموع بطرف صديريه، وكان يغالب بقايا ضحك، وقال "حجيزى": لكنَّه قام بعد ثلاثة أيام، وترك القبر، وطار إلى السَّماء.

نظر "سعدون" فى عينى "حجيزى"، وعاصفة هوجاء من ضحك محموم تتجمَّع فى صدر "سعدون"، قال: يقصدون من؟!

- الله.

وانطلقت العاصفة، والنَّاس فى الحقول أخذت تنظر ناحية هذه القهقهات التى تشبه صوت ارتطام الفئوس. و"سعدون" لم يكن مستلقيا على قفاه وفقط، كان يتمرَّغ تحت جذع النَّخلة مثل حمار.

*****

نزل النَّاس من قلوب النَّخيل، وقلوبهم تقرع مثل الطُّبول، وزعق "حجيزى" فى وجه الفتى الذى كان يلهث مثل كلب: ما له "غنيمة"؟

قال الفتى: هناك فى الصَّحارى البعيدة، ملقى على الرِّمال، يكاد النَّفس ينقطع منه.

هتف "حجيزى": شرب ماء؟

هزَّ الفتى رأسه بالإيجاب. ومشى "حجيزى" مسرعا نحو بيته، وجرت النَّاس نحو بيوتها، وما مر قليل وقت، حتى امتدَّ فى الصَّحراء خط غامق من عشرات الجمال والبغال والحمير، تركبها النَّاس، تسوقها نحو صحارى الجنوب البعيدة.

كان "غنيمة" قد ركب ناقته بعد أن صلَّى الفجر، ثم وقف أمام باب المسجد ونادى على "حجيزى" الجالس بالدَّاخل، جاءه صوت "حجيزى": يا بهيمة من غير عقل، باب المسجد مفتوح، أدخل.

كان صوت "غنيمة" حزينا، قال بنبرة أوصلت غمَّ صاحبها إلى "حجيزى": أنا راكب النَّاقة، أخرج أنت.

وخرج "حجيزى"، واندهش.

قال "غنيمة": إلى "الخارجة"، مشوار سأقضى فيه مصلحة.

نظر "حجيزى" فى وجه "غنيمة"، كان منقبضا، قال "حجيزى": أيَّة مصلحة هذه يا "غنيمة" التى ظهرت فجأة؟ وفى "الخارجة" البعيدة؟!

قال "غنيمة" وهو ينخس جنبى ناقته بكعبى قدميه: عندما أعود سأخبرك بكل شىء.

ومضت النَّاقة، و"غنيمة" على سنمها يرتج، وكلب "غنيمة" أخذ يهرول وراءهما.

وراء هذه العشرات من الصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال مسافة شاسعة من رمال سفيفة ناعمة، لا يبدو فى الأفق نهاية لها، لكن بعد مشى ساعة، بدت رءوس بعيدة لصخور أخرى شاهقة، وكانت كثيرة، بحيث بدت أنها قد تسد الأفق كله، قال "حجيزى" للفتى: يخرب بيت من خلَّفك، ما الذى جعلكم تذهبون بأغنامكم إلى هناك؟! هذى صحارى مقطوعة يا بقر.

قال الفتى: أردنا مراع جديدة، الغنم جائعة.

هذه صخور أشد هولا، ضخمة جدا، ومتقاربة جدا، وأشكالها مثل رءوس نمور مهشَّمة، وصدور أسود ممزَّقة، كانت هناك صخرة تشبه حمامة مقطوعة الرَّأس تقف على ساق واحدة، صخرة مريعة تبدو وكأنها ستسقط فى أى لحظة، وهى الصَّخرة التى كان "غنيمة" قد جلس مستندا بظهره إلى ناحية من قاعدتها، كان وحيدا، لم يكن أحد من الرعاة يجلس بجواره، وإنما كانوا يقفون بقاماتهم القصيرة ووجوههم الطُّفولية بعيدا، يقلِّبون أنظارهم بينه وبين شىء ملقى على مبعدة.

كان "غنيمة" مثل شبح، هزل جسده، ووجهه اختفى خلف تكلُّسات من رمل ناعم التصق ببشرته، وملابسه تمزَّقت، وعلى مبعدة منه كانت رأس النَّاقة ملقاة على الرِّمال، موصولة بسلسلة عظام عمودها الفقرى، وبقية من لحم متهرِّئ غطَّى بقيَّة عظامها، كان هذا ما تبقى من ناقة "غنيمة"، بينما آثار أقدام ذئاب وضباع نقشت الرِّمال حولها.

نظر "غنيمة" إلى النَّاس التى التفت حوله، وقلَّب وجهه فيهم حتى رست نظراته على "حجيزى"، كان "حجيزى" قد وقف مبهوتا، و"غنيمة" نظر إلى "حجيزى" وبكى.

*****

توقَّف "غنيمة" عن الضَّحك، واعتدل من استلقائه، وأكل لقمة من الخبز كان قد غمسها فى المرق، ومد يده وأمسك بقطعة لحم، وقال وهو يرفعها إلى فمه: أهل الحظِّ لو حكَوا لك عن حظِّهم، تقول عنهم أصحاب كرامات.

قال: الخواجة الإنجليزى وهو قاعد فى مكانه يسقط العصفور فى يده!!

وقال: لكن أهل الحظِّ يستحقون، لأنهم ناس يفهمون، يعرفون كيف يتصرَّفون مع الأرزاق التى تسقط فى أياديهم.

نظر إلى وجه "حجيزى" الذى تتلَّوى تغاضينه فى اهتزاز لهب اللمبة الجاز، وقال يسأله: تظن يا "حجيزى" لو وقع عصفور فى يد واحد منَّا، ماذا سيفعل به؟

هتف "بكير" وهو يزدرد قطعة من اللحم: يفصل رأسه من جسده، ويعطيه لامرأته تشويه، ثم يأكله بقضمة واحدة، لحم العصافير لذيذ يا عم "غنيمة".

قال "حجيزى": أنا سأطيِّره مرَّة أخرى فى الهواء.

قال "غنيمة" وهو يلوك قطعة اللحم: ولو صار عاجزا عن الطَّيران؟!

قال "حجيزى": يبقى حظُّ المسكين أن يكون صيد القطط.

قال "غنيمة": انظروا إذن ماذا يفعل أصحاب الحظوظ.

أخذ الخواجه يتأمَّل فى عينى العصفور، وشهق الخواجه، وقال: عصفور مسكين، عصفور جُرح رأسه، هل كُسر جناحك يا عصفورى؟

وزعق الخواجه ينادى المصرىَّ: يا ولد، هات الأدوية من الأجزخانة.

أخذ الخواجة يطبِّب العصفور، والعصفور يصأصئ، وبعد أن انتهى قال للمصرىِّ عامل العربة: انتبه يا ولد لهذا العصفور، إنه الآن ضعيف، لا تتركه يطير خارج القطار، سيقع فريسة سهلة لآكلات الطيور، أنا سأرى ماذا ستفعل!

أتى المصريُّ بصندوق كارتونى صغير من تلك التى يحفظ الإنجليز فيها الطَّعام، كان فارغا، فصنع فيه بضعة ثقوب، ووضع العصفور بداخله، ثم أغلق عليه غطاء الصُّندوق، وركنه بجواره فى العربة التى يعدُّون فيها أطعمة الإنجليز ومشاريبهم.

نادى الخواجه على المصرى، كان القطار يزحف فى صحراء استوت أرضها بلا نهاية، يغيب ويطلق صافرته، وقال الخواجه: هات لى عصير ليمون.

وقال: ماذا عملت مع العصفور؟

جاء العامل يحمل صينية عليها كوب العصير، وبيده الأخرى يقبض على الصُّندوق الصغير المغلق، فصرخ الخواجه ملتاعا: يموت العصفور هكذا يا ولد يا غبى.

لكن المصرى قال: أنا صنعت ثقوبا فى الصُّندوق ليتنفس!

قال الخواجه، وكان القطار يصفِّر: العصافير الحُرَّة لا تموت فقط بسبب نقص الهواء، تموت أيضا لما تفقد حريَّتها، وتشعر أنها حبيسة.

صرخ الخواجة: هات الصندوق.

نزع الغطاء، ووضع الصندوق مفتوحا أسفل النَّافذة المغلق زجاجها، وقال: العصفور يبقى هنا، انتبه له، وأنا غير موجود أطعمه وأسقه.

قال المصرى بصوت حائر: قد يطير بعدما يشفى!

- لن يعود القطار إلى "الخارجة" إلا بعد مرور أسبوع، يجب أن يعود العصفور إلى وطنه يا ولد، العصافير تحب أوطانها يا ولد. سيبقى العصفور فى ضيافة مصلحة السِّكك الحديديَّة لمدة أسبوع.

وأخذ ابن الكلب يقهقه، وأنا أنظر إليه ما أدرى ماذا أقول!

قال "حجيزى" مندهشا: وأين كنت أنت حتى تنظر إليه ؟!

شهق "غنيمة": أنا ؟! مالى أنا ؟!

وسارع بوضع قطعة كبيرة من اللحم فى فمه.

*****

"زليخة" كانت خفيفة الرُّوح، وخفيفة اللسان، وجميلة، فأحبَّها "سعدون" جدا، وهى أحبَّته، وأحبَّت أن تلد أيضا، ومرَّت خمس سنوات ولم تلد، فقالت: يا "سعدون" نفسى فى عيِّل.

فقال "سعدون": اصبرى يا "زليخة" مثلما صبرت "سريرة"، عشر سنين وكان عندها "بكير".

"زليخة" قالت: ما عندى صبر "سريرة"، يا "سعدون" أنا لمِّا تلد الماعز أغير وأبكى، حرام عليك يا "سعدون".

ونهنهت، وبكت، ورمت رأسها فى صدره الوفير، فقبَّل "سعدون" شعرها الفاحم، وقال: حرام عليك يا "سعدون"؟! ماذا فعل "سعدون"؟!

دفنت وجهها فى أعلى كرشه، وقالت: لا تريدنا نذهب لطبيب.

هتف "سعدون" بصون مستكين: تريدينا نبقى مضحكة "الوعرة"؟ نسافر على الجِمال أيام، ونركب الحديد، ونذهب لأسيوط، ثم فى النِّهاية لا تلدين.

رفعت "زليخة" وجهها، ونظرت فى عينى "سعدون" مثل قطَّة تتأهب للخمش: ومن قال لك أنى لن ألد؟!

خفَّض "سعدون" من نبرة الغضب فى صوته، كان يصعب عليه جدا أن يغضبها: "بهيجة" قالت لك إنك....

رمت "زليخة" رأسها على صدره مرَّة أخرى وهى تنتحب: ستقول لى "بهيجة"، وستقول لى إننا ذهبنا للشيخ "صدُّوق"، يا "سعدون" هؤلاء ليسوا أطبَّاء، أما سمعت صاحبك "غنيمة"؟!

شوح "سعدون" بذراعه فى الهواء، وقال بغيظ: الله يقطع "غنيمة" هذا.

وأكمل: عقله عقل مجانين، يترك بلده ويذهب يعمل فى بلاد النَّاس، ثم لا يسكت، وإنما يأتى ويثرثر بالحكايات التى تقلب دماغ الحريم!

ضحك "سعدون" وقال: والله يا "حجيزى" صممت ألَّا نسافر، لكنَّها قالت لى: أنت لا تريد أن تسافر لأنك خائف أن تنكشف، خائف يكشفك طبيب "أسيوط".

نظرت إليها مندهشا، ما كنت قد فهمت كلامها، قالت: يمكن تكون أنت الذى لا ينجب عيالا!

تغير وجه "سعدون": تعرف يا "حجيزى"، كأنَّها دكَّت قلبى بصخرة من هذه الصُّخور.

وأشار إلى الصُّخور الشَّاهقة التى تطل أعاليها من وراء البيوت.

كانا يجلسان على حافة جدول، وقد وضعا أرجلهما فى الماء الذى يجرى هامسا رقراقا، وكان النَّاس قد تعلَّقوا فى قلوب النَّخيل يقطعون العراجين التى تم

طياب بلحها، وكانت العراجين تطير بثقلها فى الهواء فتحدث وشيشا مثل هبَّة ريح ضالَّة، ثم يعلو صوت ارتطامها بالأرض على الفُرُش التى يبسطونها حول النَّخلة.

قال "سعدون": فقلت لها والله لن تمر علينا ليلة الغد إلا ونحن مسافرين.

قال "حجيزى": أشعر يا "سعدون" أن هذا العرجون سيسقط على "بكير".

وأشار "حجيزى" إلى قلب نخلة يتهيأ صاحبها لقطع عرجونها بالمنجل، وكان "بكير" كأى طفل فى السَّادسة من عمره، يسعى أحيانا بين النَّخيل من غير احتراز، وهو الآن يتجه إلى فرشة قد تناثر عليها بعض بلح، ووقف "حجيزى" وهو يصرخ: "بكير"، يا ولد، يا "بكير".

وهوى العرجون الثقيل ببلحه المكتمل طيابه بسرعة مثل ضوء بارق.

*****

طار غراب فى أشعَّة شمس العصارى، واتَّجه إلى قلب نخلة من النَّخلتين اللتين تسمقان فوق النَّبع، ووقف على جريدة تتألق بسعفها مثل شعر عذراء خضراء، ونعق، لكن نعيقه ذاب فى صراخ النِّسوة الذى انطلق فجأة، كان "صالح" ولد "سعدانى" قد سقط فى النَّبع، وضربت النِّساء صدورهن، و"منيرة" انكفأت على ركبتيها تنظر فى ظلام باطن الأرض، وصرخت: يا "صالح".

"صالح" لم يرد، فقامت، ورغم أنها رأت ولدها وهو يسقط فى البئر، إلَّا أنها أخذت تنظر حولها تبحث عنه بين زحام النِّساء، وذهبت إلى ملتقى النَّخلتين، وأخذت تنادى: يا "صالح".

"صالح" لا يرد، فنظرت إلى الصَّحراء المنبسطة إلى مد البصر: يا "صالح".

"صالح" لا يرد، فعادت تجرى إلى فتحة النَّبع: يا "صالح"، يا "صالح".

الغراب الذى فى قلب النَّخلة أخذ ينعق.

فى العزاء، جلس "سعدانى" على إحدى الدِّكك، وجلس بجواره "حجيزى"، ضوء البدر ساطع، وغادر كثير من المعزِّين المجلس، وقال "حجيزى": رَوِّح يا "سعدانى".

"سعدانى" طأطأ برأسه، وفرك يديه ببعضهما: قلبى كان مقبوضا منذ الصَّباح، أنا صحيت اليوم وقلبى مقبوض، خمسون غرابا نعقوا اليوم فوق رأسى، آخرهم هذا الغراب الذى كان ينعق فى قلب النَّخلة التى بجوار البئر.

نظر "حجيزى" فى عينى "سعدانى"، كان البدر يغيب ويطل منهما، وكان البدر يسبح فى دموع.

قال "سعدانى": سمعت نعيقه وسط صراخ النِّساء، وكانت "منيرة" تنادى على...

وانقطع كلام "سعدانى"، لكنه أخذ يعوى بكلام غير مفهوم.

الشَّمس متوهِّجة، وضوء العصارى مبهجا، وخضرة الحقول التى تحدُّها صفرة الرِّمال، وهامات النَّخيل تتقلَّب فى زرقة السَّماء، وبيوت "الوعرة" تبدو كالحة من هذه النَّاحية، أى شىء يعطى ظهره للشَّمس يبهت لونه فيصير كالحا، وكانت البيوت تعطى ظهرها لضياء الشَّمس، وجاء صوت صراخ النِّساء يتموَّج فى طبقات الهواء، وكان نعيق الغراب يسرح بين صراخهن، أصوات بعيدة قادمة من ناحية البئر، فنصب "سعدانى" قامته المحنيَّة على زراعته، وزعق: صالح.

وانساب صوت "منيرة" الملتاع: يا صالح.

فجرى "سعدانى" يدوس على الزَّرع، وهو يزعق: صالح، صالح.

ورأى النَّاس "سعدانى" يهج فى الحقول، يجرى نحو بئر الرَّاهب، وهو يزعق باسم ولده، فنصبوا قاماتهم، وداسوا على زروعهم، وجروا وراءه.

عندما ظهر الرِّجال من قِبلى البلد، يجرون ناحية البئر، انسحبت النِّساء إلى أسفل النَّخلتين، كن يصرخن، لكن "منيرة" بقيت راكعة على ركبتيها عند فتحة البئر، تنظر إلى عتمتها، وتنادى: يا صالح.

وارتمى "سعدانى" على ركبتيه بجوارها، ونظر فى عتمة البئر، ونظر فى عينى "منيرة"، ونظرت "منيرة" فى عينيه، ثم تهاوت فى إغماءة.

- ما يحز فى نفسى يا خال "حجيزى" ميتته الصَّعبة، الولد انحشر فى البئر، لم يسقط كل جسمه فى الماء، رأسه فقط الذى غرق.

وأجهش بالبكاء، والبدر كان يتَّجه إلى زوال، والبيوت رابضة فى نوره الفضِّى تتثاءب.

*****

رمى "حجيزى" نفسه فى أحضان "سريرة"، وكان دمه يخبط فى عروقه، وأنفاس "سريرة" تدخل فى صدر "حجيزى" فتحوِّله إلى كتلة لهب، وكانت هى نبع، وكان يريد أن ينطفئ، والنِّساء خارج الغرفة تعلو أهازيجهن، والحمامة الصغيرة تهز رأسها وتبرجم.

لكن شيئا حدث أطفأ نيران "حجيزى" مرَّة واحدة.

كان "حجيزى" قد قام من أحضان "سريرة"، وجلس بين ساقيها متخذا وضع الاختراق، ونظر نظرة سريعة لجسد "سريرة" المستسلم، فإذا به يجد نفسه وقد تحوَّل إلى لا شىء، لتنز مياه مثلَّجة من مسام جبينه.

لقد رأى "سريرة" ملقاة على السرير، مسبلة عينيها، وفاتحة فمها، ورأسها مستلق إلى الخلف، وشقٌّ طويل يبدأ من أسفل صدرها وحتى أسفل صرَّتها ينز بالدماء، ويد عجفاء تشد أحد جانبى الشق، واليد الأخرى تخترقه إلى داخل الجسد، وتخرج وقد قبضت على أحشائها، وتسحبها للخارج، ويسمع صوتا واهنا مهتزًّا يقول له: لا يفرق كثيرا تحنيط جسد إنسان عن تحنيط الحيوانات والطيور، فقط الخوف هو ما قد يفرق، لكن كل شىء ما عدا ذلك متشابه.

- أنظر.

ورفعت اليدُّ قلبا تعلَّق بأوردته، وقد تدلَّت من على جانبيه رئتان متهدِّلتان.

- لو لم تكن أمامك هذه الجثَّة الآدميَّة، لما استطعت أن تفرِّق بين هذا القلب وقلب الضَّبع، أو قلب الذِّئب.

كان "حجيزى" قد شلَّه الفزع، لكن أباه كان يعمل فى جسد "سريرة" بهدوء ومهارة محترف تحنيط.

- الأوْلى أن نحنِّط أجساد أحبابنا، لا أجساد الحيوانات والطيور، أحبابنا هم من يجب أن نضعهم معنا فى بيوتنا بعد موتهم، لا أن ندفنهم، ونرميهم للبلى.

كانت يد "شديد" تجوس داخل الجسد، تطمئن على عدم بقاء أى أحشاء باقية فيه، ونظرة إعجاب تلمع فى عينيه، همس: جسد الإنسان مبنى يا ولدى للخلود، سبحان الله، انظر إلى صدر الجثَّة من الخارج، يبدو ضيِّقا، لكنَّه متسع جدًّا من الدَّاخل، ومنضبط.

"حجيزى" كان ينظر إلى الماجور الفخَّارى الذى تكوَّمت فيه أحشاء "سريرة"، وابتسم "شديد" وهو يهمس بصوت يشبه الفحيح: ما تفرق عن أحشاء الخرفان التى نذبحها للأضاحى والأفراح.

- لماذا لم تحنِّط جثَّة أمِّى؟

سحب "شديد" يده من تجويف صدر "سريرة"، ونظر فى عينى "حجيزى" الصغير، وقال: ما استطعت أن أشقَّ صدرها، وقلت "غيابها يؤجِّج الشَّوق"، فدفنتها.

كان "حجيزى" قد تيبَّس تماما، وصوت أغانى النِّساء خارج الغرفة صار مثل صوت العواصف، و"شديد" يمسك بدلو المياه ويصبُّه فى جوف "سريرة"، ورزاز من المياه تناثر على جبهة "حجيزى" فانتفض، ورأى "سريرة" تفتح عينيها تنظر له بعينين مندهشتين، فارتد للخلف مرتعبا، وقفز من فوق السَّرير إلى الأرض، واعتدلت "سريرة" وقد ركبها الخوف.

قال "سعدون": وماذا عملت يا "حجيزى"؟!

كانت النَّاقة الجرباء تقف بينهما وقد استسلمت لهما وهما يحكَّان جلدها بحجرين خشنين.

- أنا كنت كالمجنون، الدُّنيا تهدَّمت على رأسى، نساء يقفن خارج الغرفة يغنِّين، وهن لا يعلمن أن مصيبة تجرى بالدَّاخل، وليس فرحا، وينتظرن المنديل الأبيض مبقَّعا بدماء الشَّرف، وأنا حتى لا أستطيع أن أنصب طولى، كنت أرى "سريرة" جثَّة تتحرك، ما كان ممكنا أن أفعل شيئا، ولا حتى بإصبعى.

توقَّف "حجيزى" عن حك جلد النَّاقة، ونظر إلى "سعدون" وابتسم، وقال: ذبحت الحمامة.

*****

هوى العرجون الممتلئ بالبلح بالضِّبط بجوار "بكير"، شبرا واحدا وكان سيسقط عليه ليقتله، لكن "بكير" مكتوب له أن يكبر ويحيا ويتزوَّج وينجب، ولأن "حجيزى" ما أنجب غير "بكير" قفز بساقيه المبتلَّتين، يجرى نحو ولده الذى ملأ التُّراب عينيه، وملأت المفاجأة قلبه بالرُّعب.

وأخذ "حجيزى" يضم "بكير" إلى صدره، و"سعدون" ينظر إلى "حجيزى" ويتعجَّب.

لم ير"سعدون" صاحبه "حجيزى" حنونا قبل ذلك، دائما مشاعره مكبوتة فى صدره، وحبُّه لا يعبِّر عنه أبدا بكلمات، ولا حتى بحركات مثل الضَّم والاحتضان.

- لا بد الولد غال.

قالها "سعدون" لنفسه.

وقال "حجيزى"، وكان "بكير" قد أفلت ليواصل لعبه: الولد غال، والولد البكرى أغلى، والولد الذى يأتى بعد طول غياب أغلاهم، وأغلى الجميع الذى يقع فى براثن الموت، لكنَّه يخلص منه. وغالى الغاليين يا "سعدون" الذى يقع فى براثن الموت، ولا يخلص منه.

*****

صلاة الفجر، لم يصلِّ أهل "الوعرة" صلاة فجر أحزن من هذه الصَّلاة، فقد كانت محفَّة نقل الموتى، مملوءة هذه المرَّة بجثَّتين ملتصقتين، لصقهما الموت حرقا.

كان المسجد قد امتلأ بالمُصلِّين، على غير عادته فى صلوات الفجر، وكان أناس كثيرون يقفون بالخارج، يلتفُّون حول "سعدون"، الذى لم يدخل للصَّلاة، وإنما بقى بالخارج يرغى مثل جمل يموت، يئن، ويئن، ثم يصيح: "يا بثينة، يا جميل".

ويصيح: يا "زليخة".

المحفَّة أمام المحراب، خشبها متهالك، ولونها الأخضر حائل، ومغطَّاة بملاءة جديدة تناثرت فيها زهور ملوَّنة لم تسطع بسبب الإضاءة الخافتة الصَّادرة من نور "الكلوب" الوحيد، والعصافير بدأت تشقشق، وتكف عن الشَّقشقة كلَّما صاح "سعدون" مناديا على ولده وزوجته.

قال "مزيد": الصَّلاة على الميّت أربع تكبيرات، بعد التكبيرة الأولى نقرأ الفاتحة، وبعد التكبيرة الثَّانية نصلِّى على النَّبى، مثل الصَّلاة التى نصلِّيها عليه فى التَّشهد الأخير من أى صلاة.

النَّاس يقفون مثل تماثيل متَّسخة، وسَّخها هباب الحريق الذى بقوا طوال الليل يحاولون إطفاءه، وألجمت مشاهد النَّار، وهى تحطِّم من غير رحمة تدابير الإنسان، ألسنتهم، وعيونهم الزَّائغة كانت تشى بأن عقولهم أيضا قد اعتقلت.

- بعد التَّكبيرة الثَّالثة ندعو للميّت، ادعوا لزوجة عمِّنا "سعدون" بالرَّحمة والغفران، وأن يدخلها الله الجنَّة من غير سابقة عذاب، "جميل" طفل صغير، لم يفعل شيئا بعد يغضب الله، ادعوا لأمِّه، وبعد التَّكبيرة الرَّابعة ندعو لأموات المسلمين جميعا.

واستدار "مزيد"، كانت المحَّفة قبالته، وكانت العصافير تصدح، وقال: الله أكبر.

قالها بصوت متحشرج، ولم يقل أيَّة تكبيرة أخرى، فلقد وقف يرتج، وسمع النَّاس نشيجه، وكانوا يسمعون أنين "سعدون"، وكان "مزيد" واقفا أمام المحفَّة، يسمع صوت "جميل" فى صلاة عشاء هذه الليلة المقيتة، ويراه وقد جلس بجسده الصَّغير فى باطن المحراب، يردِّد بانسجام كلمة "أمَّاه"، كان "جميل" يعجبه صدى صوته فى المسجد، ولم يهتم بأن النَّاس يصلُّون، وأن "مزيد" يقرأ القرآن، فأخذ يردِّد منغِّما صوته الوديع: "أمَّااااه".

فوجئ المُصلُّون بإمامهم يميد، ثم يسقط وهو ينتحب، ويقع على جنبه، ويردِّد بصوت يطلع من أنفه، ومن فمه الذى امتلأ دموعا: لا إله إلّا الله، لا إله إلّا

الله، الولد يدخل المسجد حيًا فى صلاة العشاء ونُصلِّى عليه ميتا محروقا فى صلاة الفجر!!

كان "سعدون" ينوح، عندما خرجت المحفَّة من باب المسجد، تعوم على أكتاف النَّاس، والنَّاس يملأون المتَّسع أمام المسجد، لكنَّهم بدءوا يتحرَّكون خلف المحفَّة، والصَّمت بليغ، إلا صوت الجلابيب تخبط فى السِّيقان، وصوت الخفاف وهى تدك الأرض بسرعة، مهرولة نحو الجبَّانة البعيدة، التى تبعد عن "الوعرة" أكثر من خمسة كيلو مترات، وصوت أنين "سعدون" الذى خفت، وكان نور الصَّباح قد سطع، والشَّمس تطفو فوق الأفق البعيد، تملأ مئات العيون التى تتَّجه نحو عملية دفن مرهقة.

*****

لحظة لن ينساها الولد "سليم" طوال حياته.

يحب "سليم" النَّحت، فيجمع قطع الحجر الجيرى، المتخلِّفة عن عمليات بناء أسوار المزارع والبساتين، وينحتها.

ويستهويه النَّحت كثيرا لمَّا يكون فى المراعى البعيدة فى قلب الصَّحراء، يترك أخويه "سالم" و"سلمان" يتابعان الغنم، ويجلس فى ظلِّ حجر كبير، أو ظلِّ شجرة، يخرج سكِّينا ومسمارا، وقطعا من حديد هيَّأها لعملية النَّحت، ويجلس ينحت.

ينحت ما يعن له، ذئابا، كلابا، وجوها لأناس فى مخيِّلته، وينحت أيد بشرية، وأقداما أيضا، وعندما غلظ صوته، وجسمه تمدد وانبسط، نحت ثديا ناهدا.

فى مرَّة صحا من نومه سعيدا، وأخذ يحاول تذكُّر سبب سعادته، كان ثمَّة حدث جرى فى منامه أجرى البهجة فى قلبه، وتذكَّره، لقد ضم البنت "سكيرة" فى منامه، وقبَّلها، وكان جسدها طريا، وشفتاها حلوتان، حلاوتهما بقت طويلا على شفتيه، وحول لسانه.

وفى المرعى، رأى الصَّحراء غير الصَّحراء، كانت ألطف، والأغنام ليست هى الأغنام، كانت أطوع، ولم يكن "سلمان" ولا "سالم" هما "سلمان" و"سالم"، كانا ودودين جدًّا، وحجر الجِيِّر يتشكَّل بسهولة مثل ماء، وفى أقل من ساعة، كان قد انتهى من نحت تمثال جديد.

لكن جسمه كان مرتبكا من أثر الضمَّة التى كانت فى المنام، ويشعر بلحم "سكيرة" الطَّرى دافئا بين ذراعيه، والقبلة التى مازال لهبها يضطرم فى شفتيه، ما هذا الذى نحته؟!

ما هذا الخدر الذى يسرى فى...

هواء الصَّحراء اليوم خير، يحمل برودة تنشِّط الجسد، حتى الشَّمس أشعَّتها ليس لها هذا الوهج الذى يكاد يعمى الأبصار، وإنَّما نور ربانى يجعل الرُّؤية ممتعة.

تتسحَّب يد "سليم" إلى المكان الذى بدأ الخدر يلهبه، بين ساقيه، وأمسك بالمنتصب، وكانت لذَّة عارمة، لكنَّها مخيفة أيضا، شعر أن مزيدا من اللذة يحدث عندما يحرك أصابعه، يدلك بها هذا المنتصب، وكانت متعة أقوى، واشتد الخوف، كان ما يخيف "سليم" هو عدم معرفته بما يحدث، وكيف

سينتهى، لكنَّه فجأة نزع يده بسرعة، كان "سلمان" يأتى من عند الأغنام، يجر عصاه على الرِّمال، يصنع بها خطًّا يتلوَّى مثل حيَّة، ويتصاعد منه السَّفيف.

- إيش سوِّيت اليوم يا "سليم" بالحجر؟

كان "سليم" يعانى من الارتباك، جسمه متأجِّج بشىء مجهول، ويخشى أن يطل هذا المنتصب من بين طيَّات ملابسه، فيراه "سلمان" ويفضحه، فزعق بصوت قلق: ماذا تريد؟ إذهب يا "سلمان" لرعى الغنم مع أخيك، الغنم يمكن تهج فى الصَّحراء.

لكن "سلمان" رغم صغر سنِّه كان يشعر أن أخيه الكبير يحاول إبعاده عن شىء ما، ولصغر سنِّه ما كان ممكنا له أبدا أن يتوقَّع هذا السَّبب، فأمسك بالتمثال الذى نحته "سليم"، وبحلق عينيه، ثم قال وهو يقلِّبه بين يديه: ما هذا؟

كان النَّحت يشبه ثعبانا ليس له رأس، وإنما له ذيلان، لقد نحت "سليم" شكل حركة "الدِّفان" تحت سطح الرَّمل.

قال "سليم": هذا تمثال الرِّيح، أنا نحتُّ الرِّيح.

وضحك "سلمان" وهو يلقى التمثال على الرِّمال السَّفيفة، وقال: الرِّيح! لا أحد يمكنه أن يرى الرِّيح لينحت شكلها.

وقال "سلمان" وهو يجر عصاه خلفه، ماضيا نحو الغنم: تمثال شكله سيئ.

وقال وهو يبتعد: أنا أعرف لماذا تريد إبعادى، معك شىء تريد تأكله وحدك، التُّوت، لابد هو التُّوت.

وابتعد "سلمان"، وقام "سليم" ومضى إلى النَّاحية الأخرى حيث الصُّخور العملاقة غريبة الأشكال، والنَّار تأكل ما بين ساقيه، واختبأ خلف أوَّل

صخرة، وجلس على الرِّمال النَّاعمة، رمال لم يجلس عليها قبله بشر، وأسند ظهره إلى جزء من الصَّخرة أملس، ودفع يده تحت ثيابه، حيث صخرة صغيرة ناتئة أسفل سرّتِه، وأخذ يحرك أصابعه يتحسَّسها، كان الدَّم يتدفق فى كل عروق جسده، وكانت يده تلف أصابعها الخمسة على الصَّخرة المستطيلة، وتشتد رويدا رويدا، غادرت حالة التَّحسُّس واللمس، إلى حالة الدَّعك، ولذَّة النَّار تضطرم، وتغيم الصَّحراء، وتتبدَّى "سكيرة" عارية، ويراها ممدَّدة فوق سرير أبيه "بكير"، رافعة ثيابها عن جسد لا يعرف كيف يعامله، كانا صغيرين، هى فى الخامسة من عمرها، وهو فى التَّاسعة، وكان يريد أن يعمل معها، مثلما يعمل أبوه "بكير" مع أمِّه "ثريَّا"، ولم يعرف.

"سكيرة" تتَّجه إليه طائرة على الرِّمال، عارية، بجسد منساب مثل طائر البط الذى يطير بعيدا فى السَّماء، وعندما يتعب يسقط فى الصَّحراء ليموت ميتات عديدة، إعياء، أو عطشا، أو افتراسا، "سكيرة" جميلة، مثل هذه الطُّيور البيضاء، وأجمل وهى عارية، ومتمدِّدة على الرِّمال الحريرية بجواره.

يشتد الدَّلك، الثِّياب تضايقه، فيُخرِج هذا المنتصب، فيراه أمام عينيه مثل ذؤابة لهب منحوتة من الصَّخر الأحمر البرَّاق.

لماذا يشعر الآن أنَّه يجيد لعبة الجسد؟! ينقض على شفتىّ "سكيرة" ويأكلهما، والسَّماء فوق صافية، زرقاء، و"سكيرة" تحته مزلزلة، ومملوءة بالعواصف، وهو يفور مثل الماء المغلى فى مراجل الفخَّار، وعلى المنتصب مثل ذؤابة اللهب المتحجِّرة أن يعرف طريقه نحو ماء الآبار، وعرف طريقه، ونظرت الصُّخور الضَّخمة الشَّاهقة إلى جسد تضطرم فيه النِّيران، ولا يموت.

تزداد سرعة الدَّلك، ما هذا؟ أى شىء هذا القادم؟!! تتشنَّج الساقان، الرأس يرتفع، الوجه يقابل السَّماء، الأسنان تنغرس فى الشَّفتين، العينان

غمضتا لكنَّهما تريان الدَّبيب الذى لا يُرى، ريح عاتية تضرب كل خليَّة فى الجسد المتشنِّج.

اليد صارت مجنونة، ولهب النَّار المتحجِّر يزداد تأجُّجا، القادم! القادم! القادم!

وتدفَّق لبن من طرف ذؤابة النَّار، لبن طار فى الهواء مثل قذيفة، وصرخ "سليم"، ركبه الرُّعب، فقفز يريد الوقوف، لم يتمكَّن، يده تفترس اللهب المتحجِّر، لا تريد تركه، يسقط "سليم" على جنبه، فيثور غبار الرَّمل، ويتدفَّق نهر اللبن، ويخور "سليم"، ثم تتوقَّف اليد فجأة، فيخطفها "سليم"، وينظر إلى ما بين فخذيه، ما ظنَّ وقتها غير أن عضوه قد جُرح، وهاله الدَّم أن يكون أبيضا.

لحظة لن ينساها الولد "سليم" طوال حياته.

7

فى السَّماءِ طيورٌ مهاجِرةٌ

أعدَّ "حجيزى" زاد رحلته الأخيرة إلى "موط"، يعرف أنه حتى لن يصل إلى "موط"، يلزم ما هو أكثر من ثلاثة أيام للوصول إلى هذه البلدة، وهو ليس متبقيا له من أيام الحياة غير ثلاثة أيَّام، الرُّؤيا تؤكِّد ذلك، الرُّؤيا جاءت مفسَّرة بكل وضوح، ثلاث تمرات كان يأكلها، وقال المُعبِّر فى داخل الرُّؤيا: ثلاثة أيام وتموت يا "حجيزى".

لن يصل إذا إلى "موط"، لكنه سيصل إلى شجرة "البرتقال"، وسيفشل كل ما يخطِّط له، لو لم يصل إلى هذه الشَّجرة.

لا يريد أن يُدفَن، وفى نفس الوقت، لا يريد أن يُترَك على وجه الأرض فتأكله الكلاب، أو تنهشه الوحدة، لا يهرب "حجيزى" من الدَّفن، سوى لأنه الوحدة الصِّرف، وهو يحب الونس، ولن يقبله الأحياء بينهم، لو أنه تعفَّن، لو استطاع التخلُّص من التعفُّن، لن ينفر منه الأحياء، وسيتركون جسده بينهم، وإذا كان الخلاص من الموت مستحيلا، فالخلاص من الدَّفن ممكنا، لو أنه أحسن تنفيذ الخطَّة.

- لو أن ولدى "بكير" كان شجاعا، وتعلَّم منى صنعة التَّحنيط، كان نفعنى، لكن قلبه مثل قلب فأر.

لن يأكل شيئا أبدا، فقط سيسف مطحون القرض، ولن يشرب ماء إلا بالقدر الذى يسمح بابتلاع هذا المطحون العلقم، فالماء مصلحة لأجساد الأحياء، لكن إذا مات الجسد، صار الماء مفسدة له، وعندما يصل إلى شجرة البرتقال، لابد من أكل ولو ثمرة واحدة، يريد إذا مات أن يعبق جلده برائحة البرتقال، الأحياء سيحبُّونه أكثر وهو يفوح بعطر البرتقال.

- قل لى يا "سعدون"، ماذا لو أن الميّت ما أخرج الرَّوائح العفنة، وأخرج رائحة البرتقال؟

كان "سعدون" ممدَّدا عريانا، إلا من لباسه الدَّاخلى الطَّويل، الذى يدارى من أسفل سرَّته المختبئة بين ترهُّلات لحم بطنه، وحتى أسفل ركبتيه، فى الماء الدَّافئ الذى يملأ الحوض المقام فوق هذه البئر السَّاخنة، وكان "حجيزى" غاطسا مثله فى الماء حتى الرَّقبة.

- كيف يُخرج الميَّت رائحة البرتقال يا "حجيزى"؟

غمغم "حجيزى": مالك أنت؟! لكن لو أخرج الميّت رائحة البرتقال، هل ندفنه؟

أخذ "سعدون" الماء بكفَّيه، وضرب به وجهه فالتمع، قال: والله ما أجيبك إلا إذا قلت لى كيف يمكن للميّت أن يُخرج روائح البرتقال.

كانت بجوار العين السَّاخنة، شجرات برتقال متراصَّة فى شكل نصف دائرى، كأنَّها تحيط بالعين، تدارى المستحمِّين، وكانت عصافير تتنطط بين

الأغصان، والشَّمس فى علياء الضُّحى، تبرق فى صلعة "سعدون"، وتتوهَّج على صلعة "حجيزى"، والصَّحراء منبسطة من ناحية، ومن ناحية أخرى تربض الصُّخور البالغة الضَّخامة، غريبة الأشكال، على صدرها فتهمد.

- نُطعم الإنسان قبل أن يموت برتقالا فقط.

انطلق "سعدون" فى الضَّحك، وأراد أن يستلقى، فغطس فى الماء، فقبّ وهو شرقان، يسعل ويعطس، ويضحك، ووجهه يحمر، وقهقه "حجيزى" شمتانا فى "سعدون"، لكن "سعدون" أفاق من سكرته، وقال: والله يا "حجيزى" لو سقيت الميّت عطرا، فلن يُخرج من دبره إلا فساء عفنا، هذا طبع الميّتين.

فتوقَّف "حجيزى" عن الضَّحك.

الماء يخرج رقراقا من الحوض إلى جدول صغير، يمتد خيطا أخضر فى لوحة الرِّمال الصَّفراء، يتمشَّى ناحية الزُّروع البعيدة، و"أبو قردان" وقف على حافَّته، ينقر الماء، ولا يشرب.

- من قال لك هذا يا حمار؟!!

- لا أحد. لكن الميّتين لن يكونوا فوَّاحات عطور.

- جرَّبت يا أغبى من الضب؟!!

- ما جرَّبت!! وكيف نجرِّب هذا؟!

- جرِّبه معى، أول ما تشعر أننى سأموت تأتى لى بالبرتقال، لا تجعلهم يطعموننى غير البرتقال.

- وإذا لم يكن هناك برتقال؟! المانجه تنفع؟! رائحتها حلوة يا أخى.

صمت "حجيزى" قليلا، وقال: هواى رائحة البرتقال، لكن لو جئت تموت قَبلى، سأطعمك المانجة.

زعق "سعدون": لا يا "حجيزى"، أنا أريد أن أُدفن فى قبر به لحد، سُنَّة الرَّسول يا حبيبى.

زعق "حجيزى": هذى سُنَّة الغربان يا ناصح، قالوا الغراب هو الذى علَّم الإنسان الدفَّن.

"سعدون" شهق، كان كلام "حجيزى" متهوِّرا، لكن "سعدون" قال: ولو، أنا أريد الدَّفن، كل ميِّت وراحته يا أخى!

صرخ "حجيزى": غور، براحتك، طول عمرك عفن، وستكون وأنت ميَّت عفنا أيضا.

- كان نفسى أعمل لـ"زليخة" قبرا مثل غرفة تسع اثنين، وأُدفن معها لمَّا أموت، النَّاس ما أعطونى فرصة.

وبدا "غنيمة" قادما من غرب البلد يتهادى مثل ماعز عجفاء، يخطو بين الحقول ببطء.

قال "سعدون": لكن ما تقوله عجيب، وحلو والله، جثث الأموات تفوح بعطور الفواكه!

انبسط "حجيزى" لكلام "سعدون"، فقال هاتفا: هل يدفنون موتى يفوحون بالعطور يا "سعدون"؟!

هز "سعدون" رأسه، وقال: والله ما أعرف، لكن لو لم ندفنهم، ماذا نفعل بهم؟!

قال "حجيزى": نبقيهم معنا فى البيوت، يعيشون بيننا.

وانطلق "سعدون" فى الضَّحك، وكان "غنيمة" قد وصل إليهما، فقال: السَّلام على زوج الحمام.

فقال "سعدون" وهو يغالب ضحكه: السَّلام على فرد الغراب.

وقال "حجيزى": السَّلام على العنزة الجرباء.

وقال "سعدون": كيف يعيش الأموات بيننا يا "حجيزى"، الأموات لا يعيشون!!

قال "حجيزى": الأموات يموتون فعلا لما ندفنهم، لكن لو بقوا بيننا سيعيشون، ستكون لهم أدوار أخرى فى حياتنا.

"فى بيوتنا غرف لنومنا، وغرف ينام فيها أطفالنا، وغرف لخزين غلال حقولنا، وغرف لتخزين بلح نخيلنا، وحظائر لبهائمنا، لن تضيق بيوتنا إذا جعلنا فيها غرفا لأمواتنا، ولن يزعجنا الميِّتون طالما هم فوَّاحات عطور".

"غنيمة" نزع ملابسه، ومثلهما بقى بلباسه الذى يدارى عورته، لكن عورته أطلَّت من قَطْع فى لباسه، جلدة مرتخية مدلَّاة، وقهقه "حجيزى"، ونظر "سعدون" إلى الذى كان "حجيزى" ينظر إليه وقهقه أيضا، و"غنيمة" سارع

بتحريك لباسه، فاختبأ الذى كان يطل، ودخل "غنيمة" فى الحوض، وغمر نفسه بالماء، وقال: فى مرة اشتد فقطع اللباس.

راح "سعدون" فى نوبة ضحك، عاد منها على كلام "حجيزى" لـ"غنيمة": لو كان فى فم كلبك أسنان ما كان ترك أكل العظام، بتاعك يقطع اللباس!؟ كنت تزوَّجت يا ابن الكذَّابة.

- ما كان يمكن أتزوَّج بعد المرحومة. كم مرة قلت لكم ما يمكن أتزوَّج بعد المرحومة.

قال "غنيمة": لو أن الميِّتين يفوحون بالعطور ما كنت دفنتها، وما كنت سأضعها فى غرفة تكون للميِّتين فى البيت، كنت بقيت أنقِّلها معى فى كل مكان من البيت، كنت جعلتها تعيش وهى ميِّتة.

كان "سعدون" يخرج من حوض المياه، والماء ينسحب من على ثنيَّات جسده، ويعود فى شلَّالات صغيرة إلى الحوض، واللباس يلتصق بإليتيه وفخذيه، فيبدو بياضهما المشوب بالحمرة، قال "سعدون": أنت تظن هذا الآن، لكن كنت ستزهق منها، وربما كنت ستنساها فى حظيرة الغنم.

كركب صوت "غنيمة"، عاليا غاضبا: أغلق فمك يا "سعدون، كيف أنسى "لبنى" فى حظيرة الغنم، ما تتكلَّم كلمة أخرى.

لم يتكلَّم "سعدون"، وكان يلبس جلبابه، والعصافير تتنطَّط بين أغصان شجر البرتقال، وقرادين كثيرة بدأت تتجمَّع على ضفَّتى الجدول الأخضر الصَّغير، المنطلق فى بحر الرمال.

*****

ليل الصَّحراء، سماء بالغة السَّواد، ونجوم ساطعة التَّوهج، ثم لا شىء يبدو بوضوح، فقط بيوت "الوعرة" القديمة تتلاصق مثل نعاج نائمة، تبدو بشحوب يكاد يُخفيها، والمسجد بقبَّته الأقرب لبيت "حجيزى" يبين خيالا، فى هذا الظَّلام، كانت البقعة المضيئة أمام البيت تظهر كأنها قطعة من نهار قادم، وكانت اللمبة "العويل" داخل البيت تصب النُّور بلا ملل.

انتهى "حجيزى" و"غنيمة" و"بكير" من الطَّعام، ورُفعت الطَّبلية، وجاء الشَّاى فى كوبين من زجاج أصفر غير نقى، وجلسا على المصطبة يرشفانه.

- تعيش حياتك يا "غنيمة" لا تكف عن الكذب، كنت أنت الذى تعمل فى قطارات الإنجليز.

سكت "غنيمة"، ورشف الشَّاى، ثم نظر فى وجه "حجيزى" وانطلق يقهقه.

جاء "بكير" يحمل كوب شايه، وفى ذيله جاء "سليم" و"سالم" و"سلمان"، قال "بكير": العيال يريدون سماع بقيَّة حكاية العصفور الذى ركب القطار.

ابتهج "غنيمة"، وقمر مكتمل أحمر ضخم، بزغ فجأة فى أفق الشُّروق، يتسلل صاعدا بين النَّخيل.

- الخواجة الإنجليزى عمل بيتا من خشب للعصفور، بيتا كاملا، مثل بيوت المدن، فيه غرف كثيرة، وفيه كنيف! وتركه مفتوحا، ووضعه فى ركن من أركان عربة "البولمان"، العصفور نط من الكرتونة، ودخل البيت يهز رأسه، وأخذ يأكل من حبَّات القمح المكوَّمة فى غرفة الطَّعام، وترك الخواجة باب العربة مفتوحا، وأخذ يراقب العصفور، هل سيطير ويهرب، أم سيبقى، العصفور بقى، بعد قليل طار، وخرج من الباب، والخواجة حاجباه انثنيا،

ورسما حزنا على وجهه، وطلب منى ليمونا، وجلس ينظر إلى بيت العصفور، لكن فرح جدا لمَّا رأى العصفور يعود، وعصفور آخر يطير خلفه.

أنا كنت أتيت بعصير الليمون، وعيناى على بيت العصفور، فوجدت عصفورين، قلت: صارا عصفورين يا خواجه.

قال لى: عصفور وعصفورة يا ولد.

وصافرة القطار شرخت ضجيج محطة "أسيوط"، وتحرك القطار، وعاد العصفور إلى "الخارجة" معه عصفورة!!

"سلمان" قال: لما وصلا طارا وتركا القطار؟

- ما تركا القطار أبدا، صارا يسافران مع الخواجة وأصحابه المهمِّين، وباضت العصفورة فى حجرة النَّوم.

علت قهقهة "بكير"، وضحك العيال الثَّلاثة، ولوى "حجيزى" شفتيه مستغربا الحكاية.

- كأنَّك ما تصدق الحكاية يا "حجيزى"!؟

- طول عمرك تقول حكايات، تخلط الجد بالهزل.

- لماذا لا تصدِّق؟ الإنجليز حركاتهم عجيبة، يتركون بلادهم ويأتون بلاد النَّاس يحتلُّونها، تصرُّفاتهم عجب، ما أعطانى قمحا آكله أنا وولدى، لكنَّه أعطى العصفور قمحا، تعرف؟ هذه العربة امتلأت بالعصافير، وبزاقها غطَّى الكراسى والمناضد، ما عدت أنا ولا العامل النُّوبى قادرَين على متابعة تنظيفها، بقى فى العربة ألف عصفور أو أكثر! وبدلا من طرد العصافير، ركنوا عربة القطار "البولمان" الفاخرة، على شريط سكَّة حديدية جانبى، بعيدا عن محطِّة

"أسيوط"، أنت مستغرب هذا؟! وعيَّنوا عليها حراسة لكى لا يجرؤ أحد على إزعاج هذه العصافير.

*****

تجمَّع الرِّجال حول بئر "الرَّاهب"، وجذبت النِّساء المولولات "منيرة" ناحيتهن، كانت تصرخ، وتخمش الأرض بأصابع يديها، لا تريد البعد عن فتحة البئر، وكان "سعدانى" ينهرها ودموعه تهطل، ثم صفعها على صدغها، فسكتت ذاهلة، وتركت الأرض، وانصاعت لجذب النِّساء.

الغراب يقف بين سعف إحدى النَّخلتين، يشد رقبته وينعق، ووقف الرِّجال يحاولون حل المشكلة، كيف يخرجون جثَّة الولد "صالح"، المحشورة حشرا فى أعماق نبع يميل فى الأرض بضيق شديد، لا يمكن لأقل الرِّجال جسدا وأنحفهم النُّزول، كان الحزن يعظم فى قلب "سعدانى"، الولد مات، ثم لا يستطيع إخراج جثَّته!

الشَّمس تتَّجه للمغيب، و"سعدانى" يتَّجه نحو الجنون، يخلع ملابسه، وصرخ: أنزل البئر، ولدى لا يبقى فيه، أدفنه يا ناس مثل النَّاس فى قبر.

لكن الرِّجال أمسكوه، فلم يستطع خلع المزيد من ملابسه، صرخوا فيه: كيف تنزل بئر النَّحس هذا؟ ما تستطيع؟! لو ينفع كان نزل عيِّل من عيالنا!

وصوت "غنيمة" كركب: هاتوا حبل "بطان" واربطوا فى آخره خطَّاف، وندلِّيه فى البئر، يمكن الخطَّاف يعلق فى ملابسه، ونجذبه.

”حجيزى“ يقف على حافَّة البئر، والنَّخلة وقفت عليها غربان كثيرة، لكنها لا تنعق، ترفرف بأجنحتها، لتتفادى السُّقوط من زحمة الغربان، وولولة النِّساء الخافتة الرَّتيبة، تقطعها صرخات ”منيرة“ الملتاعة، وكانت النَّخلة الثَّانية تستقبل وفودا من غربان جديدة تأتى من قلب الصَّحراء.

”حجيزى“ ينظر فى ظلام البئر، ويرفع وجهه ينظر فى وجوه النَّاس، وفى وجه ”سعدانى“.

”ماذا يريدون؟! لماذا يحرصون كل هذا الحرص على إخراج الولد؟! يريدون دفنه فى التُّراب؟! ليتركوه مدفونا فى بئر تجرى فيه المياه؟ الماء أم التُّراب أجمل بالنسبة لميِّت؟ لو سألوا الولد وأجابهم، سيقول لهم ابقونى فى المياه، هم يريدون إخراجه لتدور عجلة حياتهم، ليجلبوا الماء لهم، يدفنون الموتى، لكى لا ينشغلوا بهم، يريدون العيش من غير منغِّصات قد يصنعها الموتى، ليست هناك مشكلة عندهم لمَّا يصنع الأحياء المشاكل، لكن الموتى!“.

أنزل ”فُتحَة“ الحبل المنتهى بشص ضخم إلى البئر، وجذب قليلا، من خفَّة الحبل أدرك أن الخطَّاف لم يعلق بجثَّة الولد ”صالح“، دلَّى الخطَّاف وأخذ يحرِّكه، وجذب، هذه المرَّة شعر بثقل، جذب أكثر، كان الثِّقل يزداد وزنا، ولم يكن الحبل يتحرك، كانت الجثَّة محشورة بقوَّة، وعندما جذب جذبة قوية، انفلت الخطَّاف بعد أن مزَّق قطعة الملابس التى كان قد علق بها، ارتفعت أصوات ناهرة: بالرَّاحة يا ”فتحة“.

شمس المغيب فى أفق الصَّحارى تنشر الشَّجن، مغارب الرِّمال مغموسة فى الخشوع، والصُّخور الضَّخمة غريبة الأشكال هناك مثل نساء الجن تتشح بالسَّواد، والغربان زحمت النَّخلتين، تبزغ صرخة لـ "منيرة" الذَّاهلة، وتبزغ نعقة لغراب يستعد لاستقبال الظَّلام، وبئر "الرَّاهب" تعيش لحظات حدث تحرِّكه أقدار مبدعة، تبدع فى رسم لوحات الألم.

الحبل يصعد رويدا رويدا، ببطء شديد، عيون الرِّجال تركَّزت على فتحة البئر، ينتظرون وصول ضحيَّة الموت الجديدة، تحتك الجثَّة الصَّغيرة فى جوانب البئر، وعندما شارفت على الوصول، علت شهقة "سعدانى"، ثم تنفَّس بآهات تختنق: آآآآآه، آآآآآه.

الموت مؤلم، كيفيَّته فى كثير من الأحيان أشد إيلاما، وأحيانا هناك ما هو أشد إيلاما بكثير من الموت وكيفيَّته.

كانت الجثَّة الصَّغيرة تصعد إلى حافَّة البئر، وقد نكت الخطَّاف نصله فى إحدى عينى رأسها.

*****

قال الشَّيخ "علوان": القبر أوَّل منازل الآخرة.

وقال: إما يكون روضة من رياض الجنَّة، أو حفرة من حفر النَّار.

وقال: وكان سيِّدنا "عثمان بن عفَّان" يسمع أهوال الآخرة صامتا، لكن إذا ذكَر القبر بكى.

"الكلوب" يضيئ بالنُّور الخافت، والنَّاس قبل إقامة صلاة العشاء يسمعون، سيرة الموت والقبور تشغف قلوبهم، كأنَّها حكاية مسلِّية، فالحياة فى واحة "الوعرة"، مثلما فى أى واحة من واحات الصَّحراء، رتيبة، وينخر فيها الملل، كلام الشَّيخ "علوان" تسالى، يقول حكايات عجيبة عن رسول الله "محمَّد"، وحكايات غريبة عن حروبات دارت بين المسلمين والكفَّار، وقصص حلوة عن جنَّة فيها ما تشتهى الأنفس، يطلب الإنسان ما يتمنَّاه، فى غمضة عين يكون أمامه، وأعجب العجب من أحوال الجنَّة طعام أهلها، وأغرب الطَّعام لحم الطير.

قال الشَّيخ "علوان"، وهو يبتسم ابتهاجا: يكون الطير يرفرف فى سماء الجنَّة، طير الجنَّة أجمل من أى طير ترونه يطير فى سمائنا، فيشتهى الواحد منكم يأكل منه، فينزل الطَّائر بسرعة النَّجم وهو يسقط، ترون النَّجمة وهى تسقط؟ يسقط الطَّائر بأسرع منها بين يديك، ينزل مشويًّا كأطيب ما يكون الشِّواء، فيظل الإنسان يأكل منه، حتى لمَّا يشبع، ويحمد الله، يعود الطَّائر حيًّا، وينطلق مرة أخرى إلى سماء الجنَّة.

وارتفع صوت "حجيزى" مندهشا: يا شيخ!؟

قال "علوان" باسما: ما تصدِّق يا "حجيزى"؟

- أصدِّق، عندنا فى الأرض عجائب، فلم لا تكون فى السَّماء عجائب، لكن الطَّير هذا فى الجنَّة لمَّا آكله يكون حيًّا؟!

قال الشَّيخ "علوان": كيف يكون حيًّا وأنت تأكله يا "حجيزى"؟! يكون مشويًّا.

- أنت قلت إنه سيطير بعدما نأكله!

قال الشَّيخ "علوان": الله يحييه مرة أخرى فيطير.

هز "حجيزى" رأسه زهقا، وزعق: أنا لن أستطيع أكل طير أعرف أنه سيحيا بعدما انتهى من أكله! كأنى آكله حيا!

سكت "علوان"، لا يجد كلاما، لكن "حجيزى" أكمل: أنا أريد زوجتى فى الجنَّة، تمسك الطير، وتذبحه، وتسوِّيه، وآكله، وأمص عظامه، ثم أرمى ما تبقَّى منه لكلب "غنيمة".

وارتفعت أصوات ضحكات المنتظرين لإقامة الصَّلاة.

- نسيت اسم صاحب رسول الله الذى قال "علوان" إنه يبكى لمَّا تأتى سيرة القبر.

- عليه الصلاة والسلام، اسمه "عثمان بن عفَّان" يا "حجيزى"، كيف تنساه وجَدَّه أصل جَدِّك ؟!

كان "حجيزى" قد تمشَّى حتى بيت "سعدون" بعد أن تناول العشاء، ذهب يسلِّم عليه بعد أن عاد هو وزوجته "زليخة" من رحلة السَّفر الطَّويلة إلى "أسيوط".

ليالى الصيف فى الصَّحراء ساحرة، و"حجيزى" الصَّديق الأعز لـ"سعدون"، و"سعدون" يعتبر "حجيزى" صاحب بيت، لذلك لا يستقبله فى الـ"مندرة"،

وإنما يدخل به إلى عمق البيت، يحمحمان بصوتيهما، حتى تنتبه "زليخة" لدخول "حجيزى"، و"زليخة" تنتبه، فيعلو صوتها بعبارات التَّرحيب، وهناك فى "الوسعاية" أمام حظيرة "الغنم" يجلسان على قطعة من صوف النِّعاج، يتبادلان الحكى، فى انتظار الشَّاى، وأروع ليالى صيف الصَّحراء، هذه الليالى التى يسبح فى سمائها قمر مكتمل يصب النُّور، وكانت هذه الليلة من أروع الليالى.

- "عثمان بن عفَّان" هذا مثلى، ما يحب الدَّفن، قال "علوان" إن سيرة الموت ما كانت تزعجه، لكنَّه كان يبكى لما تأتى سيرة الدَّفن، إعرف يا "سعدون" أن الموضوع يضايق كل من عنده إحساس.

وقال "سعدون": أنا والله عندى إحساس، وأحب الدَّفن، ابن آدم إذا مات صار عورة، وكرامة العورة سترها، الدَّفن سترة يا "حجيزى".

مأمأت ماعز تطل عليهما من خلف باب الجريد، نشَّطها الونس.

وجاءت "زليخة"، وأعطت لكل منهما كوبا، وقالت: واه يا عم "حجيزى"، الدُّنيا "أسيوط"، نحن فى هذى الرِّمال ما نعيش دنيا، دنيا "أسيوط" حلوة.

"حجيزى" له طريقة فى رشف الشَّاى، تخصُّه وحده، النَّاس يرشفون الشَّاى رشفات طويلة، وهو يخطف الرَّشفات خطفا، وخطف "حجيزى" رشفة شاى، وقال: تحبين الهرج والمرج يا بنت النَّاس، واحتنا نعيمها الهدوء.

قالت "زليخة": "أسيوط" ونس، و"الوعرة" وِحدة، أنا أحب الونس.

واستدارت، وغابت.

"حجيزى" بحلق عينيه، و"سعدون" نظر إليه بعينين متسائلتين، فخطف "حجيزى" رشفة شاى، وهمس: الونس! امرأتك تحب الونس.

صفَّق "سعدون" بيديه، ثم فرك كفَّيه ببعضهما، وعلت وجهه ابتسامة عريضة، ونظر إلى قمر السَّماء فوقهما، وقال: يا "حجيزى" الليلة جميلة، وأنا بالى رائق، ما تعكِّره بسيرة الموت، أريد أحكى لك ما حدث عند الطَّبيب، ستموت من الضَّحك، طبيب ابن كلب، قليل حياء.

وغطس "سعدون" فى الضَّحك.

*****

"غنيمة" قال: همّى فى قلبى، وأنا فوق سنام ناقتى، والكلب يمشى وراءها، النَّاقة لا يلفت نظرها شىء، فقط تنظر إلى الأمام، إلى الدَّرب الذى لا نهاية له، بينما الكلب يترك المشى خلفها أحيانا ليناوش حرباء، أو يقفز خلف ورن، النَّاقة تتهادى صامتة، لكن الكلب ينبح أحيانا، وأحيانا يعوى، أقلِّب بصرى فى وسع الصَّحراء، وقلبى يدق بعنف القلق، سافرت كثيرا بالجمال، لكن لم أسافر أبدا بمفردى، ربما لهذا كان القلق يضرب نياط قلبى؟!

وربما لأنى كنت خائفا من ألَّا ألحق بـ"زبير"، "زبير" يقضى مصالحه فى "الخارجة" ويمضى دون أن يفكِّر أن له أبا وحيدا فى هذه الصَّحراء يجب أن يسأل عنه، فيعود مسرعا إلى البلد التى يسكنها فى "البحيرة"، يعاشر الفلَّاحين والعرب البدو.

يا "حجيزى"، "زبير" قلبه قاس، الولد يهج وسنُّه عشرون سنة، وتصير سنُّه الآن أربعين سنة ولا أراه حتى مرَّة واحدة، القلب توجَّع بموت

المرحومة، لكنه تمزَّق من جفاء "زبير"، كم مرة أقول لنفسى عش حياتك من غير فكر فيه، لكن لا أستطيع، قلوبنا تزنى بها قلوب أولادنا، فتعيش طوال عمرها مكسورة لهم.

لكن تكشَّف لى بعد ذلك أن سبب قلقلة قلبى، لم يكن السَّفر وحيدا فى صحراء مخيفة لا تنتهى، ولا كان عدم اللحاق بـ"الزبير"، لا، كان قلبى يرى ما لا أرى، كان يرى مصيبة كبرى قادمة.

الونس فى السَّفر نعمة يا "حجيزى"، القافلة غالبا تكون منجاة، إذا برز الهلاك يتكالب أهل القَّافلة على مصارعته، فيهرب النَّاس منه، وإذا لم يهربوا يموتون صُحبة، تتعزَّى قلوبهم بالموت فى ونس الجماعة، لكنك وحيدا فى الصَّحراء، تتحول إلى فريسة سهلة، وأنا تحوَّلت إلى فريسة سهلة لوحش الصَّحراء العاتى، للغرد، عاصفة الرِّمال الهائجة.

همس "حجيزى" لنفسه: تتعزَّى! ذكَّرتنى بالمعزِّى الذى لا يأتى أبدا.

- دائما ترسل العواصف نذيرها، هذه الدَّكنة التى تلوِّن الأفق، والاصفرار الذى يلوِّن السماء، ورياح تهب، ثم تعصف، لكن العاصفة التى افترستنى، هبَّت فجأة، جاءت من خلفى تزوم مثل مارد، رياح تعوى، ورمال ناعمة تطير فى الهواء بسرعة مارقة، تشرخ ما انكشف من جلد عنقى، الكلب ما لحق ينبح، طار فى الهواء أمام عينى، وكنت سأطير لولا أنى تشبَّثت بالسرير الخشبى المشدود على سنام النَّاقة، لم يكن من حل أمامى إلا أن أنيخ النَّاقة، وأختبئ فى جانبها، بذلت النَّاقة كل قوَّتها لتنيخ، وأنا عملت المستحيل لأرقد جوارها، كل هذا حدث قبل الغروب! ما رأيت فى حياتى

عاصفة تأتى فى المغارب! أظلمت الدُّنيا يا "حجيزى"، وشعرت بنفسى أدفن، الرِّمال السَّفيفة الطَّائرة كانت غزيرة، ما مضت دقائق حتى كانت الرِّمال تعلو لتدفن أرجل النَّاقة، ما كان ممكنا أن أبقى هكذا، وقفت مرَّة أخرى وأنا أتشبَّث بسرير النَّاقة، وأمسكت لجامها الذى يطير منسحبا فى الهواء كأن موجا عاتيا يسحبه، لم أكن أرى الكلب، طار كحمامة مذعورة فى الرِّيح، وما عدت أسمع نباحا له، أوقفت النَّاقة التى شعرت بالعصف يحاول رفعها من مؤخرتها، ثم أنختها مرة أخرى، كانت نهايتى تلوح بوضوح، وكنت أعافر لأهرب من خاتمة لا يحبُّها الرِّجال لأنفسهم، الدَّفن على وجه الأرض، لتأتى ضوارى حقيرة مثل الثَّعالب والضباع، فتنبش الرِّمال وتخرج المردوم، فتنهش جثَّته من غير رحمة.

كانت معركة بينى وبين الرَّدى، وما كنت أنا الذى أقود المعركة، كان يقودها "غنيمة" آخر، لم أكن أنا يا "حجيزى" الجَّالس أمامك، كان "غنيمة" آخر غير واع، يتصرَّف بقوة، لكن من غير فهم لشىء، معافرة، خاصَّة والرِّمال السَّفيفة قد أصابتنى بشبه عمى، أردت أصرخ فى النَّاقة لكى تقف على أقدامها، فكدت أختنق من كومة الرَّمل التى اخترقت فمى، والنَّاقة لا تريد القيام، كأنها استسلمت لمصيرها، وسفيف الرَّمل أخفى سيقانها تماما، ويصعد بسرعة مخيفة لردم نصفها الأسفل، نخستها بنصل الخنجر، مصيرى فى هذى الصَّحارى معلَّق بالنَّاقة، أرأيت ضعف الإنسان يا "حجيزى"، فى لحظة مفاجئة يتعلَّق مصيره بحيوان، وتصير روحه الواعية مرهونة بروح بهيمة! لمَّا نخستها بالخنجر فزعت، وهبَّت واقفة، لكنَّها ما كانت ترفع رأسها، وإنما تطأطئها من حدَّة زفيف الرِّيح، ومن كثافة الرِّمال التى تصب صبا، وما عاد بمقدرتى المعافرة، كان يمكننى التَّغلب على قوة الرِّياح، لكن رياح ورمال تصب صبا!؟ مستحيل يا "حجيزى"، أنخت النَّاقة، هذه المرَّة أنيخها

للاستسلام، وتمدَّدت ملاصقا لها، مخبئا رأسى بين ذراعى، طارت العمامة يا "حجيزى"، ما تصمد العمائم فى مثل هذه العواصف المباغتة، خبَّأت رأسى بين ذراعى، ودسست وجهى فى جسم النَّاقة، وسلَّمت أمرى إلى الله.

عرفت شيئا يا "حجيزى"، غير كل ما يقول النَّاس، عرفت أن الاستسلام لأقدارك يجلب الرَّاحة للنَّفس، لمَّا تعترف بضعفك، وتتوقَّف عن المراوغة، ترتاح!

جاءنى هذا الإحساس، وأنا أستسلم للموت، قلت لنفسى: مت هادئا، لماذا تعافر وتنزعج وتتعب نفسك فى لحظاتك الأخيرة، سلِّم يا "غنيمة"، وانظر فى حال نفسك، وتمدَّد طيِّعا لتموت، مثل خرفان الأضاحى، ستجز العاصفة رقبتك، وسترتاح.

أنا سلَّمت أمرى إلى الله من هنا، وجاء الفرج الإلهى من هنا، بقيت العاصفة، لكن من غير رمال، ثم بعد فترة وجيزة هدأ الجو، وكأنه لم تكن هنا منذ لحظات رياح الخراب تصفِّر صفير الموت.

كانت الرِّمال تغطِّى كل قطعة من ملابسى، كما أنها اندفعت إلى ما بين ملابسى وجلدى، فكنت أشعر باختناق، ولم يكن ممكنا التَّخلص من هذه الرِّمال إلا بخلع كل ملابسى ونفضها، ومسح جلدى، أخذت كمية كبيرة من الماء الذى فى القربة، ونظَّفت نفسى، لم أكن أعرف يا "حجيزى" ما سوف يجرى، لو كنت نظرت حولى لما فعلت ما فعلت، لكن ما حولى لم يلفت انتباهى، لأن الشَّمس فى غروبها كانت مختفية خلف سحابة من الرِّمال الصَّفراء ملأت السَّماء حتى الأفق، فكان الضَّوء خافتا، فلم أر ما كان يجب على أن أراه قبل استخدام كل هذه الكمِّية من الماء.

ما رأيته يا "حجيزى" كان هو الموت نفسه، فما هو الموت إن لم يكن إحساس باليأس التَّام من أى أمل فى الحياة؟! لم يكن حولى شىء من هذه الملامح التى كانت تبدو لى قبل مجىء "الغرد"، أين الدَّرب؟ أين أشجار "العبل" الصَّغيرة؟ أين الصَّخور النَّاتئة من الأرض الرَّملية الصَّلبة؟ لا شىء سوى رمال ناعمة ليس عليها أى أثر، كأن الصَّحراء قد تم تجديدها، فعادت كأنها لم يمسسها بشر، ولم أعد أعرف أين الطريق، وبدأت أعرف أن الموت قادم لا محالة، كانت السَّماء متعفرة بلون الرِّمال القانى، وليس هناك ثمَّة شىء يصلح علامة للاهتداء.

أين الكلب؟!

*****

"سكيرة" جلبابها ملَّون بزهور وضَّاءة، وتمشى بين بنات تلوَّنت ملابسهن بقلوب خضراء وحمراء وصفراء، وبأشجار عجيبة ألوانها بنفسجية وزرقاء، وورود لا يرى "سليم" مثلها أبدا فى الصَّحراء، يمضين بوداعة، وضحكاتهن تميس وتتدلَّه، وراء قطعان الغنم التى تضامَّت فى قطيع واحد كبير، تتابعه عدَّة كلاب.

قلب "سليم" اختلف، لم يعد هذا القلب الذى لا يهتم بالبنات، وإنما صار قلبا يرتبك لرؤيتهن، ويئن لرؤية "سكيرة" بالتَّحديد، ويتعجَّب "سليم": "سكيرة"!!

و"سكيرة" نفسها ما عادت تنظر لـ"سليم" بنفس العين القويَّة، لأن قلبها اختلف أيضا، ما عاد هذا القلب الفارغ إلا من لهو الطفولة، وإنما صار ينشغل بصورة ولد اسمه "سليم"، وكلَّما رأته انكسرت عيناها، ودق قلبها،

فتشعر بجسدها كله يتزلزل، وتتخيَّل أن كل من حولها يكشف حالها، فتروح فى دوَّامة كبيرة من الخجل، ومن غير رغبة منها تتذكَّر ما حدث بينها وبين "سليم" لمَّا كانا مجرد طفلين.

كان ضُحى، وحرارة صيف، و"ثريَّا" عند الفرن مشغولة بالخبيز، و"سريرة" تجلس على "الدِّكة" تهش بعصاها العصافير التى تحوِّم حول الأرغفة العجين المرصوصة على فراش كبير نُثرت عليه الردَّة التى تتبقى من غربلة الدَّقيق، وكان "سليم" يتسلَّل إلى غرفة "بكير"و"ثريا"، وهو يسحب خلفه البنت "سكيرة"، ولمَّا دخلاها، أغلق "سليم" بابها.

- اقلعى.

كان قلب "سليم" يدق بقوَّة، وكانت "سكيرة" مرتعبة، لكنَّها خلعت سروالها الدَّاخلى، وتمدَّدت على السَّرير من غير صوت، وتمدَّد فوقها "سليم"، وفقط.

وسقط فى دوَّامة حيرة، ماذا يفعل؟! وسأل نفسه: ماذا كان يفعل أبى مع أمِّى فى ليلة أمس، لماذا كانت أمِّى تئن وتتأوَّه؟ لم يكن أبى يضربها؟ كيف يضربها وهو يقول لها كلاما حلوا!؟ كان كلامه عجيبا، وكان يشخر، وكان يئن أحيانا، ماذا كانا يفعلان؟

وسأل نفسه: هل ما أفعله الآن هو ما كان يفعله أبى؟! وهل كانت أمِّى منسدحة على ظهرها من غير سروال مثل "سكيرة"؟!

"لكن أنا لا أفعل شيئا! أنا فقط ممدَّد فوق "سكيرة"، أريد أن أفعل شيئا، لكنِّى لا أعرف كيف أفعله، لو عملته لابد "سكيرة" ستئن وتتأوَّه مثل أمِّى.

نطقت "سكيرة" بصوت خائف: أريد أمشى.

نطقت "سكيرة" بما أراح "سليم"، فلقد كان بدأ يغرق فى حيرة شديدة، وكان خائفا أن تأتى أمُّه وتراهما، كانت ستكون مصيبة.

"يكفى أنها أخرجتنى من تحت سريرها هذا الصَّباح".

كانا يلعبان تحت شجرة الجميز أمام البيت، يكوِّمان رمالا متربة، وينكتان فيها قشًّا وأحجارا صغيرة، كانت أكوام "سليم" دائمًا هى الأجمل، وكانت "سكيرة" بغيظ طفولى تهدِّم أكوامها، ويضحك "سليم"، ويصنع لها أكواما أخرى يتفنَّن فى تزويقها، قال: صحوت بالليل، وشعرت بالعطش، فخرجت من الغرفة لأشرب، وأنا أمر من تحت طاقة غرفة أبى، سمعت أمِّى تتوجَّع، قلت أمِّى مريضة، شربتُ ونمتُ، لكنَّها فى الصَّباح كانت سليمة، وتهدم البيت لو أرادت، ونسيت الحكاية، لكن فى ليل آخر، صحوت وأنا أشعر بالعطش، وتحت طاقة غرفة "بكير" سمعت أمِّى تتوجع، فعدت إلى غرفتى ولم أنم حتى الصَّباح، وعندما خرجت أمِّى، رأتنى جالسا تحت التِّينة أنظر إلى باب حجرتها، كان شعرها مهوَّشا كأنَّها كانت تتعارك، لكنَّها كانت سليمة، وتهدم البيت لو أحبَّت، ويومها كرهتها.

"سكيرة" بأعوامها الخمسة تنظر فى عينى "سليم" من غير فهم، مثل يمامة من هذه اليمامات التى تقف على أغصان "الجميزة"، تهز رأسها ثم تحلِّق بعيدا.

- أنا شيطان يا "سكيرة"، كان لابد أن أعرف ماذا يفعل أبى فيجعل أمِّى تتوجَّع من غير مرض، فغافلتها فى ليلة الأمس، ودخلت حجرتها قبلها، واختبأت تحت السَّرير.

ضحكت "سكيرة"، ونظرت بعينيها نحو قبَّة المسجد، ثم انكسرت عيناها خجلا.

- مم تخجلين يا "سكيرة"؟!

- لا أعرف، لكن خجلانة!

- تحت السرير كراتين وبرطمانات وقفف مليئة بتمر وكشك، تمدَّدت وانتظرت، وكانت دجاجة ترقد أمام عينى تهز رأسها، تشعر بوجودى لكنَّها لا ترانى، الدَّجاج يا "سكيرة" لا يرى فى الليل، لكنِّى كنت خائفا من أن ترانى، ودخل "بكير"، وقلبى تخبَّط بين ضلوعى، ودخلت "ثريَّا".

ضربت "سكيرة" صدرها بكف يدها، وهمست: يا مرارى!

وضحك "سليم".

قال "سليم": ما أعرف الذى حصل! لكنِّى خفت، انطفأت اللمبة "العويل"، وفجأة أهتز السرير فوقى بعنف، ثم بدأت "ثريَّا" تئن وتتوجَّع، لكنَّها كانت مبسوطة، أنا شعرت أنها مبسوطة، وكان "بكير" يقول كلاما....، وأنا نسيت أن الدَّجاجة ترقد بجوار ذراعى، فحركته لمَّا آلمنى، فاصطدم بها، فَزَعَقَت.

توقَّف السَّرير عن الارتجاج، وتوقَّف "بكير" عن الكلام الذى لا أفهمه، وتوقَّفت "ثريَّا" عن التَّوجع، وساد صمت لبرهة، قبل أن يتساءل "بكير": ما هذا؟!

قالت "ثريا": دجاجة تحت السَّرير.

- أنا أعرف أنها دجاجة يا نبيهة! لكن لماذا تزعق الدَّجاجة؟

- ربما أفزعها فأر.

- "بكير" صحا فى أذان الفجر، كان ناسيا فخرج من الغرفة، لكن "ثريَّا" نظرت تحت السَّرير، كنت قد نعست، وشهقتها الفزعة أيقظتنى، ثم مدَّت يدها وجذبتنى، فخرجت الدَّجاجة من تحت السَّرير تصيح، وهى تقفز هلعا فى أركان الحجرة.

قال "سليم": أنا ما عرفت ماذا يفعل أبى فيجعل أمِّى تتأوَّه، لو عرفت كنت جعلتك يا "سكيرة" تتأوَّهين مثلها.

واحمر وجه "سكيرة" الذى يشبه وجه قطَّة، وكان الضُّحى يزول، وقيظ الصيف يبقى، وشجرة "الجميز" تزوى ظلالها.

*****

"بكير" يُحكم ربط أجولة التَّمر على ظهر ناقته، والنَّاقة المنيخة يرتج جسدها من عنفوان "بكير"، وتميل رأسها الشَّامخ تنظر إلى ما حولها، وهى تجتر شيئا من طعام فى فمها، فيسيل من شدقيها سائل أبيض لزج، كان "حجيزى" قد وقف بجوار "المصطبة" الصَّخرية يمعن النَّظر فى "بكير".

تأمَّل يا "حجيزى"، هذا "بكير" ولدك، عشت معه عمرا طويلا، والآن ليس لك من أيام تعيشها معه سوى يومين ونصف! تأمَّله يا "حجيزى"، أنظر، يشد الرباط بقوة محب للحياة، لكن.. أنا لا أتذكَّر ملامح وجهه بالضَّبط! لون عينيه أسود أم بلون الشاى؟ ما رأيت أذنيه منذ كان صغيرا، على الرُّغم من أنهما تطلَّان دائما من أسفل عمامته، الولد "سليم" يشبه "بكير"، و"بكير"

يشبهنى، "بكير" يشبهنى فى الشَّكل فقط، لكنَّه لا يفكر لا فى موت، ولا فى دفن، هو يعيش الحياة، لماذا لم تعش الحياة يا "حجيزى" مثلما يعيشها ولدك، ماذا أخذت من تفكير طوال عمرك فى قضية لن تفيدك كثيرا بعد موتك؟!

لا، لن يعيش أبدا من لم يجعل الموت نصب عينيه.

لكن ما الذى عشته يا "حجيزى"؟! ما الذى استمتعت به؟ "بكير" كبر من غير أن تستطعم طفولته، ولا عشت شبابه، فقط الموت هو ما تحياه، الدَّفن هو طريدة تفكيرك، ما عرفت امرأتك "سريرة" غير مرَّات تعد على أصابع اليد الواحدة! تتزوَّجها خمسين سنة، ولا تنجح معها إلا ثلاث مرَّات!؟ حياتك راحت هدَرا يا "حجيزى".

ابتسم "حجيزى" بسمة خائبة.

هذا نفسه ما فكَّرت فيه من قبل، منذ ما يقرب من العشرين عاما، عندما تركت "الوعرة" إلى صحراء أبعد فى قلب صحراء بعيدة، إلى جبل الرُّهبان، وكنت تظن أنَّك لن تعود، لمَّا تبعت "يونَّاس" الرَّاهب، ناويا الدخول فى دين النَّصارى، تبحث عن قيامة لجسدك بعد الموت، كان "بكير" فى عنفوان شبابه، مازال عريسا جديدا، وكنت تترك المكان وترتحل وهو فى الغيطان يزرع القمح، فكرت فى لون عينيه، ما لونهما بالضَّبط؟ سوداوان أم عسليتان؟ وأذناه؟! كبيرتان أم صغيرتان؟ وعندما عدت يا "حجيزى"، نسيت تنظر إلى عينيه، ونسيت تنظر إلى أذنيه!

أريد الآن أن أرى "سليم" و"سالم" و"سلمان"، ملامح كثيرة من تقاطيع وجوههم أشعر الآن أنى لا أحيط بها علما، إنهم فى المراعى البعيدة، ودَّعتهم صباحا، لكن يا "حجيزى" ما ودَّعتهم وداع من سيموت، الذى سيموت يجب أن يحفظ ملامح هذا العالم قبل موته، فهو يراه لآخر مرة، وليست هناك

فرصة أخرى، الولد "سلمان" فى قفاه وحمة تشبه بز الماعز، قالت لى "ثريَّا" عنها، قالت لى أنظرها، أنا ما فعلت، نفسى أراها الآن، لكن الولد بعيد، والرَّحيل حتم، وأى تأخير سيُخل بكل ما أدبِّره، وأخسر ما بعد الموت، كما خسرت ما قبله، لابد من الهروب من الدَّفن، وإذا كنت لم استطع العيش بينهم حيًّا، لأحيا بينهم ميتا.

نظر "بكير" إلى "حجيزى"، ضحك، وهتف: يا والدى، تعال ساعدنى.

- ساعد نفسك، أنا سأدخل البيت أجهز نفسى.

كانت "سريرة" تقف وراء الباب الضَّخم للبيت، وكانت تنظر إلى "حجيزى"، و"حجيزى" نظر إليها، ثم نظر إلى الأرض، وتوجَّه إلى عمق البيت، إلى ركن فى الفسحاية التى فى وسطها شجرة التِّين، وأخرج جوالا ملأه بالقرض، فتحه ونظر بداخله، كانت حبَّات القرض تتراص فى لحاها الربَّانى، جافَّة، القرض مراره أصعب من مرار الحنضل.

"فى أواخر الأيام لا تأكل إلا المرار يا حجيزى!"

وشعر بصوت يعلو فى تلافيف رأسه "أكلت ثلاث تمرات يا حجيزى، يبقى من عمرك ثلاثة أيام وتموت".

*****

كان "يوأنَّس" الرَّاهب يجلس على المصطبة الصَّخرية، يأكل خبزا يابسا مثل الحطب، يغمسه بجبن قديم غاطس فى مش شديد الملوحة، وكان "عبد الله" حادى القافلة الصَّغيرة يأكل خبزا طريا، يغمسه فى بيض مقلى غمره سمن من لبن الجاموس، وجبن أخضر فتِّت فى زبد البقر.

قال "حجيزى" للحادى: سامحنا يا شيخ العرب، لو الرَّاهب كان يأكل مثلما نأكل لذبحنا لكما جديا، المقدِّس ما أعطانا فرصة للإكرام.

فقال الرَّاهب "يوأنَّس" بصوت خفيض: لا آكل كل ذى دم مهدر، الرُّوح غالية على أصحابها، ولو كانوا حيوانات.

وقال الرَّاهب "يوأنَّس": لماذا لا يترك الإنسان العالم من حوله يحيا بسلام؟! ثم إن كل شيء من حوله يعطيه نعمة الله، الدَّجاج يعطيه بيضا، لماذا لا يأكل البيض ويترك الدَّجاجة تحيا بسلام، البقرة تعطيه لبنا يصنع منه جبنا وزبدا، لماذا لا يأكل اللبن ويترك البقرة تحيا بسلام! الإنسان متوحِّش جدا، ولولا أن الله منحه محبَّته لكان أقل من حيوان.

- لكن قل لى يا مقدِّس، كيف استطاع "المسيح" أن يحيا بعد ما مات؟!

- يا شيخ "حجيزى"، لم يكن "يسوع" شخصا عاديًّا مثلنا، كان إلها، والله يستطيع فعل أى شيء.

- الله لا يموت يا أبونا.

- وإذا مات، يمكنه ببساطة أن يقوم من موته، ويحيا خالدا.

- أنا أريد أن أقوم من موتى، أو إذا مت لا أدفن، وأبقى بين النَّاس.

- كل مسيحى يموت، وكل مسيحى يقوم من موته.

دارت رأس "حجيزى"، ورأى هامات النَّخيل البعيدة تنخلع من جذوعها لتنطلق ترفرف صاعدة إلى غور السَّماء، وأخذت الكلمة تتردَّد فى تلافيف عقله مثل صدى، تتخبط بين جوانب صدره مثل كرة حديدية ثقيلة، "كل

مسيحى يموت، وكل مسيحى يقوم من موته"، "كل مسيحى يموت، وكل مسيحى يقوم من موته"، "كل مسيحى يموت، وكل مسيحى يقوم من موته".

نظر "حجيزى" إلى قبَّة المسجد، فبدت له غريبة، هذه ليست قبَّة، إنها انتفاخ فطسان، يتحدَّث تحته الشَّيخ "علوان" عن موت ليس بعده قيام، وعن أجساد حتما ستتعفن، وسيأكلها الدُّود، وسينخرها السُّوس، لتتحوَّل إلى تراب، ليصير الإنسان بعدها نسيا منسيا.

دق قلب "حجيزى" فى صدره مثل طبل يقرع، وهو يهمس فى أذن "يوأنَّس" الرَّاهب: انتظرنى بعد مسيرة يوم، لأنى سأتبعك.

نظر الرَّاهب فى عينى "حجيزى" مندهشا، كانتا غائمتين، وكان نور شمس الظَّهيرة يسطع مبهرا، وبيوت "الوعرة" تغرق فى وهجه، وفى السَّماء طيور بيضاء مهاجرة.

8

مِن أجْل هذِه الكَلِمةُ أغفِرُ لَك

- لا أعرف كيف يعيشون فى هذه البنايات التى تشبه العُلب المتراصَّة؟!

- "غنيمة" قال إنهم يسمُّون بيوتهم شققا!

- والله بيوتهم تستحق هذا الاسم، إنها غرف ضيِّقة فى مساحات صغيرة.

- لكن زوجتك "زليخة" أحبَّت بلاد "أسيوط"!

- عيادة الطَّبيب كانت فى شقَّة من هذه الشُّقق، فوق، فى الطَّابق الخامس.

- فى الطَّابق الخامس!

- واه يا "حجيزى"، هذه بناية فيها عشرة طوابق! الطَّبيب قال لى: هات عيِّنة من...

سكت "سعدون"، وأخذ يحلق بعينيه يحاول تذكُّر ما قاله الطَّبيب، لكنَّه قال: لبن الرَّجل يا "حجيزى" له اسم عند الأطبَّاء، آه تذكَّرت، قال لى: هات عيِّنة من السَّائل المَوَنى، أو المَنَوى.

أنا ما أعرف ما هو السَّائل هذا! قلت له: آتى لك بهذا من أين؟

فنظر لى نظرة عجيبة من تحت نظَّارته، تعرف، كأنه ينظر إلى حمار، قلت له: فهِّمنى يا طبيب.

ابتسم ابتسامة خبيثة، وقال: من حمامتك.

حمامتى ؟!

ابن الكلب يا "حجيزى" أوقعنى فى هم أكبر، ويا ليته كان اكتفى بهذا. قلت له: عندى فى الواحة حمام كتير.

انفجر "سعدون" فى الضَّحك، والدُّموع سالت من عينيه، واستغرق فى الضَّحك حتى أنه توقف فجأة، وأمسك بقبضة يده بِزَّه الأيسر، وقال: أشهد ألَّا إله إلَّا الله وأن محمَّدا رسول الله.

القمر كامل الاستدارة، يسطع فى سماء كاملة الصَّفاء، وثغاء متقطِّع خافت لحَمَل صغير داخل حظيرة الغنم. ويرشف "حجيزى" الشَّاى رشفاته الخاطفة.

قال "سعدون" وقد عاد وجهه للابتسام: أخذ الطَّبيب يضحك بأعلى صوته، وما استطاع أن يمسك نفسه، فانفلت ذراعه وخبط زجاجة الحبر، فانسكب الحبر الأسود منها على الورق الذى أمامه، وما توقَّف عن الضَّحك، وكنت أنظر إليه مندهشا، لكن سكت بعد قليل، وهو يمسح زوايا عينيه من الدُّموع قال: أنا ما أقصد الحمام الحمام يا عم "سعدون"، أنا أقصد قضيبك، أقصد ذكرك.

وأنا قلت فى نفسى: يظهر أنى وقعت مع طبيب خول ابن كلب، لكنَّه نظر لى جادا وقال: أثناء نومك مع امرأتك، وأنت تأخذ حقَّك منها، عندما تصل لآخر حقِّك، ينسكب من قضيبك ماء ..

أنا قاطعته لمَّا فهمت قصده: قصدك يا طبيب لبن الرجل.

خبط على ظهر يدى بالقلم الذى كان يمسكه وهو يقول مبتهجا: عفارم عليك، هذا هو، أنا أريد عيِّنة من هذا.

وعندما رآنى أنظر إليه وأنا محتار، نظر إلى وهو محتار، فقلت له: كيف؟! لابد من السَّفر أسابيع طويلة حتى أستطيع أن أعود إليك بالعيِّنة.

فقال لى: تكون العيِّنة فسدت من طول السفر، ادخل فى دورة المياه الآن داخل العيادة، وتصرَّف.

قلت له: كيف أتصرَّف فى دورة المياه؟!

بحلق عينيه فى وجهى، وقال:......

بحلق "سعدون" عينيه، ومال على "حجيزى"،وقال هامسا: قال كلمة غريبة، يقصد بها أن أضرب عشرة، مثل ما كنَّا نعمل أيام بُلوغِنا، آه، تذكَّرت، قال: استمنى! استمنى!

قال "حجيزى" وهو يدعك وجهه بكفَّيه، ويبتسم: هذه فضائح، ملعون أبيها الخلفة، وبعد؟!

قال "سعدون": ما فهمت كلمته، فقال لى: ادعك ذكرك بيدك، ما عملتها أبدا وأنت شاب؟!

وسكت "سعدون" لحظة، ثم واصل الهمس مثل أفعى: قل لى يا "حجيزى"، أما عملتها أبدا وأنت شاب؟!

وقلب "حجيزى" وجهه، وهمس: يا ابن الكلب.

ضحك "سعدون": أنا قلبت وجهى فى وجه الطبيب، وكنت سأمسك فى رقبته، لولا أنه انكفأ ينظر إلى ورقة كان يكتب فيها دائما.

ثم قال وهو ينظر فى عينى "حجيزى" نظرة ماكرة: لكن أنا عملتها وأنا شاب.

- تعرف يا "سعدون"، وأنا شاب كنت أقضى الأيام والليالى فى تحنيط الحيوانات، أساعد والدى "شديد"، الذى يحنِّط الحيوانات، ثم يرصّها متجاورة فى أعمق حجرة فى البيت، أنا تعاملت طول شبابى مع جثث، أصابعى كانت مشغولة دوما بالبحث فى أجوافها عن الأحشاء وتفريغها، فروج إناث الحيوانات مقرفة، لحم ينطبق على لحم، وقضبان الذكور ليست إلا عضلات مقززة، كنت وقتها دائما ما أفكِّر هل فروج النِّساء مثل فروج إناث الحيوانات؟ وكنت أعرف الإجابة، قضبان الرِّجال تشبه قضبان ذكور الحيوانات، تبقى الفروج تشبه الفروج. يا "سعدون" لم تكن بى رغبة لكى تتحسَّس أصابعى عضوى.

زعق "سعدون" مناديا "زليخة"، ولمَّا ظهرت طلب منها أن تعد شايا آخر.

- أكثر ما يتعب الإنسان منَّا ويفقده بهجة حياته هو التفكير العميق! أنا لا أعمل مثلك، أنا أمشى وراء رغبتى، تطلب منى أنام مع المرأة، أذهب بعضوى المنتصب وأنام مع المرأة، أنت عبيط يا "حجيزى"، كل من يفعل مثلك لن يستمتع بامرأة أبدا، حتى لن يستمتع بعضوه مع نفسه!

- نستمتع بعقولنا يا بهيمة، نرى ما لا ترونه يا بهائم.

همس "سعدون" وهو يهم بإطلاق عاصفة ضحك: النِّساء لن يستمتعن بعقلك ورؤيتك يا "حجيزى"، يستمتعن بهذا.

وقبض على ذكره، وانطلقت عاصفة الضَّحك، ولم تتوقَّف العاصفة إلا بقدوم "زليخة" تحمل الشَّاى، وقالت وهى تضحك: دائما "سعدون" يضحك، فشَّته تعوم، يضحك وفقط، لو انطبقت السَّماء على الأرض يضحك، لماذا تضحك يا "سعدون".

توقف "سعدون" عن الضَّحك، لكن "حجيزى" هو الذى انفجر ضاحكا، واندهشت "زليخة"، ونظرت إليهما مستعجبة، وضحكت، وتركتهما بعد أن وضعت الشَّاى على الأرض.

همس "سعدون": تعرف يا "حجيزى"، ألذ وأمتع شغل مع زوجتى عملته فى عيادة الطَّبيب فى أسيوط!

لما خرجت إليها من غرفة الطَّبيب، رأت فى عينى الحيرة والقلق، قالت لى: مالك؟!

قلت لها: الطبيب يطلب منى موضوعا صعبا.

قالت: ماذا طلب منك يا حبَّة عينى، الله يوجع قلبه مثل ما وجع قلبك.

قلت: يريدنى على آخر الزَّمان أضرب عشرة!

انطلقت عاصفة ضحك أخرى من صدر "سعدون"، وجاءت "زليخة" بالجوزة، وضحكت من ضحك "سعدون"، وقالت وهى تمضى: ما يبطِّل ضحك أبدا، سيموت "سعدون" وهو يضحك.

اعتدل "سعدون" من ميلته، ومسح عينيه بكفَّيه، وكركرت الجوزة فى يد "حجيزى"، وقال "سعدون": نظرت إلى مندهشة وقالت: يوجع قلبه عديم الرحمة، وهل تستطيع تضرب واحدا حتى يطلب منك تضرب عشرة، أصغر عيل يغلبك الآن.

السَّماء صافية تماما، سوادها مدلهم، تبرق فيه آلاف من نجوم مرحة، والقمر المكتمل يميل نحو النِّصف الغربى من الظلام السَّاطع، ونسمات برائحة القمح تتسكَّع فى فسحات البيوت، وصوت "سعدون" صافى مثل جمر حجر "الجوزة"، ممزوج بضحك منفلت من "حجيزى".

كان "سعدون" يقول: قلت لها الطَّبيب ما يقصد هذا، الطَّبيب يقصد....

أنا سكت ما قدرت أكمل، أكمل أقول ماذا؟! لكنِّى أمسكت يدها وجذبتها إلى دورة المياه، مشت ورائى وما استطاعت تفتح فمها، "أسيوط" بلاد غربة، لكن فى دورة المياه نظرت لى بضيق مشتعل، وقالت لى: ماذا تريد يا "سعدون"؟!

أنا أبرزت لها الأنبوب الزجاجى الذى أعطاه لى الطَّبيب، وقلت لها: أريد أملأ هذا.

أنا يا "حجيزى" عرفت لماذا يزنى النَّاس فى الحرام، لأنهم يزنون وهم خائفون، أحلى واجب مع امرأة هو الذى تؤدِّيه بخوف، كنَّا خائفيْن ونحن نفعلها فى دورة المياه، وكانت تهمس لى طالبة منى أن أنتهى، وأنا ما كنت أريد أن أنتهى، رغم إنى خائف من أن يفاجئنا أحد ويفتح دورة المياه، أو يتلصَّص علينا احد من زبائن العيادة، أول مرَّة أعملها وهى تعطينى ظهرها واقفة، متعة يا "حجيزى"، متعة.

كان "حجيزى" يشد نفس "الجوزة" وعيناه تسرحان، وكان "سعدون" تمتلئ عينيه بالدموع غارقا فى موجة ضحك عاصف جديدة.

*****

- أسمع نباحا أشبه بأنين الإحتضار، لكنِّى لا أرى الكلب، بعد معاناة من البحث خلف الصوت على رمال الغرد السفيفة، رأيت نصف رأسه يبرز من الأرض، لقد دُفن الكلب بكامله!

سحبت "المسحاة" المعلَّقة بظهر النَّاقة، وحفرت الرمال من حوله، وأخرجته، نظر لى وهو يهز رأسه وذيله، ويعوى عواء خافتا، ثم أخذ ينفض جسده بشدة، فيتناثر الرَّمل من شعره.

تعرف يا "حجيزى"، هذا الكلب ربَّيته عشر سنوات، يطوف حولى عشر سنوات، لكنَّه كلب، لم أتأمل عينيه أبدا، ولم أعرف أن له أحاسيس أبدا، أعرف أن الكلب وفى، لكن يا "حجيزى" ما وُجد على الأرض كلب أوفى من كلبى...

انقطع كلام "غنيمة" وأخذ يشهق ويبكى.

كانا يتكلمان فى المسجد، وبعد أن صلَّيا الصُّبح، وبعد أن مضى الجَّميع إلى مصالحه، حتى "سعدون" الذى ليس وراءه مصالح.

هذا صدى صوت بكاء "غنيمة" يتردَّد بين جدران المسجد السَّميكة، ورائحة البحر.

- النَّاقة غير الكلب، كانت النَّاقة قابعة فى مكانها، رأسها ثابت، وعيناها ميتتان، كأن كل ما حدث لم يفاجئها، لكن الكلب ظهر فى عينيه انكسار، حتى أنى رأيت فيهما دموع، ورأيته يدور برأسه، ويطلق نظرات التِّيه، كان

مثلى، امتلأ خوفا، هكذا ببساطة يمكن أن نُدفن تحت الرِّمال! ثم إذا نجونا من الموت دفنا، ها نحن نسقط فى براثن الموت تيها..

مسح "غنيمة" دموعه، و"حجيزى" قال: احمد الله أنك نجوت من الدَّفن، وإلَّا ما كنت عدت لتحكى ما جرى.

قال "غنيمة": لو دُفنت كان أحسن، ما كنت رأيت الذى رأيت. بعدما سلَّمت أمرى لله وأيقنت بالهلاك، كانت عودة الحياة لى مسألة مباغتة، فعدت لها من غير ذاكرة، وجدت ذاكرتى ناصعة البياض مثل ذاكرة طفل وليد، تُصدِّق يا "حجيزى"! كنت أرى آخر احمرار فى الشَّفق الذَّاهب، أعرف أن شمسا هناك، لكنِّى نسيت، هل هذه شمس الغروب أم شمس الشُّروق، ولمَّا أظلمت عرفت أنها شمس الغروب، لكنِّى كنت ناسيا الغروب فى أى اتِّجاه، انا كنت أين؟! أنا ذاهب إلى أين؟! أين العَمَار؟! إلى أى جهة يجب أن أمضى؟! ما عرفت إلى أى جهة يجب أن أمضى، والكلب أخذ ينظر لى كأنه يقول ماذا ستفعل يا ابن آدم يا واعى، والنَّاقة ما تفعل شيئا، غير أنها أخذت تجتر طعاما فى سكينة، تمنَّيت وقتها لو أن لى قلب ناقة، وقرَّرت ان أبقى فى مكانى حتى أهتدى لعقلى.

قال "حجيزى": غريبة يا ابن الكلب، يضيع عقلك لمجرد عاصفة؟!

- ضاع من قدوم الموت يا "حجيزى"، ليس من العاصفة، الموت هو الذى يطيح بالعقل وبالإحساس أيضا، "وردانى" بقى فى فراشه ثلاثة أشهر يئن من قسوة المرض، لكنَّه بقى ليلة كاملة هادئا، ومات فى الفجر، رحمة ربنا، يسحب العقل والإحساس من الإنسان قبل أن يموت، أنا متُّ وعدت للحياة، فقدت الإحساس لما سلَّمت أمرى لله، وما عاد لى عقلى بعد أن عدت للحياة، ثم بعد ذلك حصل معى ما يعصف بأكبر عقل، الليل جاء يا

"حجيزى"، وجاء معه قمر أحمر كبير من إحدى جوانب الصَّحراء، والكلب ربض بجوار النَّاقة ملتصقا بها، ويهز ذيله، كان مضطربا، كأنه يستشعر خطرا، وكنت أنا أجلس ملتصقا بظهرى إلى النَّاقة، وبفخذى إلى الكلب، أفكر فى حالى، أنا من أين جئت؟! وإلى أين كنت أذهب؟! حتى حدث يا "حجيزى" ما أذهل الجزء الحاضر من عقلى.

تململ "حجيزى"، وكانت شمس الشُّروق قد بدأت تسطع فى فتحات قبَّة المسجد،وقال: الغنم تنتظرنى يا "غنيمة"، تريد ترعى، وأنت حكايتك طويلة، ونصفها كذب، تموت فى تأليف الحكايات.

صمت "غنيمة"، وجرت الدُّموع مرة أخرى فى عينيه، وقال بصوته الذى يكركب: تقول هذا وأنت الذى رأيت حالى لما عثر على العيال الرُّعاة؟! وماذا ستقول لمَّا أقول لك باقى ما حدث، أنا ما سأقول لك شيئا آخر، اذهب لغنمك يا ولد عمى.

كان "حجيزى" قد همَّ بالوقوف للمغادرة، لكن صوت "غنيمة" النَّائح أجبره على الجلوس مرَّة أخرى، والاتِّكاء إلى العامود، وقال: قل يا "غنيمة".

تمنَّع "غنيمة"، وقال: لن أقول لك شيئا آخر.

"أنت يا "حجيزى" قلبك مثل صخرة، صاحبك يريد أن يحكى لك ليفضفض، وأنت تتَّهمه بأنه كذَّاب! لكن هو فعلا كذَّاب. من قال لك أنه كذَّاب؟! هو يا "حجيزى" يسافر ويتحرَّك، من يسافر ويتحرَّك يرى العجب، ومن يركد فى الصَّحراء لن يرى إلا الرِّمال فى مكانها، والصُّخور فى مكانها، والنَّخيل، والنَّاس، كل شىء فى مكانه، ليس هناك جديد، وطالما ليس هناك جديد،

فليس هناك غريب، ولا مدهش، والغريب المدهش لما نسمعه نكذِّب صاحبه!".

مال "حجيزى" إلى رأس "غنيمة" وقبَّلها بقرف، وقال: أنا قبَّلت رأسك، أكمل كلامك يا "غنيمة".

ابتسم "غنيمة"، وقال: ما تريد تعرف الذى حدث بينى وبين "جاله"؟

- من "جاله" هذا؟!

- "جاله" بنت يا "حجيزى"، امرأة فارسيَّة كانت مع جيش فارسى كبير جاء زمان إلى صحارينا هذه، فطلع عليه "غرد" كبير، وردمه كاملا.

- جيش فارسى جاء زمان إلى بلادنا هذه؟!

- نعم يا "حجيزى".

- زمان متى؟!

- زمان جدا قبل العثمانيين، ويمكن بعدهم، لأ، قبلهم، سمعت مهندسا مصريا فى شركة المعادن يقول هذا الكلام لصديقه الإنجليزى عن الفُرس، قال إنهم كانوا يعرفون قيمة مصر أيضا، فاحتلُّوها أيام الفراعنة، والفراعنة يا "حجيزى" كانوا قبل العثمانيين.

قال "حجيزى" ساخرا: تفهم إنجليزى يا "غنيمة"!؟

قال "غنيمة": المهندس الانجليزى كان يفهم عربى، وكان المصرى يكلمه بالعربى.

ضرب "غنيمة" عينيه ناحية بُرصَين يتقافزان، يحاول أحدهما اللحاق بالآخر، عند شق كبير ظهر فى ركن الحائط بجوار سقف المسجد، وهمس: مصر ما تخلص من ناس حتى يركبها ناس!

*****

نظر "سليم" حوله، صحراء ما لها نهاية، مرعى جديد يبتعد كثيرا عن "الوعرة"، حتى أنه يبتعد عن المكان الذى وجدوا فيه "غنيمة" ملقى بجوار عظام ناقته، كان المرعى بكرا، الرّمال ملساء كالحرير، ليس عليها أية آثار لأقدام بشر، فقط آثار متناثرة لِحَيَّة "الدِّفان" التى تنساب تحت الرِّمال، ولأقدام أرانب جبلية، وثعالب، وضِبان، وآلاف من أشجار "العبل" الصَّغيرة، وأشجار شوكية أخرى، تحب الأغنام أكلها.

ضُحى الصَّحراء صيفا يشبه الظَّهيرة، قاس وملهب، لكن الغنم تكون جائعة، فتنهمك فى أكل الأشجار غير مهتمة بالقيظ، ويتوزَّع الرُّعاة الصِّغار يجلسون فى ظلال بعض هذه الأشجار، أو فى ظل صخرة ناتئة، ينهمكون فى مشاغباتهم الطُّفولية، لكن عيونهم تبقى منتبهة للقطعان.

"سكيرة" تجلس بين صويحباتها، تضحك معهن، لسانها يتكلَّم معهن، بينما عيناها تخطفان نظرات متتالية ناحية "سليم" الذى وقف ينظر ناحية صخرة صغيرة نبتت بطول فتى يافع مثله، كانت الصَّخرة الوحيدة النَّابتة فى هذه الصَّحارى، بينما فى الأفق العازل بين هذا المرعى وبين "الوعرة" وقفت غابة الصُّخور العملاقة غريبة الأشكال.

وعندما علا صوت الطَّرق على الحديد، جرى "سلمان" ناحية "سليم"، كان "سليم" يضرب بجاكوشه الصَّغير على الأزميل المغروس سنُّه فى قمَّة الصَّخرة، وهتف "سلمان": تنحت كل هذه الصَّخرة يا "سليم"؟!

وبدون أن ينظر إلى أخيه ابتسم، وقال: صخرة جميلة يا "سلمان"، ملفوفة وطيَّعة.

- ستنحتها على أى شكل؟

- تمثال مثل تماثيل الفراعنة.

- المساخيط؟!

- لأ.. المساخيط هم الموتى، أنا سأنحت تمثالا لواحدة حيَّة.

- من؟!

مسح "سليم" عرقا نزَّ من مسام جبهته، وقال: ستعرفها بعد أن انتهى من النَّحت.

عاد "سلمان" إلى رفاقه وهو يجر قدمه اليمنى، يسحبها فى الرَّمال السَّفيفة، مستمتعا بنعومتها، فرأى "سكيرة" تشير إليه، ذهب إليها، وضحكت، وهمست: ماذا يصنع "سليم".

- ينحت تمثالا لواحدة حيَّة.

همست: لمن؟

قال وهو يمد أطراف أصابعه الصَّغيرة، ويداعب قرطها الذَّهبى: لا أعرف.

لم تتكرَّر محاولة "سليم" النَّوم مع "سكيرة"، بعد محاولته الأولى الفاشلة، لمَّا كانا لم يزلا صغارا، بل إن هذه المحاولة نفسها أسهمت فى نماء حالة من الخجل بينهما، كانت نتيجتها ابتعاد كل منهما عن الآخر ابتعادا إراديا، ما عادا يلتقيان أمام البيت، تحت شجرة "الجميز"، ولا عند بئر "الرَّاهب" لمَّا يصحب كل منهما أمَّه فى العصارى لجلب الماء، وحتى فى المراعى، كانت "سكيرة" تلزم صحبة من البنات، بعيدا عند قطعانهم، بينما هو يبحث فى الرِّمال عن الصُّخور الصَّغيرة الملوَّنة، صارخا بين كل فترة وأخرى فى أخويه، للسيطرة على إحدى الغنم، تريد الانفصال عن القطيع، تغريها أعشاب بعيدة، لكن بقى بينهما خطف النَّظرات المتبادل.

لو أراد يمكنه فى أى وقت الآن محادثتها، سنون مضت على الحادث المخجل، لكنَّه يمتنع، ما سبب الامتناع؟! لا يعرف، لا يشعر بأن الخجل هو ما يمنعه، ولكن حالة من الرَّهبة، ليست تلك الرَّهبة التى تنتابه عند غضبة أبيه "بكير"، أو جدِّه "حجيزى"، وإنَّما رهبة من نوع آخر، رهبة الإقدام على كسر المعتاد، لكن فى النِّهاية، صار "سليم" إذا انفرد بنفسه، وأمن من اختراق أحد ما لعزلته، يبكى، يلوح له وجه "سكيرة" الشبيه بوجه قطَّة، فيذرف الدموع، فسأل نفسه عمَّا يعانيه، فقالت له "العشق"، فقال لنفسه: أنا عاشق "سكيرة".

ولمَّا عشق "سكيرة"، انطفأت شهوته، وما عاد يبحث عن خلوة اللذة، لكن فى خلوة الأحلام صار يقبِّلها كثيرا، يلمس خدَّيها بشفتيه، أو يضعهما بين شفتيها، وفقط.

يضرب "سليم" بعنفوان، والأزميل يقتطع من الصَّخرة قطعا كبيرة، إنه فى مرحلة التشكيل، لتأخذ الصَّخرة هيئة إنسان أوَّلا، ثم ينحتها لتتصوَّر بنتا يعشقها، الغنم ربضت فى مساقِط الظِّل، والرُّعاة يغفون فى تيقُّظ، والطُّرقات لا تخفت، وعينا "سكيرة" مصوَّبتان نحو جسد "سليم" العفى وقد انكفأ على الصَّخرة، يكاد يحتضنها.

*****

نظرت "سريرة" إلى "حجيزى" وهو يغسِل النَّاقة، سيرحل، رحيله هذه المرَّة لن تتبعه عودة، كل ما بدر منه هذا الصَّباح يؤكِّد أن رؤيته التى باغتته فى منامه صادقة، وتفسيرها واقع لا محالة، قلبها يرتعش فى ضيق الصَّدر، يفرفط بين ضلوع تنكمش لتقبض عليه.

"لماذا تحزنين عليه يا سريرة؟! ما الذى قدَّمه لك طوال هذا العمر المديد الذى عشتيه معه؟! خمسون سنة زواج".

هشَّت ذبابة كبيرة تطوِّف حول وجهها، كانت عصاها مركونة بجوارها إلى حافَّة المصطبة الصَّخرية، وكان الجو قائظا، مثقَّلا بلهيب "مسرى"، وشجرة "الجميز" راكدة، وشواشى رءوس النَّخيل تبدو فى البعيد كخطوط كثيفة مرسومة على زرقة السَّماء، لم تكن هناك أيَّة نسمات تعمل على تلطيف الحرارة.

"خمسون سنة قضيتِها معه، لم تسمعى منه كلمة ثناء، أى كلمة ثناء من أجل أى شيء، لا أثنى على طبخة أكلها من عمل يديك، ولا على جلباب جميل ارتديتِه يوما، ولا حتى على خدمة خدمتِها للغنم".

رقَّت نظرتها إلى "حجيزى" رغم ما يدور فى نفسها، كأنَّها تلوم أفكارها هذه، عاشت طول عمرها تكره المرأة التى تشكو تصرفات زوجها لأحد، المرأة بنت النَّاس تقبل مر زوجها كما تقبل حلوه.

"أنا لا أشكو حجيزى لأحد، أنا أحدِّث نفسى!".

"الخطأ بدايته حديث نفس يا سريرة، ليكن ما بداخلك مدفونا أبدا فى أغواره العميقة، لأنه لو خرج إلى النَّفس، صار مثل عفريت القمقم، مع أقل لمسة للقمقم ينطلق العفريت إلى الفضاء المعلن، وتصير فضائح".

رغم أن "حجيزى" انهمك فى غسل النَّاقة مثل شاب مقبل على الحياة، وهو يعلم أنه فى سبيله إلى رحلة لن يعود منها حيًّا، إلَّا أن هذا لم يُدهش "سريرة"، إنها اعتادت غرائبيته، تحاول دائما ان تتذكَّر فعلا واحدا طبيعيا له طوال معاشرتها له فلا تفلح، لن تنسى أبدا عينيه المرتعبتين وهو يبتعد عن عريها فى ليلة دخلتها، لم تسأله عن هذا أبدا، هل تسأله الآن؟ أم تترك للموت هذا السِّر، يميته كما سيميت صاحبه؟

لكنَّها فى المقابل لن تنسى هذه الضَّمة الهصور التى كاد فيها أن يخلع ضلوعها، وهو يقترب من لحظة الانتشاء، يخور مثل الثَّور، وتشخر مثل بقرة تذبح، تغرس أطراف أصابعها فى ظهره، وينكت أظافره بين لوحى كتفيها، بينما يطبق بأسنانه على عظمة ترقوَّتها.

تبتسم بسمة حزينة.

"مرَّة من ثلاث مرات طوال خمسين سنة".

"كانت أول مرَّة بعد عشر سنين من ليلة الخيبة، ليلة الدخلة".

"من أجل هذه الثَّلاث مرَّات على فراش مهجور طوال خمسين سنة ستحزنين عليه؟!".

لماذا تبدو عيناه صافيتين؟! لماذا لا يضرب فيهما خوف الموت، يغسل النَّاقة بهمَّة أكثر من كل مرَّة، وبُحب، كأنه يريد أن يعطى النَّاقة متعة الاستحمام، وهى مبتهجة، تدير رأسها وتطلق رغاء فرحا، كانت "سريرة" هكذا فى هذه الظَّهيرة البعيدة، رأسها يسبح فى كومة شعرها المنثورة على الوسادة، تديره يمينا وشمالا، بينما يد "حجيزى" تتخبَّط فى أركان جسدها، لم يكن خبيرا بأسرار أجساد الحريم، مفاتيح الرَّغبة، وبوَّابات الشَّهوة، وكانت جائعة، أى لمسة لجسدها كانت تؤجِّج فيها النَّار المكبوتة.

"ليس من أجل هذه الثَّلاث مرَّات فقط سأحزن عليه، ولكن من أجل كلمته التى قالها لى منذ قليل، كنتِ أجمل بنت فى بنات أيَّامك يا سريرة، نعم، من أجل هذه الكلمة أغفر له قحط كل هذه السِّنين".

ترى "سريرة" "حجيزى" جيِّدا من خلف سحابة عينيها العجوزتين، وتراه يتمتع بقوَّة تجعل عضلاته ما زالت تتراقص، ووجهه حسن رغم عشرات التَّجاعيد التى تنهكه، ولحيته المهذَّبة بشكل ربَّانى تضفى عليه رجولة ساحرة.

انحدرت من عينيها دمعتان، مسحتهما، ثم قبضت على عصاها، وأسندت ذقنها إلى كفيَّها المرتاحين إلى انعقافة العصا، وأخذت تملأ عينيها من "حجيزى"، وكان هو يغيب وينظر إليها بالتفاتة مخطوفة.

السَّماء لا تكف عن فتح أحضانها لهجرة الطُّيور، طيور مُشكَّلة وملوَّنة، أسراب من غير حصر ولا عد، بعيدة، فى قلب سماء شاهقة، ترحل من غير ضجيج.

وقفت، تريد أن تنسحب للدَّاخل، دفقة من بكاء لا تخضع لسيطرة "سريرة" تحاول الانفجار، وهى تتوكَّأ لتبدأ الحركة ناحية الباب الكبير، لمحت بسمة فى وجه "حجيزى"، كانت النَّاقة تدور برأسها، وتقرِّب مشفرى فمها ناحية فم "حجيزى"، كأنَّها تريد أن تقبِّله، كان "حجيزى" وهو يبتسم جميلا جدا، هى بسمته التى ارتسمت على وجهه يوم أن استطاع أن ينهى أول علاقة على السَّرير بنجاح، هذه العلاقة التى تأخَّرت عن أول ليلة لدخلتهما عشر سنين!

ما الذى انطلق فجأة يأكل جسد "سريرة"؟! ما الذى ضرَّج خدَّيها، الغائرين بين فكَّيها الخاليين من الأسنان، بلون تفَّاح طازج؟! ما الذى جعل عينيها تصفوان من غبشتهما لتسترجعا بعضا من ألقها القديم؟! همست لنفسها وهى تبتسم: "سريرة!".

"زوجى، حجيزى زوجى، ما فى ما يعيبك يا سريرة".

"لكن يا سريرة آخر مرَّة كانت من عشرين سنة، وقت صحَّته ما كان يقدر، وقت روقان باله ما كان يقدر، الموت كان دائما لابدا فى مخِّه، تحنيط الجثث قتل حبه للجسد، وقت أن كنت أنت يا سريرة بنت نغَّاجة ما كان يقدر، مجنونة لو ظننت أنه يمكن أن يقدر الآن".

نظرت "سريرة" إلى "حجيزى"، كان يلتفت إليها التفاتة خاطفة، عندما رآها تنظر إليه وتبتسم، بل وتناديه بصوت منخفض مكسور: يا "حجيزى".

"عوَّدنى حجيزى على العجائب، ما لم يقدر على عمله وهو مقدم على الحياة، ربما يستطيع أن يعمله وهو مقدم على الموت".

- "حجيزى".

ترك "حجيزى" غسيل النَّاقة، ولمَّا تأكَّد ممَّا فى عينيها اندهش.

*****

رغم أن "صالح" ليس أكثر من طفل صغير، مات قبل أن يكمل النِّصف الأوَّل من عامه الثَّانى، إلا أن رجال "الوعرة" خرجوا كلِّهم فى جنازته.

فى ظروف الموت العادية، لا يتبع جنازة الأطفال أكثر من عشرة رجال، لكن موت "صالح" غرقا فى بئر "الرَّاهب"، وإخراجه منها بصعوبة بالغة، جعل لموته وقعا أقسى حزنا، وأعتى مهابة، أخرج كل الرِّجال لتشييع جنازته.

تحرَّكت الجنازة بعد صلاة الفجر، والنُّور بالكاد ينبثق من آفاق الشَّرق، تتحرَّك الجموع فى صمت مهيب، لا صوت إلا صوت حفيف أطراف الجلابيب عند اصطدامها بالسِّيقان المهرولة، يتحرَّكون إلى الشَّرق مسافة ساعة، قبل أن ينحرفوا إلى الجنوب، ليخترقوا عمق الصَّحراء، إلى حيث بلاد الموتى، القبور، الجبَّانة.

كان "سعدانى" يحمل ابنه مكفَّنا بالبياض على ذراعيه المنصوبين أمامه، لفافة صغيرة تتأرجح خفيفا، تماما كما تتأرجح الماء الحارة فى عينيه.

أكثر من مرَّة كان "سعدانى" ينسى، ويُقدم على رفع جثَّة ولده، ليضعه على كتفيه، كما كان يفعل معه وهو حى، كان المحيطون به يسارعون ليأخذوا منه الجثَّة الصَّغيرة، بقصد إراحته، لكنَّه كان يرفض بإصرار، ويشهق ويبكى.

- وحِّد الله يا "سعدانى"، ما هكذا يكون فعل الرِّجال يا شيخ!

"حجيزى" فى آخر الجنازة، بجواره "سعدون"، يبذلان الجهد فى المشى السَّريع، لكنَّهما كانا يتأخَّران رغم أنفيهما، والجنازة تبتعد.

همس "حجيزى": الخطَّاف مزَّق عينه اليسرى، وخرج سنه من أعلى جمجمته، ورقبته التوَت، وانكسرت وهم يجذبونه من البئر.

نظر "سعدون" إلى الأمام، حيث الجنازة تبتعد ببطء، بينما سحابة من الرَّمل السَّفيف، تنساب إلى أعلى، ولم يفتح فمه.

- العين أغلى ما فى الإنسان يا "سعدون"، أغلى من العقل، عاقل أعمى يتعب، ومجنون مبصر لا يشقى.

نسمة تحلِّق حول "حجيزى"، فيشم رائحة البحر، يأخذ شهيقا يملأ صدره، ويقول ملتفتا بوجهه ناحية "سعدون": تشم رائحة البحر؟!

احمرار الشَّمس الصَّاعدة يضرب وجه "سعدون" وعمامته الملقاة على رأسه كيفما اتفق، و"سعدون" إحمرَّ وجهه الأبيض واربدَّ، يمشى وهو يلهث، وكرشه يرتج، هتف "حجيزى": ما لك يا "سعدون"؟!

- حزين من أجل "سعدانى"، مسكين، يحمل على ذراعيه جثَّة ولده الوحيد، تخيَّلت نفسى فى مكانه، ما أستطيع أحمل "جميل" على ذراعى وهو...

- أنت رجل سوء وفقرى يا "سعدون"! تفاءل بالخير يا أخى.

هزَّ "سعدون" رأسه كأنه يستفيق من كابوس، ورسم على وجهه بسمة صفراء، وقال: إه! مالك يا "حجيزى"؟! أنا يا أخى حزين على "سعدانى".

الجنازة تبتعد أكثر وأكثر للأمام، وكاد "حجيزى" و"سعدون" يبدوان كنقطتين وحيدتين فى الرِّمال التى بدت فى أفقها الشرقى الجنوبى أربع صخور ضخام، بدت كسحابات حمراء تلبَّطت بشبُّورة من عتمة تتمسَّك بالبقاء رغم شروق الشَّمس.

قال "حجيزى": رأيت يا "سعدون" عين "صالح" ولد "سعدانى" لمَّا أخرجوه من البئر؟!

تضايق "سعدون"، لكنَّه قال: لم أرها. الحمد لله أنى لم أرها.

- أجمل ما فى الإنسان العين، وما فى الحيوان أيضا، لمَّا كنت أحنِّط الحيوانات مع "شديد"، كنت أقرف من كل أحشائها إلا العيون، تشعر بها فى يدك كأنها جوهرة، انا ما رأيت الجوهرة، لكن "غنيمة" يقول إنها مدوَّرة وتلمع، رآها فى محلات "أسيوط". شىء آخر يعجبنى فى العيون، الحياة، حتى بعد أن نقلعها من محجرها لا تموت، تبدو دائما حيَّة وتنظر لك. كانت عينا الفارس الذى حنَّطه "شديد" مليئة بالحياة لدرجة مرعبة.

تقترب الصَّخرات الأربعة، شاهقة، ضاربة فى السَّماء، ومفزعة، كأنهن أربع مومياوات متقابلة، يحرسن فيما بينهن مربَّعا شاسعا رُصَّت فيه القبور.

هناك، إذا عصفت الرِّيح، صرخت المومياوات.

*****

ركب "حجيزى" ناقته، وقبل أن تهبَّ واقفة نظر إلى بوَّابة بيته، كانت من خشب عتيق من شجر "السرو"، مطلى بدهان زيتى مثل لون الزرع، بهت اللون فى بعض أجزائه، وانمحى تماما من أجزاء أخرى، وكانت "سريرة" تقف

فى وسط فراغ البوَّابة، تنظر إليه بينما تهش ذباب الصيف المتكاثر، تبدو "ثريَّا" واقفة خلفها، تفتح عينين حزينتين، وعندما نخس النَّاقة، هبَّت للوقوف، وقال: عندما نعود يا "بكير" لابد من أن تعيد طلاء البوَّابة.

كان "بكير" راكبا ناقته هو الآخر، ويقف منتظرا تحرُّك ناقة "حجيزى"، قال "بكير": إن شاء الله نعود بالسَّلامة ونطلى البوابة.

ابتسمت "ثريَّا" وهى تغمز ضلوع "سريرة" بكوعها غمزة رقيقة: يقول نعود يا "سريرة".

همست "سريرة": إن شاء الله يعود.

تحرَّكت النَّاقتان إلى الشَّرق، وبعد وقت قليل كانت "الوعرة" قد انحدرت للخلف، أوقف "حجيزى" ناقته، ثم استدار بها مواجها الواحة الصغيرة.

البيوت تتلاصق فى مواجهة وحشة الصَّحراء، بينما تحيط بغربها وشمالها بساتين واسعة من زروع وأشجار زيتون، وتخترق السَّماء هامات نخيل من غير عدد، ونخلتا بئر "الرَّاهب" فى الشَّرق جنوب "الوعرة"، ثم إلى الجنوب غربا قليلا بدت أشجار البرتقال وهى تخبئ بئر "السَّخنة"، وكان حمام يرفرف فوق البيوت والحقول فى أسراب متفرقة.

وأخذ "حجيزى" ينظر إلى كل شىء نظرة عميقة، وضربه هاجس مفاجئ، "القعبة" التى يشرب فيها كل صباح اللبن الرَّائب، كيف حافظت عليها "سريرة" كل هذه السِّنين الطَّويلة دون أن تنكسر؟!

هاجمته حالة اشتياق شديدة لرؤية "سريرة"، وفكَّر فى أنها مازالت قريبة، مازالت البيوت فى مرمى البصر، ليعُد، ولينظر فى وجه "سريرة" لآخر مرة،

هذا شىء متاح الآن، لكنَّه سيصبح مستحيلا بعد يومين ونصف، بعد أن يموت.

استدار بناقته، فرأى نظرات الدَّهشة فى عينى "بكير" الجالس على سنام ناقته، فدار بناقته مرَّة أخرى واستلم المدق النَّازل إلى "موط" البعيدة، ومضت الناقتان بتؤدة على طريق السَّفر، بينما دمعتان تمضيان منحدرتين ببطء من عينى "حجيزى"، تنزلقان لتذوبا فى تجاعيد وجهه، وهمس: لماذا يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاس؟!

ورفع صوته، يريد أن يُسمع "بكير" الماضى خلفه: لماذا يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاس يا "بكير"؟!

واصل "بكير" صمته، قبل أن يقول: لأنَّهم يتعفَّنون بعد موتهم يا أبى، لو ما دفنَّاهم تأكلهم الكلاب يا "حجيزى".

- ولو لم يتعفَّنوا؟!

كان هذا السُّؤال مباغتا، فصمت "بكير"، بينما أصدرت ناقته رغاء قصيرا خافتا، كأنَّها تئن.

9

جَبَـلُ الـــرُّهبَانِ

مسيرة يومين كاملين فى رمال لا يتغيَّر لونها إلَّا مع تغيُّر مواضع الشَّمس، الشُّروق والضُّحى، والظَّهيرة، والعصارى، والغروب، أصفر حائل إلى البياض، أو أصفر ذهبى، أو أصفر متوهِّج، أو أصفر يحّولُ إلى الدَّكنة، لا مدق ثابت وحيد تدب عليه خفاف النُّوق، وإنما مدقَّات متعدِّدة تتقارب أحيانا، وتتقاطع، لتفترق افتراقا نهائيا، فأماكن الرُّهبان فى الصَّحراء متغيِّرة، ونادرا ما تتَّجه القوافل إلى رهبان قاطعوا الحياة بصخبها، وإن اتجهت إليهم فإنها تكون قوافل صغيرة جدا، ناقتان، أو ثلاث على الأكثر، تحمل خبزا جافا، ولحوما مجفَّفة، وبعض عصائر، وكثير من التَّمر.

ربما طوال نهار كامل لا تقابلهم سوى شجرة يتيمة، وبعض من أرانب الصَّحراء التى تفزع لمرآهم فتختفى فى الرِّمال مثل أشباح، النَّاقة الأمامية يعتلى "يوأنَّس" الراهب سنمها، يمشى بحذائها "عبدالله" صاحب النَّاقتين، بينما اعتلى "حجيزى" سنام النَّاقة الثَّانية، التى تتبع بهدوء وصبر رفيقتها الأمامية.

مضى يومان ولم يأكلا طعاما سوى مرَّة واحدة.

قبل مغيب شمس الأمس، أوقف "عبدالله" الناقتين ليستريحا، ومدَّ الرَّاهب يده إلى خُرج صغير تعلَّق بسنم أحدهما، أخرج خبزا جافا، وقِطعة من جبن قديم قاسية مثل حجر، وأشار لهما ليأكلا، ثم مضى وجلس على مقربة منهما،

وبينما كان "حجيزى" ينظر ناحية الرَّاهب باندهاش، همس "عبد الله" وهو يدس لقمة فى فمه: كل يا شيخ "حجيزى"، الرُّهبان لا يأكلون.

- يا مقدِّس، تعال كُلْ معنا.

نظر "يوأنَّس" الرَّاهب إلى "حجيزى" وقال: آكل عندما أجوع.

- لنا يوم كامل ما أكلنا طعاما!

ابتسم الرَّاهب ابتسامة هادئة، وقال: آكل عندما أجوع.

ضحك "عبد الله"، وقال: قلت لك يا شيخ "حجيزى" الرُّهبان لا يأكلون كما نأكل.

مدَّ "حجيزى" يده، وكسر خبزة، مسح بها قطعة الجبن المتحجِّرة، وهمس فى أذن "عبدالله": وهل هذا طعام يؤكل؟ نفس الرَّاهب مسدودة.

وضحكا، وصاح "حجيزى" موجِّها كلامه للرَّاهب "يوأنَّس": متى تجوع يا مقدِّس؟

نظر الرَّاهب إليهما طويلا قبل أن يقول: هل يجوع من أكل على مائدة الرَّب؟!

قال "حجيزى" ساخرا: ربما تقصد أنه لا يجوع من أكل بالأمس خبزا وجبنا فى ضيافة "حجيزى"!

الشِّتاء رحيم، شمسه دافئة، ونهاره قصير، ولا يعيق الارتحال، وعندما أوشكت شمس اليوم الثانى على المغيب، أوقف "عبد الله" النَّاقتين، وقدَّم لهما الرَّاهب خبزه الجاف وجبنه المتحجِّر، أكلا، ولم يأكل الرَّاهب.

فى منتصف الليل، تماما كالليلة السَّابقة، توقَّف الرَّكب، ترتاح النَّاقتان، وينامون بضع ساعات حتى شروق الشَّمس، فى منتصف الليل ألق سكون الصَّحارى، أروع الصَّحارى هى تلك البعيدة عن فعل الإنسان، التى مازالت فى بكارة خلقها الأوَّل، قبَّة سماوية حالكة السَّواد، تبرق فيها آلاف النُّجوم، تنحنى أطرافها بحنان لتحتضن الآفاق، ما يؤذى الابتهاج بهذه الرَّوعة، هو زمهرير البرد، برد الصَّحراء قاتل.

النَّار تنبعث متألِّقة من كومة حطب جمعه "عبدالله" من الأغصان الجافَّة لتلك الأشجار الصَّغيرة المتناثرة على مسافات بعيدة فى هذه الصَّحراء، وجوههم الثَّلاثة تتوهَّج بالاحمرار، والنَّاقتان تبدوان ككومتين من رمال تهتزَّان مع اهتزاز ألسنة اللهب، بينما حشرات صغيرة قليلة بدأت تطوِّف حول النُّور.

كان "عبد الله" فى أربعينيات عمره، أسمر، نحيل، وجهه ممصوص، وعيناه تتقدان بذكاء البدو وحذرهم، بعينيه هاتين نظر إلى "حجيزى" وقال: ما الذى يجعلك تأتى مع الرَّاهب يا شيخ "حجيزى"؟!

صمت "حجيزى"، لكن الرَّاهب "يوأنَّس" نظر فى عينى "عبدالله" وقال: "حجيزى" يبحث عن خلاص روحه.

همس "حجيزى" وهو يقلِّب النَّار بجزء من غصن محترق: لا يا ابونا "يونَّاس"، أنت قلت كل مسيحى يقوم من موته، اتَّبعك لأنى أريد أن أقوم من موتى، لا أريد أن أدفن.

ابتسم الرَّاهب "يوأنَّس"، فبدت أسنانه ناصعة البياض، وفى كامل هيأتها، مثل أسنان مراهق، لكن "عبدالله" قال: فهِّمنى يا ابونا، ما معنى أن المسيحى يقوم من موته؟!

كان للرَّاهب "يوأنَّس" صوت عميق، وقعه يريح القلب، فقال: معناه أنه يحيا ويترك قبره.

ضحك "عبد الله"، وقال: النَّصارى لهم مدافن كبيرة فى "أسيوط"، يدفنون فيها موتاهم، ولم نسمع أن واحدا منهم خرج من قبره بعد دفنه وذهب إلى بيته!

النَّار تدفئ الأيادى والوجوه والصُّدور، لكن يظل البرد ينكت خناجره فى ظهورهم، ويكاد يمزِّق أصابع أقدامهم، وليل الشتاء طويل، والنَّاقتان تجترَّان طعاما، وقد أغلقتا أعينها.

- المسيحى لا يترك قبره ليعود مرة أخرى إلى قبور الدُّنيا، التى تسمُّونها البيوت، إنه يصعد فورا إلى الملكوت، حيث الرَّاحة الأبدية، والنَّظر فى وجه الرَّب.

نظر "حجيزى" إلى الرَّاهب "يوأنَّس" نظرة من يشعر أنه يكاد يقع فى خديعة ما، وقال: لكن أنا أريد أن أقوم وأعود إلى بيتى.

كان صوت "يوأنَّس" الرَّاهب عميقا جدا، وكانت عيناه تحلِّقان نحو نجمة كبيرة لامعة، عندما قال: الذى قام بجسده بعد الموت هو ربُّنا "يسوع" المسيح، اتبِعه بقلب مملوء به يعلِّمك كيف قام من بين الأموات، لكن حتى المسيح

نفسه لمَّا قام لم يذهب إلى بيته الدُّنيوى، وإنما ذهب إلى بيته السَّماوى، وجلس على يمين أبيه.

وقال: اتبِعنى يا "حجيزى" أعلِّمك الطريق إلى ربِّنا "يسوع" المسيح....

كان صوت "سعدون" وهو يغالب ضحكه يتقلقل فى تلافيف عقله: قسسة النَّصارى مقرفين يا "حجيزى"، يموتون فى الخَراء، حتى أنهم عبدوا إنسانا يخرأ، ربهم يخرأ يا "حجيزى".

وغرق فى الضَّحك، ثم قال: أولاد الكلب لهم كنائس كبيرة فى "أسيوط"، ناسهم كثيرون فى هذه البلد.

قال "حجيزى": لكن "يوحنا" الرَّاهب استطاع بكلمتين عمل ما لم تستطع صلواتنا كلنا أن تعمله، أوقف جفاف البئر من الماء!

قال "سعدون": يا ضعيف الإيمان، هذا من أعمال الشَّيطان، القسسة أحفاد الفراعنة، والفراعنة سحرة، والسحرة إخوة الشياطين...

وغاب صوت "سعدون"، وتجلَّى صوت "يوأنَّس" الرَّاهب جَهوَريا عميقا:... فقط لتصبر، وسيفتح الرَّب عينيك كما فتحها لـ"بولس" الرَّسول، ولمئات غيره.

- بولس الرَّسول! من بولس الرَّسول؟!

- ستعرف كل شىء فى حينه، الآن ناما قليلا لتستريحا.

وبينما كان "حجيزى" و"عبدالله" يتمدَّدان على فرشين من صوف الغنم، ويفردان على جسديهما دثارين ثقيلين من وبر الماعز، كان "يوأنَّس" الرَّاهب يتَّكئ على عصاه مبتعدا فى الظَّلام، وصوته قد تذلل وخشع: أرفعُ عينىَّ إلى الجبال، من حيث يأتى عونى، معونتى من عند الرَّب، صانع السَّماوات والأرض.

*****

ها هى غزلان تشرئب برءوسها، تنظر إلى القافلة، وتقفز قفزات سريعة، وتختفى خلف الكثبان الصَّغيرة، لابد أن القافلة قد صارت تدب فى أماكن نائية جدا، حيث تظهر حيوانات لم ترض بمعاشرة الإنسان، فنأت عنه، "عبدالله" يركب النَّاقة الأمامية، و"حجيزى" يركب النَّاقة الثَّانية، بينما الرَّاهب "يوأنَّس" يدبُّ على قدميه وعكَّازه، متأخِّرا قليلا عن قافلة تتعمَّد الآن السَّير ببطء.

- أبا "هند"، توقَّف، أريد أن أشرب.

كان صوت "يوأنَّس" الرَّاهب متحشرجا، فأوقف "عبدالله" ناقته، فتوقَّفت الثَّانية تلقائيا، وعندما همَّ "عبدالله" بإناخة النَّاقة، قال "يوأنَّس" بحدَّة: لا، أنا فقط أريد أن أشرب.

قال "عبد الله": نتوقَّف يا مقدِّس، ربما تحتاج إلى الرَّاحة قليلا.

- لا، أنا أحتاج فقط إلى جرعة ماء.

سحب "عبدالله" قربة صغيرة معمولة من جلد مدبوغ لجدى صغير، وأعطاها لـ"يوأنَّس" الرَّاهب، الذى أخذها ووضعها على فمه، ورغم أنه كان متلهِّفا

إليها، إلَّا أنه لم يشرب منها سوى جرعة واحدة، وأعادها إلى "عبدالله" الذى ألح عليه فى أن يشرب المزيد، إلَّا أنه رفض بإصرار.

- لا يغلبنى الجسد الفانى.

وكان صوت "حجيزى" ساخرا، ووجهه تتراقص فى تجاعيده ابتسامة صغيرة، عندما قال: ألم يكن على مائدة الرَّب ماء يا مقدِّس "يونَّاس"؟!

قال "يوأنَّس" وقد عادت إلى صوته تلك النَّبرة العميقة: وهل كان على مائدة الرَّب طعام يا إنسان؟!

ما قاله الرَّاهب كان صادما لـ"حجيزى"، وبدا له أن كلام "يوأنَّس" يناقض بعضه بعضا، فلقد قال بالأمس إنه قد أكل من مائدة الرَّب! لكن الثِّقة التى كان الرَّاهب يتكلَّم بها، جعلته يشعر أنه يفهم تماما ما يقول، ولم يحب "حجيزى" أن يبدو غبيا فسكت، لكنَّه كان قد بدأ يفهم أن الرَّاهب "يوأنَّس" يصارع جسده.

عندما صعدت النَّاقتان أحد الكثبان العالية ظهرت فجأة شجرة ضخمة تتلوَّى أغصانها العارية من أية أوراق، مثل أفاعٍ متشابكة فى صراع مسموم، فقال الرَّاهب: بضع ساعات ونصل، قبل المغيب سنصل.

وعندما كان الرَّكب يمضى بجوار الشَّجرة الأفعوانية هذه، زلزلت رعدة مفاجئة قلب "حجيزى"، صاحبت إحساسا طاغيا داهمه بأن حياته التى يعيشها تشبه تماما هذه الشَّجرة الجرداء الكئيبة، بل هو نفسه ليس أكثر من شجرة مثل هذه، شجرة غريبة ليست مثل أى شجرة، بعيدة عن الحياة، رغم أنها تنبت فيها.

وعندما انحدرت النَّاقتان، واختفت الشَّجرة، كان "حجيزى" ما زال يعانى من وجيف قلبه، كان قد وصل إلى قناعة محبطة، مفادها أنه قد ضيَّع حياته فى مهاترات، وهو يظن أنه يعيشها كما ينبغى.

"ما الذى أتى بى خلف هذا الرَّاهب؟! أنا أبحث عن صحة جسدى بعد موته، وهو يبحث عن هلاك جسده المملوء بالحياة!".

وفى هذه اللحظة جاء صوت الرَّاهب من خلف القافلة الصَّغيرة، التى تمشى الهوينى، ضعيفا كأنه ينغرس فى الرِّمال مثل قدميه وطرف عصاه: الرَّب عمل لك خُطة يا "حجيزى"، وسترتاح روحك المتعبة.

"ولماذا روحك متعبة يا حجيزى؟"

"لأنك شغلتها بألد أعدائها يا حجيزى، الموت"

"وبعد يا حجيزى!؟".

"لا شىء يا حجيزى، لا أحد يريد أن يعيش تعيسا، ستتعس أكثر لو عشت الحياة كما يعيشها سعدون، أيام تقتنص منها أوقات سعادة ثم تموت لتتحوَّل إلى تراب فى قبر!".

"إذن أنت صح يا حجيزى".

"نعم، أنا صح يا حجيزى".

أقنع "حجيزى" نفسه بجدوى ما يفعل، مثلما يفعل دائما طوال رحلته الطَّويلة فى الحياة، كلَّما كاشفته نفسه بما فى داخلها من قلق، فذهب وجيف قلبه، وتأكَّد من أن له الحق فى أن يعطى جسده فرصة فى الهرب من الدَّفن، وأن مصاحبة الرَّاهب "يؤنِّس" ضرورية فعلا.

وتكشَّفت له رمال واسعة ذهبية امتدت تحت شمس العصارى، وهناك فى الأفق بدا وكأن جبلا عاليا يلوح، لكن شيئا ملقى على الرِّمال كان يقترب، ليتضح بعد قليل أنه هيكل عظمى لأحد الجِمال، كان "حجيزى" الآن هو الذى يمشى، بينما الرَّاهب قد جلس على سنام النَّاقة.

هتف "عبد الله": هذا جمل شارد، ربما افترسته ذئاب الجبل، وربما قتله الجوع والعطش، فنهشت النُّسور والضِّباع لحمه.

قال "حجيزى": لكنَّنا لم نر طوال سفرنا ذئابا أو ضباعا أو نسورا.

ضحك "عبد الله": نحن لم نرها، لكن هى بالتأكيد رأتنا، إنها أسياد هذه الصَّحراء.

قال "يوأنَّس" الرَّاهب، وصوته العميق لم يتأثَّر باهتزازت جسده المتشبِّث بسنام النَّاقة المنطلقة برتابة: عندما ترى يا "حجيزى" الذِّئب ينام وقد وضع رأسه على فخذ الرَّاهب "مرقس" المسكين، ستعلم من هو السيِّد الحقيقى.

"ما الذى أتى بهذا الجمل إلى هذه الفيافى القاحلة البعيدة ليلقى مصرعه هنا؟!".

ارتعد جلد "حجيزى".

*****

وصلت القافلة الصَّغيرة إلى سفح الجبل الذى بدا منذ ساعات فى الأفق، لم يكن جبلا شاهقا، كما أنه ليس بالمنخفض، وقد تناثرت عليه فوَّهات كهوف ومغارات بالقرب من سفحه، كما أن بعضا من أشجار مورقة كانت تمتد على طول هذا السفح، فأعطت راحة للنَّظر والرُّوح.

ما كان غريبا أن عددا من النَّاس كانوا يقفون وعلى وجوههم فرحة هادئة، كانت هيئة وقوفهم تشى بأنهم رهبان أيضا، وأنهم ينتظرون القافلة.

كانوا عشرة، وربما يزيدون، طالت وتشعَّثت شعور رءوسهم ولحاهم، أجسادهم نحيفة كهياكل عظميَّة، وجلود وجوههم مشدودة مثل وجوه المومياوات، اثنان منهم بلغا من العمر عتيا، ربما تعدى عمرهما المائة عام، أما الآخرون فهم بين الأربعين والستين.

توقَّفت القافلة، وأناخ "عبد الله" النَّاقتين، وبدأ يفك الحبال التى ربطت بها بعض الأجولة واللفائف.

هؤلاء الرُّهبان لم ينطقوا بمجرد حرف واحد، لكنَّهم كانوا يتابعون ما يفعله "عبدالله" مثل دُمى مبتسمة، نظر "يوأنَّس" الرَّاهب ناحيتهم، وقال: أتينا بدشيشة البهائم.

"هل يربون البهائم؟! لكن أين دشيشة البهائم هذه؟! ما معنا على النَّاقتين غير خبز وعصائر وجبن وتمور؟!" كان "حجيزى" يهمس لنفسه.

قال "يوأنس" الرَّاهب بصوت جلجلت فيه بحة الفوز: وأتيت لكم بجسد "المسيح" ودمه.

وفتح "حجيزى" عينيه مبهورا بما سمع، هل كان برفقتهم قتيل دون أن يدرى؟! المسيح؟!

"أيكون هو المسيح الذى قالوا له إنه قام بجسده حيًّا من بين الموتى؟! هل قام ثم قُتل ولم يستطع القيام مرة أخرى من الموت؟! وكيف أتى هذا المعتوه بجسده الغارق فى دمائه ليأكلوه؟!".

وبينما كان يدور برأسه ناظرا ناحية الجوال الكبير، متسائلا بعينيه إن كان فيه جثَّة "المسيح" فعلا، تذكَّر أن هذا الجوال بالتحديد، هو الجوال الذى أخرجه من بيته، وعبأه تمرا للرَّاهب "يوأنَّس"، لمَّا مر عليه فى "الوعرة".

لم ير "حجيزى" فزعا فى عيون أولئك الرُّهبان الواقفين فى أماكنهم من غير حركة، بل إن الابتسامة ما زالت ترسم شفاههم، أو بالأحرى اتَّسعت قليلا.

كانت عينا "حجيزى" بارقتان بالسؤال: أين خبأ هذا الرَّاهب جثَّة المسيح؟!

ونظر الرَّاهب "يوأنَّس" إلى الأجولة المعبَّأة بالخبز الجاف والتمور، وابتسم وقال: ها هو هناك.

"هذه أجولة مملوءة بخبز وتمر! هل جُن الراهب؟!".

وكان الرُّهبان يهمسون بكلمات كالتراتيل، بينما ينقرون بأطراف أصابع أيديهم جباهتهم وأجناب صدورهم، وقد توقَّفوا عن الابتسام.

كان ظلُّ الجبل يغطِّى الأشجار القليلة المتراصَّة فى سفحه، ويغطِّى مساحة كبيرة ملقاة أمامه، لكن الرِّمال البعيدة بدت مثل بحيرة من ذهب تمتد حتى الآفاق البعيدة، كانت الشَّمس تغرب.

كان الرُّهبان يلتفُّون حول الأجولة واللفائف، يقتسمونها فيما بينهم من غير ضجيج، وكان "عبد الله" يعدُّ نارا لصنع الشَّاى تحت إحدى الأشجار، وقد جلس بجواره "حجيزى"، ينظر ناحية الرُّهبان نظرة حائرة.

- أنت تعرف أننا كنا نحمل جثَّة طوال هذه الرِّحلة؟!

- أى جثَّة يا عم "حجيزى"؟!

- قال لهم أنه أتى بجثَّة المسيح ودمه! ألم تسمع هذا؟!

كان "عبدالله" قد نفخ فى الدخان ليشتعل، فسال دمع عينيه، لكنَّه قال وهو يبتسم: الرَّاهب يقصد الخبز والتمر الذى سيصنعون منه خمرا.

عينا "حجيزى" دارتا أكثر فى محجريهما، فقال "عبدالله": قال لى أحد الرُّهبان زمان، إنهم عندما يأكلون هذا الخبز، ويشربون هذا الخمر، فكأنهم أكلوا جسد المسيح، وشربوا دمه.

امتعضت تجاعيد وجه "حجيزى"، وقال: الله يقرفهم، يشبِّهون الخبز بلحم النَّاس! وكيف هم رهبان ويشربون الخمر؟ يكون "سعدون" صدق فى كلامه عنهم؟!

اشتعلت النَّار حول "كوز" ممتلئ بالشَّاى اسودَّت جوانبه بالهباب، و"حجيزى" نظر إلى "عبدالله" الذى كان يقبض على "سلك" ملفوف حول الكوز المغموس فى ألسنة اللهب،

قال "حجيزى": يبدو أنهم مجانين.

قال "عبد الله": هم مجانين بالتَّأكيد يا عم "حجيزى"، يتركون الحياة والنَّعيم، ويأتون ليلقون بأنفسهم فى جحيم الصَّمت هذا، أنت تظن أنهم يأكلون الجبن ويشربون العصائر؟! لا، إنهم يقولون عنها دشيشة البهائم، لا يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها، وإلَّا اتهموه فى صدق صلاته، لكن هناك منهم من يخضع لمتطلبات جسده، فيأكل، ثم يرحل، منهم بالتأكيد من سيعود معى، لكن أغلب الجبن والعصائر تلقى لتأكلها وتشربها هوام الجبل، ويأكلوا هم أوراق

هذه الأشجار وثمارها، تعينهم عصائرها على العطش، كما تعينهم مياه المطر، قلبوا العيشة يا شيخ "حجيزى".

وبينما كانا يرشفان الشَّاى، كان الرُّهبان يقوم كل واحد منهم وقد حمل بين يديه نصيبه من نعمة الله التى حُملت إليهم على ظهرى النَّاقتين.

قال "عبد الله": رأيت رهبانا فى صحارى قاحلة، يمصُّون أوراق شجر "العبل" المرَّة، وتمر أمامهم الأرانب، فيتركونها! يا عم "حجيزى" أنت طول عمرك تأكل وتشرب، هؤلاء تعوَّدوا على الجوع والعطش، وهؤلاء ليس وراءهم عيال ولا مال، وأنت وراءك بيت وزرع ومال، ما توحشك ضحكة "بكير" يا أخى؟! أنا قلبى يدق كالعاشق كلَّما تذكرت بُنيتى "هند"، أريد والله أرسم صورة صبح وجهها على كل رمال المسافات التى أقطعها فى الرحيل الذى ما ينتهى أبدا.

"يبدو أننى أخطأت بالمجيء خلف هذا الرَّاهب، فكل ما يقوله أو يفعله حتى الآن هو ضد حياة الأجساد".

حدَّث "حجيزى" نفسه، وهو يرشف آخر قطرة شاى من الكوب الزُّجاجى فاقد الشَّفافية، وكان آخر شعاع من الشَّمس الغاربة ينزوى، والظُّلمة تفتح فمها.

*****

ينكأ "عبدالله" النَّاقة بكعبى قدميه فى جنبيها فتهب واقفة وهى ترغى، كان الرَّاهب الذى بالكاد عمره تجاوز الأربعين هو من ركب على سنام النَّاقة الأخرى، وبينما وقف "حجيزى" بجوار "يوأنَّس" ينظران إلى القافلة الصَّغيرة

يودِّعانها، قال "عبدالله" وهو يبتسم: آه يا عم "حجيزى"، أمامك فرصة حتى الآن، ربما تحب العودة فى أى وقت آخر فلا تجد من يحملك، الله وحده يعلم متى يمكن أن تأتى قافلة أخرى إلى هنا.

لم يرد "حجيزى"، وابتسم الرَّاهب "يوأنَّس"، وتدحرجت القافلة ببطء لتغطس فى العتمة القادمة.

استدارا ليواجها الجبل، ثم مدَّ الرَّاهب يده نحو كتف "حجيزى"، ودفعه قليلا ليتحرك، وبينما يمضيان ببطء يناسب عجوزين صحراويين، بطء راسخ، قال الرَّاهب: أنا هنا يا حجيزى منذ أن كان عمرى أربعين عاما، الآن يقولون أن عمرى تعدى المائة، أكثر من ستين عاما أجوب هذه الصَّحارى، لكنى لا أنسى أبدا هذه اللحظة الأولى التى تركنى فيها البدوى الذى حملنى بناقته إلى وحشة هذه الصَّحراء، ثم مضى، وحشة الصَّحراء مهلكة لإنسان وحيد، ورغم أن عَمَارا هائلا بالمسيح كان يملأ قلبى، إلا أننى لن أنسى أبدا رعدة جلدى، لمَّا نظرت حولى فلم أجد إلا حفرة بالكاد تسع إنسانا، نحتتها يد الله فى صخرة وحيدة ضخمة، ملقاة فى بحر من رمال، أُشهد الرَّب أن "المسيح" كان يملأ قلبى، لكنِّى رغم ذلك شعرت بدوار، وارتميت على الرِّمال أبكى، كنت قادما من الدُّنيا، رغم أنى كنت قد قضيت سنينا طويلة فى الكنيسة، لكن الكنيسة كانت مزروعة فى قلب دنيا "أسيوط"، وجسدى كان مستأنسا بأجساد أهلها، لكن روحى تاهت هناك، وبينما روحى ترفرف فى نعمة الله السَّعيدة فى أول لحظات الوحدة فى هذه الصَّحارى، كان جسدى يتألم وهو يفارق ونس أجساد النَّاس وشهواتهم، كنت يوما أشبحه على صليب الوحدة وأنا لا أعرف.

وعندما وصلا إلى المكان الذى كان يتجمع عنده الرُّهبان، كان ثمَّة جوال متوسِّط قد امتلأ بالخبز والتَّمر والأطعمة الأخرى، أشار إليه الرَّاهب، وهو يقول لـ"حجيزى": هذا نصيبك، ستحتاج إليه بشدَّة فى أيَّامك الأولى.

- وكما صرخ الرَّب يسوع المسيح، وهو معلَّق على صليبه، يطلب من الله أن يعينه فى محنته...

قاطعه "حجيزى": تقولون إن الله هو المسيح! كيف يطلب الله من الله أن...

وقطع "حجيزى" كلامه، وأدار رأسه ناحية الرَّاهب، وقال بالشَّك: يا مقدِّس قل كلاما معقولا!

ابتسم "يوأنَّس" وقال: المسيحيَّة دين قلب يا "حجيزى"، بالعقل وحده لن يؤمن أحد، عندما تتبع "المسيح"، ويغسلك بالرُّوح القُدُس، ستستريح روحك، ويهدأ قلبك.

"نظر يوأنَّس حوله يكاد الفزع يفتك به، فهو عندما طلب من رئيس الدَّير السِّياحة فى الجبال، لم يكن يتخيَّل أن وحشة الصَّحراء يمكن أن تكون بكل هذا العنف، لا شىء يشى بحياة، أيَّة حياة، حتى ولو أفعى تزحف، ليس إلَّا أشجار "العبل" القصيرة الطَّالعة من الرِّمال هنا وهناك، ولا يوجد ماء، ولا يملك خبرة فى التَّعامل مع كل هذا القحط، لا أحد من الرُّهبان الذين عادوا من سياحتهم قصَّ له عمَّا وجده من صعوبات، كلُّهم يتكلَّمون عن نعمة الرَّب الموجودة فى كل مكان، ولا أحد منهم يُخبر بأن قسوة ما وجدوه هو ما أعادهم إلى الونس، وإنما يقولون دائمًا إن سبب عودتهم هو مشيئة الله، وفى لحظة فكَّر فى أن مشاعره ليست أكثر من نفخات شيطان، لم يُقدم الإنسان أبدا

على عمل يحارب به الشَّيطان، إلَّا وجرَّبه، لقد جَرَّب "المسيح" نفسه، هذا الملعون، تجاربه مرعبة، لكن نعمة الرَّب يسوع أقوى".

- وعندما غابت الشَّمس يا "حجيزى"، ورأيت شناعة الظَّلام القادم وأنا وحيد، والصَّمت يَوِش فى أذنىَّ مثل ترنيمة شبح، ساخت ساقاى، وركبتاى اصطكَّتا ببعضهما، ولم أشك فى قدوم الموت.

فى لحظة تحركَّت شفتا "يوأنَّس" بكلمة: الرَّب.

سمع نفسه يقول: الرَّب.

- الصَّمت عدو الإنسان الأول يا "حجيزى"، هو الذى يقتلك فى خوفك، عندما تخاف تكلَّم، سيتبدَّد خوفك، أنا سمعت صوت روحى، روحى تكلَّمت بما تحب، تكلَّمت باسم "الرَّب"، سمعتها فآنستنى قليلا، فقمت وصرخت فى وسع الصَّحراء: أَرفَعُ عينىَّ إلى الجبال، من حيث يأتى عونى، معونتى من عند الرَّب، صانع السَّماوات والأرض.

"تهلَّل وجه يوأنَّس فجأة، وكأن صوته قد نشر فى الصَّحراء كامل الحياة، ها هو صوت إنسان يكسر وحشة السَّكون، صوت سمعه بأذنه، ولم يكن يمثِّل مشكلة بالنَّسبة له أن الصَّوت لم يكن غير صوته، فالغريق يتعلَّق بقشَّة، ويتعلَّق بما هو أهون من ذلك، يتعلَّق بالوهم".

يتقدَّمان ببطء ناحية إحدى المغارات، وأقدامهما تحاول انتقاء أماكن آمنة من وعورة الصُّخور.

- أحسست بسكينة تحطُّ فى قلبى، فعرفت أن الرَّب معى، وأنه يُعد لى فعلا خطَّة تخصُّنى وحدى، فتخلَّصت من قوَّتى، وانتظرت قوَّة الله، وأخذت ألح عليه فى أن يرسلها لى فورا: اللهم التفت إلى معونتى، يارب أسرع وأعنِّى.

وصلا عند فوَّهة المغارة، ألقى "حجيزى" من على كتفه الجوال الممتلئ بنصيبه من الأطعمة، وقال الرَّاهب وهو يشير إلى المغارة: هنا تختلى مع الله، اسأله بإخلاص أن يمنحك الطَّريق الصَّحيح الذى يؤدِّى إليه...

قاطعه "حجيزى" بضيق: أنا يا أبونا لم آت إلى هنا لأسأل الله عن الطَّريق الصَّحيح، أنا أعرف طريقى، أنا أتيت إلى هنا لكى تدلَّنى على ما لا يجعلنى بعد موتى أدفن فى قبر، أنا أريد أن أبقى فى هذه الدُّنيا التى عمَّرتُها.

كانت هناك إرهاصات حيرة عظيمة تضرب ملامح وجه "يوأنَّس" الرَّاهب، لكن لفح الظَّلام خبَّأها عن عينى "حجيزى"، همس "يوأنَّس": حتى هذه سيقدِّم لك "المسيح" إجابة عنها.

- متى ؟

- عندما تتَّبعه.

- كيف أتَّبعه ؟

- تؤمن به ربًّا ومخلِّصا.

- لماذا لا يقدِّم المسيح حلا لمشكلتى من غير أن اؤمن به ربًّا ومخلَّصا ؟!

- ولماذا يقدِّم لك حلولا وأنت لا تؤمن به.

- لا أحد يعطى من دون أخذ، حتى الرُّسل!؟

تنهَّد الرَّاهب بعمق، ثم رفع عينيه إلى السَّماء، وقال: ومع ذلك أطلب منك يا "يسوع" أن تُرِى هذا الحائر إحدى معجزاتك، بدون مقابل.

كان القمر يصعد من أفق الشَّرق، دائرة أرجوانية مهيبة، تنتصب على حد الخلاء اللامتناهى، وعوى ذئب.

*****

لم يكن بمقدور "حجيزى" النَّوم، ليس خوفا من هذا الجبل، ولا من تلك الصَّحراء، فعدد المرَّات التى نام فيها وحيدا فى الصَّحراء لا يستطيع أن يُحصيها، أثناء ترحاله ما بين "الوعرة" و"موط" لقضاء المصالح، نام وحيدا فى الصَّحراء لمَّا كان يدب بقطيع الغنم إلى مناطق بعيدة، فيقرِّر البقاء أيَّاما لتشبع أغنامه.

كان فى كل الأحوال، يفرش الصُّوفة ويتمدَّد عليها، ويغرق فى النَّوم، بعد سرحة قصيرة لعينيه بين نجوم السَّماء.

لكنَّه الآن يشعر بغربة عن هذه الصَّحراء التى يعرفها، فها هو جبل شاهق يحدُّ من وسعها، وأناس يعيشون حوله فى كهوف مثل الأشباح، لا لهم صوت، ولا حركة، ثم هذا الـ"يونَّاس" الذى يطلب منه بوضوح شديد أن يصير نصرانيا، دون أن يضمن له بشكل أكيد أنه سيقوم من موته.

"لقد خدعك يونَّاس يا حجيزى".

- لم يخدعك "يوأنَّس" يا "حجيزى"، وإنما يخدع نفسه عندما يظن أنه لما انقطع للرَّب فقد قدَّم له الخدمة التى يستحقُّها.

كان الرَّاهب "يوأنَّس" يقول هذه الكلمات فى وهدة الليل وهو يتقدَّم ناحيته ببطء على الحصى، وفرح به "حجيزى".

سيؤنس "يوأنَّس" وحدته.

وعلا وشيش رفرفة أجنحة تخفق، أجنحة كثيرة، ورفع "حجيزى" عينيه إلى السَّماء، ففوجئ بسحابة من طيور تنساب نحو الشَّمال فى صمت مهيب، ينعكس عليها ضوء القمر، فترهج بلمعة الفضَّة، كانت الطُّيور تطير قريبا جدا من سطح الصَّحراء، حتى ظن أنه يقدر أن يمسك بإحداها، وكانت سحابة

كبيرة من طيور، لم تنقشع إلا بعد دقائق طويلة، كان "يوأنَّس" قد جلس فيها بجوار "حجيزى" الذى ظهر العجب على وجهه.

- أوَّل مرة فى حياتى أرى الطُّيور المهاجرة هذه تطير مقتربة من الأرض كل هذا الاقتراب!

ابتسم "يوأنَّس"، وقال: ها أنت الآن تعود شابا يا "حجيزى".

- أعود شابا لأنى رأيت هذه الطُّيور!

- لا، ولكن لأنك تعجَّبت من قربها، لأنك اندهشت.

حاول "حجيزى" أن يفهم كلام الرَّاهب، فلم يفهم، وقرَّر ألا يسأله عن معنى كلامه، فالرَّاهب خدعه، حتى وإن كان قد جاء الآن ليزيل عنه وحشته، فليس معنى هذا أنه لا يواصل خديعته.

قال الرَّاهب: الفرق بين الشَّباب والهِرم هو هذا الاندهاش، أيام شبابى كنت أندهش من أشياء كثيرة، ربما لم تكن مدهشة، والآن يا "حجيزى" لو نزل ربنا "يسوع" المسيح، ودخل مغارة عزلتى ربما لن أندهش.

كانت الأشجار المتراصَّة فى سفح الجبل معتمة تحت ضوء القمر، وتكمل صورة الوحشة.

قال الرَّاهب: نحن نواصل ما تبقى لنا من حياة بسبب لحظات من دهشة يمنحها الرَّب لنا، ويوم أن تمتنع عنَّا الدَّهشة تماما سنموت.

وتنهد الرَّاهب "يوأنَّس" قبل أن يقول: الطَّيور المهاجرة أمنت شر الإنسان هنا، فاقتربت من الأرض، أنا أطلب من ربِّنا أن يريك كيف يضع الذئب رأسه فى حجر القدِّيس "مرقس".

- لماذا ألقيت بنفسك فى هذه الصَّحارى يا مقدس "يونَّاس"؟! لماذا تركت ونس النَّاس؟

- لأنغمس فى ونس ربِّنا يسوع المسيح.

- لا نبحث يا مقدِّس عن ونس الله، إلا عندما تتعبنا الوحدة فى الدُّنيا، ماذا عملت معك الدُّنيا؟

نظر الرَّاهب "يوأنَّس" فى عينى "حجيزى"، كانتا متوهِّجتين، ويلمع فيهما القمر الصَّاعد، وكان فيهما شيء آخر دفع الرَّاهب لمحاولة الوقوف على قدميه كالملدوغ، وهو يهمهم بغضب: أنا المخطئ، سأظل لا أتعلَّم أبدا أننى مع "يسوع" أفضل جدًّا، وأننى مع البشر فى خطر وحزن، أنا ذاهب إلى قلايتى.

"لابد الدُّنيا عملت معه عملا مشينا، وإلَّا ما كان غضب هكذا، ماذا عملت معك الدُّنيا يا مقدِّس؟!".

كانت أصوات قدمى الرَّاهب فوق الصُّخور تخفت وهو يبتعد، بينما صوته يصل إلى أذنى "حجيزى" واضحا، رغم ارتعاشة نبراته التى تؤكِّد أنه يبكى، كان يتوسَّل بإلحاح: يارب لا بغضبك تُبكِّتنى، ولا بزجرك تؤدِّبنى، ارحمنى يارب فإنى ضعيف، اشفنى يارب فإن عظامى وهنت، ونفسى جزعت جدا.

عاد "حجيزى" إلى وحدته المستحكمة، بعد أن اختفى صوت الرَّاهب تماما، ليعاوده الإحساس بأنه يخوض فى مغامرة، مغامرة كبيرة، سيكون عليه فى الصَّباح أن يبدِّل دينه.

"ما المشكلة؟ ربما دين هذا الرَّاهب هو الذى سيحل مشكلتى، سأتبع مسيحهم، وسأرى إن كان يمكنه حفظ جسدى بعد الموت أم لا! الرَّاهب

"يوحنا" هو الذى حفظ الماء فى بئر الوعرة، ولو لم يقدِّم لى هذا المسيح ما أضمن به حفظ جسدى بعد الموت سأتركه، وأعود إلى دينى".

شعر "حجيزى" بأنه يحتاج الآن إلى كوب من الشَّاى الثَّقيل، ففتَّش فى أمتعته عن الشَّاى والسُّكر، أخرجهما فى كيسين من القماش الأبيض الذى حال لونه إلى الإصفرار، ثم ذهب يجمع بعض الحطب، من تلك الشجيرات الصَّغيرة النابتة بين الصُّخور، القمر يضىء الصَّحراء، وكل ما حوله يبدو واضحا تماما.

"لماذا ينقبض قلبى هكذا؟"

بضعة طيور تتصايح، وهى تعبر فى السَّماء القريبة، تبدو منزعجة، تمد رقابها، ورغم بُعدها عن "حجيزى" إلَّا أنه تخيل فى عينيها نظرات قلقة.

"لابد أنها طيور تخلَّفت عن السِّرب الكبير".

"ستبدل دينك، ولا تريد لقلبك أن ينقبض؟! طوال عمرك أنت مسلم، تؤمن بإله عزَّ وجلَّ ليختفى خلف الغياهب والحجب، ثم فى آخر عمرك، تؤمن بإله.....".

وتجلَّى صوت "سعدون" السَّاخر، ممزوجا بشهقات ضاحكة: طالما يأكل ويشرب مثلنا، يبقى فى بطنه خراء مثلنا، هؤلاء بهائم لا يعملون عقولهم يا حجيزى.

جمع الحطب، صبَّ من القربة ماء قليلا فى "كوز" صفيحى صغير، وضع شايا وسكَّرا، ومزجهما بالماء، مستعملا قطعة من أغصان الشُّجيرات الجافة.

"يخرأ، أو لا يخرأ، أنا أعبد من يقدر على حل مشكلتى، أنا لا أريد أن أُدفن بعد موتى، أريد أن أبقى فى هذه الحياة التى شاركت فى صنعها، الذى عزَّ وجلَّ قال: المسلم يُدفن. ثم اختفى خلف الحُجب، الرَّاهب يونَّاس قال:

المسيح قام من الأموات، وكل مسيحى يقوم من الأموات. الرَّاهب يونَّاس لا يقنعنى، غير فاهم، لكن ربهم يضع الفكرة فى رأسه، يحترم جسده، ويُحيِيه، ويهرب من قبره، رافضا الدَّفن".

أعمل "حجيزى" القدَّاحة فى الحطب، انبثق اللهب من بين لسانى الحديد، وتوغَّل داخل فراغات ما بين الأعواد الجافة، والتصق بها، لتتأجَّج النَّار، لكن ما إن وضع "كوز" الشَّاى عليها، حتى حدث ما هو عجيب، دفقة من هواء، كأنها خرجت من فتحتى أنف ناقة نافرة، ارتطمت بكومة الحطب المشتعلة، فأطفأتها.

لم يندهش "حجيزى" كثيرا، رغم أن هذه هى المرة الأولى فى حياته التى تنطفئ نار أشعلها، من غير ريح عاصفة، أو مطر غزير، بل لمجرد دفقة هواء ضالَّة فى الأجواء، ولماذا يندهش أصلا؟ فكل ما حوله كان غريبا، جبل، أشجار، كهوف مغلقة على رهبان يشبهون أشباح الموتى، وفكرة اتِّباع دين النصارى، وطيور مهاجرة قريبة من الأرض.

أعمل "حجيزى" القدَّاحة فى كومة الحطب مرَّة أخرى، ونبتت النِّيران من بين الأغصان، وعندما تأجَّجت، وعلت ألسنة اللهب، وضع "حجيزى" "كوز" الشَّاى مرَّة أخرى داخل الكومة المشتعلة، لكن دفقة الهواء ارتطمت ثانية بالنَّار، فأطفأتها.

وقبل أن يفكِّر "حجيزى" فيما يحدث، ضربت قلبه هذه الصَّرخة التى انسابت فى صمت الصَّحراء، قادمة من ناحية أحد كهوف الجبل، صرخة حادَّة، رفيعة، ممتدَّة، ممتلئة بالهلع والرُّعب، فوقف شعر رأس "حجيزى"، حتى تخيَّل أن عمامته تتحرك ناحية السُّقوط إلى كتفيه.

ثم سمع عواءا ممتدًّا، عواء لايخطئه أبدا، فنظر ناحية العواء، ووجده هناك، يقف على صخرة ناتئة بين الأشجار، يرفع رأسه ناحية القمر، فاتحا فكَّيه نصف فتحه، كأنه يبكى.

الذِّئب.

10

قَلبِى يَرعَى فِى مُــرُوجِ البـِنتِ

"أحبُّك يارب، فقوِّنى، أنت أيها الرَّب ثباتى وملجأى".

دموعه تنساب على وجنتيه، دافئة، وتائهة.

يضع كفَّه اليمنى على شق صدره الأيسر، ويعصر ثديه، يكاد يخلعه، كأنه يريد أن ينتزع قلبه، أو يقبض على جذوة مشتعلة فيه، فيفتِّتها ويطفئها.

"لا نبحث عن ونس الله، إلا عندما تتعبنا الوحدة فى الدُّنيا، ماذا عملت معك الدُّنيا يا مقدِّس يونَّاس؟".

"كنت نسيت ما فعلته الدُّنيا معى يا راعى الغنم، لماذا ذكَّرتنى يا بدوى؟".

*****

أحبُّك يارب، يا "يسوع"، وأنت تعرف "صبحى"، عبدك الذى غمرْتَه أيضا بمحبتك، "صبحى"، ابن القروى الفقير "فهيم" الإسكافى، الذى سكن فى نجع صغير، تابع لإحدى قرى مديريَّة "جرجا"، نجع "أبو ليلة"، الذى فيه كنيستك العتيقة، والتى تحيط بها بيوت المسلمين، فلا نستطيع توسعتها.

وفى يوم قلت لأبى: لماذا بنيتم الكنيسة بين بيوت المسلمين؟

فقال: المسلمون هم من بنوا بيوتهم حول كنيستنا.

كان أبى يوما يجلس على أكمه من ثرى دَكَّه الزَّمن، رَبَضَت فى أول حارة النَّصارى، حارتنا المفتوحة فى نهايتها على الحقول البراح، يدق نعل حذاء مهترئ بالمسامير، توقف عن الدق، وأشار بسبَّابته ناحية الكنيسة، التى حال لونها الأبيض إلى لا لون محدَّد، وسقطت مساحات واسعة من جير طلائها القديم، بينما بدا برجها الخالى من الجرس، مثل خيال مآته، نُكت فى قِمّته صليب صدئ، سقط جناحه الأيمن، وقال: أنظر لكنيستنا، وانظر لبيوتهم، كنيستنا قديمة، بناها أجداد الأجداد، وبيوتهم جديدة، كنيستنا الأصل، وبيوتهم طارئة.

قلت: كيف استطاعوا أن يبنوا بيوتهم حول كنيستنا؟

ابتسم أبى، وعاود دق المسامير فى النعل، ثم أخذ نفسا عميقا، وقال: بنوا بيوتهم لما فرَّطنا لهم فى أراضينا، نحن يا ولدى من تسبَّبنا فى هذا الوضع.

- لماذا لا نضع جرسا فى برج كنيستنا، القسِّيس يقول إن لأبراج الكنائس أجراس.

- صليل الجرس يضايقهم، قالوا لنا: إنكم قليلوا العدد، وكلكم تسكنون بجوار الكنيسة، ليس منكم من يسكن بعيدا حتى تنبهه الأجراس لمواعيد الصَّلاة.

- إنهم يكرهوننا يا أبى.

بدأ "فهيم" يخصف النعل بنصل حاد، قال: لو كانوا يكرهوننا ما أطفأوا النَّار التى كادت تأكل كل حارتنا، لولاهم لاحترقت أمُّك، وما خرجت أنت إلى هذه الحياة، المسلمون وقفوا معى فى مآزق عديدة، لم يقف معى خلالها أعمامك المسيحيون.

- إذن يكرهون "المسيح".

- "المسيح" فى قرآنهم رسول كريم، يخلق مثلما يخلق الله، يعترفون أنه أتى من غير أب، وأن أمَّه العذراء بتول طاهرة، لو أراد لهم "يسوع" خيرا لفتح بصائر قلوبهم أكثر، وكانوا فهموا أن من ليس أباه الإنسان، لابد وأن يكون أبوه الله نفسه، إنهم يحبُّون "المسيح" على قدر فهمهم يا "صبحى".

"الحيرة بدت فى عينى يا يسوع، أنت رأيتها ولا شك، كما رآها فهيم أبى، وألقيت فى روع أبى أن يقول كلماته الغريبة: إنهم احتلوا بلادنا منذ زمن طويل، والمحتل يتكلم دائما بلسان القوة، ويعشق السَّطوة وفرض الإرادة".

- من الذى احتل بلادنا يا أبى ؟!

"فهيم" هو الذى امتلأت عيناه هذه المرة بالدَّهشة، وهمس: ألم يخبركم القسيس أبدا عمَّن احتل بلادنا ؟!

- لم أحضر كل دروس القسِّيس.

- المسلمون يا بنى، المسلمون هم الغزاة المحتلُّون، صحيح هم لم يكرهوننا مثل أى غاز سابق، لكنهم أحبُّوا السَّطوة، وفرض الإرادة.

- من أخبرك بهذا يا أبى ؟!

- السَّفر يا "صبحى"، البلاد كتب ضخمة، ومعاملة النَّاس أعظم دروس.

"ها أنت ترى يا يسوع، أننى نشأت أحمل همَّ كنيستك، مشغول بقضاياك، وكان يجب أن تضع بين يدى نورا أهتدى به، ولا تتركنى لظلمات نفسى، فأتخبَّط فى صخور حياتى، وأغرق فى بحورها".

حزن أبى لما قرَّرت السَّفر، وقال لى: أول ما تسافر تسافر للرِّزق؟ السَّفر للأرزاق يطول يا ولدى، ولا يعرف الإنسان متى يعود منه إلى بيته وناسه.

لكنَّه فرح أيضا، وقال لى: الرِّجال هم من يسعون وراء أرزاقهم، أنت رجل يا "صبحى".

وقال لى: سافر إلى "أسيوط"، بلاد الرَّب المباركة، هناك أصل جذور عائلتنا، وهناك سيحفظك "المسيح".

"أنت الوحيد الذى تعرف السبب الحقيقى لمغادرتى القرية، الغضب يا يسوع، الغضب لأجلك، فما كان ممكنا أن أبقى فى بلد لا تستطيع كنيستك أن تتَّسع فيه، ولا حتى أن تُطلى بطلاء جديد، ولا أن يَدُق فيها ناقوسك المبارك، حتى صليبك المكسور لا نستطيع إصلاحه، كما أنك يارب ترى شعبك القليل ذليلا فيها، لسنا أكثر من خدم للمسلمين، وزعوا أجدادنا وآباءنا على قبائلهم، صار شعبك عبيدا، ترى عيونهم مملوءة بسطوة السِّيادة، وترى عيوننا مملوءة بهوان الذُّل، أسمع أن عنايتك مسبوغة على شعبك فى "أسيوط"، أسبغ على عنايتك يا يسوع".

ودَّعت أمِّى النَّائمة منذ زمن فى فراشها تأكلها الأمراض، وكان الوداع الأول والأخير، وقتها نَظَرَت فى عينى، نظرة طويلة، ثم تحوَّلت عيناها لتجول فى كل وجهى، ونزلت إلى رقبتى، وإلى صدرى، مدَّت يدها الشبيهة بغصن جاف متيبِّس، فمددت لها يدى، فَخَمَشَتها، جذبتنى لأجلس على حافَّة فراشها، فجلست، كان المكان معبأ برائحة المرض، الممزوجة برائحة الفقر، لا شمس تدخل هذا الخُن المسمى بيتا، الإضاءة تنسل من طاقة ضيِّقة اقتربت من السَّقف، أوان ملقاة هنا وهناك بغير عناية، ملابس مكوَّمة ومشتبكة ببعضها مثل أفاع وليدة، تمرح الصَّراصير فوقها، لا يمكن لآدميِّين العيش فى مثل بيوتنا، لكن تعيش فيها الجرذان والثَّعالب، تألفها حيوانات الجحور.

فهمت نظرات أمِّى بعد ذلك بسنين طويلة، نظرات المودِّع، نظرات من لن يراك مرَّة أخرى، فيريد أن يحتفظ بكل التفاصيل، يتفحصّك، ليذهل من كونه يرى ما لم يره من قبل، وأن من عاش معه العمر الطَّويل، لم يكن هو نفسه هذا الواقف أمامه فى لحظة العمر الأخيرة.

*****

علت صرخة الرَّاهب "برسوم"، تلك الصَّرخة الحادة، الممتدَّة، ثم عواء الذِّئب، انفتحت عينا الرَّاهب "يوأنَّس"، بعد أن خطفتها صرخة الرَّاهب، وعواء الذِّئب، من رؤية زمن غائم بعيد، إلى رؤية حاضر مرسوم بوضوح، فنهض واقفا على قدمين واهنتين، واتَّجه إلى فتحة الكهف، المغطَّاة بستارة من جلد الماعز، أزاحها، فتدفَّق نور القمر المكتمل إلى الدَّاخل، وانسابت معه نسمات باردة منعشة، وسطع النُّور أيضا على وجه "يوأنَّس"، فبدا قدِّيسا مهيبا.

تحرَّك إلى خارج المغارة، واستند إلى حاجز من صخور ناتئة، ونظر إلى أسفل، حيث الأشجار البادية فى نور البدر، مثل قطع من عتمة تأبى المغادرة، كان الذِّئب مقعيا على الصَّخرة البارزة بين الأشجار، يرفع رأسه، ويعوى، وكان شبح "حجيزى" متصلِّبا، جالسا القرفصاء أمام خيط من دخان، يتصاعد ليتمزَّق ويتشتَّت بفعل الرِّيح الهادئة، التى تسرح فى ليالى الصَّحراء السَّاكنة، كان شبح "حجيزى" ينظر ناحية الذِّئب.

دق قلبُّ الرَّاهب "يوأنَّس"، وقلَّب وجهه فى السَّماء السَّوداء المتلألئة بالنُّجوم، وقال لنفسه: توقعت يارب أن تسبغ نعمتك على راعى الغنم الضَّال، سُقه إلى حظيرتك بمحبَّتك.

قفز الذِّئب من فوق الصَّخرة، وخطا خطوات قليلة فى اتِّجاه "حجيزى" الذى تحوَّل إلى صنم جالسا القرفصاء، توقف الذِّئب، ومطَّ رقبته وعوى، ثم بدأ يخطو مقتربا من "حجيزى"، خطوات قاتل يستعد للفتك، ناباه بارزان، ونار حمراء تطلع من عينيه الصَّفراويين، وكان "حجيزى" أيضا ينظر فى عينى هذا القادم بالشَّر، ثم بدأ الذِّئب يتحرَّك حركة غريبة، يُميل رأسه مثل كلب يبدأ الموالفة، ولتختفى من عينيه نظرة الإفتراس!

وبدا أن "حجيزى" قد عادت الليونة إلى جسده، فها هو يحاول الوقوف، لكنَّه ثبت فى قرفصائه لمَّا سمع زعيق الرَّاهب "يوأنَّس" يأتيه هادرا من فوق الجبل: اثبت مكانك يا "حجيزى"، وتقبَّل هدية الحَمَل الوديع، اقْبَل الذئب، يَقبَلك الخروف.

*****

كان عمرى لم يتجاوز الخمسة عشر عاما لمَّا عملت فى محل المعلِّم "نظير تكلا"، سنِّى صغيرة عن تحمُّل متاعب الأرزاق، هشَّة عن حمل الهم، وأنا قروى

غريب فى مدينة "أسيوط" الواسعة، لكنى رغم ذلك صرت أحسن حالا بكثير، صرت أمسك النِكْلَة بيدى، وأرى التعريفة والقرش فى يد المعلِّم، وهو يعد نقوده لأى سبب من الأسباب، ورأيت المعلِّم، رغم أنه نصرانى مثل ناسى فى نجع "أبو ليلة"، عزيزا فى مكانه، يُجالسه التُّجار المسلمون، يشربون الشَّاى ويضحكون، ويدخِّنون الجوزة فينفلت وقارهم، ويتكلَّمون عن النِّساء بكلام أفهم بعضه، ولا أفهم بعضه الآخر، لكنَّهم كانوا يقهقهون مثل المساطيل.

وعندما ينتهى العمل، أذهب إلى غرفتى على سطح العمارة التى يمتلكها المعلِّم "نظير"، ويسكن فيها أيضا.

الليل كئيب، دائما الليل كئيب، فى نجع "أبو ليلة" كئيب، وفى "أسيوط" كئيب، لأنه فى "أسيوط" عندما كنت أتمدَّد للنوم كنت أتذكر نجع"أبو ليلة".

ومرَّت الليالى السَّوداء يا سيِّدنا، ومع كل نكلة أدَّخرها يخف سوادها، ولمَّا صار معى خمسون قرشا عشت ليلة ولا كل الليالى، لم أر ظلاما، ولا أحسست بسواد، وإنما تراقص أمامى حلم كبير، أن أصبح صاحب محل "منيفاتورة" مثل المعلِّم "نظير تكلا"، وأكون قويا مثله، وأجلس فى شارع السُّوق، أمام دكانى، معلِّما محترما بين المعلِّمين، نصارى ومسلمين.

وعندما صار معى جنيه ورق كامل، طار النَّوم من عينى، وأخذت أقلِّب الجنيه أمام اللمبة العويل، وأتأمل رسوماته، جَمَل واقف وجَمَل قاعد، وألوان حمراء فاتحه تحيط بهما، وكلام مكتوب لا أفهمه، أربعة جنيهات أخرى وأستطيع أن أنفرد بتجارة تخصُّنى وحدى.

تعرف يا "حجيزى"، هذا الجنيه استنزف من عمرى سنتين كاملتين لكى أجمعه، عرفت هذا لأن طارقا طرق باب غرفتى هذه الليلة، وعندما فتحته،

رأيت المعلِّم "نظير"، وبجانبه وقف أبى، الذى انهار باكيا، وأخذ يولول، وصوته يخرج مخنوقا، يقول: سنتان يا ابن الكلب! سنتان لا تسأل عن أب أو أم، طيِّب أمُّك ماتت يا "صبحى".

أمِّى ماتت، وما المشكلة فى أن تموت أمِّى؟ عاشت لا تنفعنى بشئ، ولا أنفعها بشئ، ما فائدة حى لا يفيد؟! ميِّت نافع أفضل.

- الميِّتون ينفعون يا مقدِّس "يونَّاس"؟!

- لو ورَّثونا نفعونا يا سيِّدنا.

أمِّى ورَّثتنى الصَّلاة، كانت فى الفارغة والمليانة تضم أطراف أصابعها إلى بعضها، وتنقرها نقرات متتالية على صدرها وجبهتها، تُصلِّب كثيرا، من غير أن تهمس بكلمة، كانت لا تعرف أى كلمة من الإنجيل، ولا تحفظ شيئا من كلام الصَّلوات، أقول لك، كانت لا تفهم حكاية "المسيح" الذى جاء إلى الدُّنيا من غير أب، لم تصدِّق هذا أبدا، وكانت تعتقد أن ستَّنا "مريم" تزوجت صاحبها "يوسف" النَّجار سرا، وأنجبت منه "المسيح".

لم يكن أبى يتحدَّث إليها كثيرا، تعرف أنت طبائع الرِّجال، خاصَّة فى "الصَّعيد" القاسى، الصَّمت، والصَّمت فى البيوت يقتل العِشرة، كان إذا تكلَّم معها ينهرها بسبب ضعف إيمانها، ويقول لها: ما فرقت عن المسلمين فى شئ.

كانت أمُّى تعبد إله المسلمين من غير أن تدرى، وكانت هناك صورة كالحة للمسيح مصلوبا، معلَّقة على الجدار، أبى يهتم كثيرا بأن ينظر إليها وهو يصلِّى ويدعو، لكن أمِّى كانت تصلِّى وتدعو وهى رافعة وجهها للسَّماء.

وفى يوم نهرها أبى: متى تُقبل صلواتك وأنت لا تنظرين إلى صورة الرَّب "يسوع" المسيح؟

يومها قالت كلمة لم أفهمها، كانت غريبة، فبقيت لاصقة فى عقلى، حتى فهمتها لمَّا وعيت، قالت: أنت تنظر يا "فهيم" إلى الصُّورة طول عمرك وما فهمت شيئا، أنا نظرت إليها مرَّة واحدة، وفهمت كل شئ، ها هو "المسيح" نفسه يا "فهيم" يرفع وجهه إلى السَّماء، وينادى أحدا فيها، من هذا الأحد إن لم يكن الله الكبير؟!

أمى ورَّثتنى حبَّ الصَّلاة، وورَّثتنى هذه الجملة التى قالتها لأبى، وفقط.

الجنيه الثانى جمعته لمَّا اكتمل من عمرى عشرون عاما، ووضعت الجنيهين بجوار بعضهما، وأخذت أنظر إلى الجَمَلين الواقفين، والجَمَلين القاعدين، وأحلم باليوم الذى يكتمل لى فيه عشرة جِمَال واقفة وقاعدة، فى هذه الليلة، فتحت البَّاب لما سمعت صوت طرقات خفيفة تصدر منه، ورأيت المعلِّم "نظير"، وبجواره وقف عمِّى "نعيم"، المعلِّم "نظير" تركنا، وعمِّى "نعيم" دخل غرفتى، وجلس على فرشتى المبسوطة على الأرض، وقال: خمس سنين لا تأتى البلد لتطمئن على ناسك، يا قلبك القاسى يا "صبحى"، طيِّب، أبوك مات هو الآخر.

أبى ورَّثنى بيتا حقيرا، مثل جحر الثَّعلب، قال لى عمِّى "نعيم": ارجع وافتح البيت، حرام يخرب.

قلت له: افتحه أنت يا عمِّى.

وأعطانى كيس نقود فيه خمسين قرشا فكَّة، وبصمت على مبايعة البيت له.

تعرف يا "حجيزى"، حزنت على أبى حزنا عميقا، حتى أنى لم أفتح كيس النُّقود، رغم أن خمسين قرشا كاملة، ستوفِّر لى من عمرى سنة على الأقل، لكن الوالد جِذر عفى فى دنيا الرِّجال، وانقطع الجِذر.

سألت عمّى قبل أن يمضى إن كانوا قد ركَّبوا ناقوسا فى برج الكنيسة، فقال وهو يشوح بذراعه: الأول نصلح الصَّليب المكسور!

*****

القمر يصب النُّور صبا، الرِّمال تقذفه متوهِّجا، النِّسمة عليلة، وقلب "حجيزى" يدق، دقَّاته تضج فى الصَّحراء مثل طبل رتيب منزعج، وعيناه مثبتتان فى عينى الذِّئب الخابيتين، الذِّئب الذى يقترب منه متسحِّبا، كان "حجيزى" قد عاد لجلسة القرفصاء لمَّا سمع زعيق الرَّاهب "يوأنَّس، وهو يأمره بالسُّكون مكانه.

لكن ها هو الرَّاهب صوته يدوِّى من فوق الجبل: اجلس يا "حجيزى" اجلس على مؤخِّرتك، وارخ فخذيك.

وتهلَّل صوت "يوأنَّس" عميقا، كأنه نازل من ملكوت السَّماء: سبِّحوا الرَّب تسبيحا، لأن الرَّب يصنع عجائب.

كان الذِّئب قد اقترب من "حجيزى" جدا، فلم يكن أمامه غير أن يخضع للأمر، فجلس، بينما رأسه بكامل انتباهته يصوِّب نظراته نحو هذا المتقدِّم صامتا، نحو صناعة العجيبة.

خيطا دخان واهنان يتصاعدان من كومة النَّار المطفأة، وثلاثة طيور أطلق أحدها صياحا، وهى تمرق نحو الشَّمال فوق الشَّجرات المتراصَّة، وليس بين

الذِّئب و"حجيزى" أيَّة مسافات، حتى أن "حجيزى" بدأ يحرِّك رأسه إلى الوراء ببطء، وفجأة، الذِّئب أقعى مثل كلب.

وبينما الرَّاهب "يوأنَّس" يهبط فى المدق الضيِّق بين صخور الجبل، مسرعا بحول عجوز، متساندا على عصاه التى ليست أكثر من جذع شجرة رفيع ويابس، أراح الذِّئب رأسه على فخذ "حجيزى" المرتعش.

رأى "يوأنَّس" تمام المعجزة، فزعق وهو يهبط: سبِّحوا الرَّب فى الأعالى، الحى الذى ما توقَّف عن إعطائنا المعجزات، يا "مرقس"، يا "برسوم"، أخرجوا من كهوفكم وانظروا صنيعة الرَّب، يا "حنَّا"، تعال متِّع قلبك بمعجزة "يسوع".

كان الرُّهبان يطلّون من قلاليهم الصَّخرية، الكهوف، وينحدرون ببطء نحو الرَّاهب "يوأنَّس"، الذى يقترب من "حجيزى" والذِّئب، وهو يزعق بصوت يتهدَّج بالبكاء: يا "شنوده"، يا "متَّى"، تعاليا مجِّدا "المسيح" الحى.

وعندما اقترب "يوأنَّس" من "حجيزى" ألقى عصاه، وانكب يقبِّل رأسه، وهو لا يتوقَّف عن الكلام: قَبِلت الذِّئب يا "حجيزى" فَقَبِلَك الحَمَل، لن نعمِّدك بالماء، فأنت تعمدَّت بيد "المسيح" نفسه، تعمدت بمعجزة.

بلَّلت دموع "يوأنَّس" عمامة "حجيزى"، و"حجيزى" صامت مدووش، والتف حوله الرُّهبان بلحاهم الكثَّة المشعثة، وشعور رءوسهم المتنافرة، كأنهم أشباح، صعدت أصواتهم الهادئة، يترنَّمون كأنهم يغنَّون: هالولويا. هالولويا. من هؤلاء الطَّائرون كسحاب، وكالحمام إلى بيوتها.

قال "يؤأنَّس" لـ"حجيزى": الأرض يرثُها الودعاء يا وديع.

همس "حجيزى" بصوت متحشرج: هذا ذئب أم كلب؟!

ابتسم "يؤانَّس"، ومسح عينيه من الدُّموع، وقال: سؤال ما يسأله بدوى أبدا يا قس "وديع".

نظر "حجيزى" فى وجه الرَّاهب "يوأنَّس"، ولم يكن باستطاعته أن يندهش أكثر، كان قد بلغ قمَّة الاندهاش عندما وضع الذِّئب رأسه على فخذه.

قال "يؤانَّس: ما يجب أن يُقال لك الآن يا "حجيزى"، ولكن يا سيِّدنا.

همس "حجيزى" بصوته المتحشرج: لكن أنا ما عرفت إجابة الشَّرط، ما عرفت كيف لا أدفن بعد أن أموت!

رفع "يؤانَّس" وجهه إلى صفحة القمر البرَّاقة، الذى مال نحو الغرب، وقال: أنا هو القيامة والحياة، من آمن بى ولو مات فسيحيا.

ثم نظر إلى "حجيزى"، بوجه ملأه السُّرور إلى الغاية، وقال بصوت يكاد يرقص: فكيف و"المسيح" بنفسه قد آمن بك!

*****

المعلِّم "نظير" تعب من مرض "السُّكر"، وطاف فى أواخر أيامه على المستشفيات والعيادات، فى "أسيوط"، وفى "مصر"، حتى أطبَّاء الجيش الانجليزى، فلم ينفعه طب ولا دواء، وكنت أنا الذى أدير المحل، طوال فترة غيابه فى رحلات البحث عن علاج، وفى ليلة طرق باب غرفتى طارق، قلبى ارتجف، لا أحد فى العادة يطرق باب غرفتى، تمر الأشهر وباب غرفتى صامت، والمرَّات القليلة التى حدث فيها غير ذلك، كانت مربوطة بموت أحد ما، موته يوجع قلبى.

فتحت الباب، كانت السَّت "جميلة" زوجة المعلِّم "نظير"، قالت بأعصاب هادئة: عمَّك "نظير" يموت، وطلب أن يكلِّمك.

لما دخلت من باب الشقَّة، رأيت "سيرين"، فأحسست بضربة فى قلبى، وشعرت بروحى تحترق، كانت "سيرين" تقف حزينة، ودموعها تجرى ولا تقف، لم يكن المعلِّم "نظير" يسمح لها بالمجئ إلى المحل أبدا، يقول: السُّوق مليئة بالرعاع والأوباش.

ولم أكن رأيتها فى كل هذه السِّنين سوى مرَّة واحدة، لمَّا كان عمرها فوق العشر سنوات بقليل، الآن عمرها ستَّة عشر عاما أو سبعة عشرة، وفاضحة الجمال، ودموعها غسلت وجهها بحسن فتَّان، وغمزت لها السِّت "جميلة" بعينين عابستين، فاختفت فى حجرة جانبية، لكنَّها سطعت فى قلبى.

كان المعلِّم "نظير" غاطسا فى فراشه، ولولا رأسه المنحوت على الوسادة المحشوَّة بالحرير ما رأيته، أغلقت السِّت الباب من الدَّاخل، ووَقَفَت تنظر إلينا.

دعتنى عيناه للاقتراب، فجلست بجواره، ولصقت أذنى بفمه، لم تكن أنفاسه لها العزم الذى أعرفه، لما كان يقهقه فى جلسات الأنس مع أصدقائه التُّجار أمام المحل، كانت أنفاسه ميتة.

همس: لى خمسة من الإخوة، ولك خمس سنين معى، هل رأيت منهم واحدا؟

هززت رأسى بالنَّفى.

قال: كتبت كل ما أملكه لـ"سيرين" وأمِّها، لكن المحل ستديره أنت، المحل يا "صبحى" لا يذهب بعيدا، ووقت أن تفكِّر "سيرين" فى بيعه، اشتره أنت.

وعندما ابتعدت برأسى عنه، همس: اقترب.

اقتربت، فقال: إياك و"سيرين"، "سيرين" بنت "نظيم تكلا"، من أكبر تجار المانيفاتورة فى "أسيوط"، مدينة "المسيح" المباركة، لكن أنت مهما فعلت ستظل ابن "فهيم" الإسكافى، القادم من نجع فى إحدى قرى مديرية "جرجا"، لا تدق فيه أجراس الكنائس.

ارتجف قلبى، ودار رأسى، وزحفت يده العجفاء، وامتدت إلى التَّسريحة، نحو جنيه أحمر، فيه جَمَلان، أحدهما واقف، والآخر رابض، قرَّبه منِّى، وهمس: خذ هذا الجنيه، واحفظ الوصيَّة.

صعدت إلى غرفتى، وفى نور اللمبة "العويل" رأيت أن المعلَّم "نظير" قد وجَّه لى لكمة وعرة، كأن الرَّجل كان كاشفا لحلمى طوال الوقت، لكنِّى يا معلِّم "نظير" لم أحلم يوما بـ"سيرين"، فلماذا تحذِّرنى من التفكير فيها، ولماذا قلت لى الآن ما لم تقله لى يوما أبدا، الكلام الذى يذكِّرنى بأننى ابن صرماتى حقير؟

رصصت الجنيهات الثلاثة، وأخذت أتأمل الجِمَال السِّتة، لماذا لا يقوم الجَمَل النَّاخخ أبدا؟!

تعالت طرقات خفيفة سريعة على الباب، لابد المعلِّم "نظير" قد مات، ولمَّا فتحت الباب، طالعنى وجه "سيرين" متلألئا بدموعه، فسقط قلبى يا سيِّدنا فى هوَّة حبها.

"أنت إنسان يا يسوع، لكنَّك إله وابن إله، لا يغويك جمال النِّساء، ولا عطورهن، ولا هذا الشُّعاع الذى ينبثق من قلوبهن ليقيِّد قلوبنا، دعكت

المجدليَّة قدميك بعطرها، وما تحركت فيك ذرَّة حب، ولا ذرَّة عشق، لكن مَن مِن الرِّجال يمكنه أن يفلت من غواية عينى سيرين، وأنا شاب فائر، يحمل بين ضلوعه قلبا غشيما، لم تصقله من قبل تجربة، وأنت يارب فى الأعالى، تضع النِّساء فى طريقنا، والحبَّ فى أرواحنا".

فى الصَّباح جهَّزنا المعلَّم "نظير" للدَّفن، ووضعناه فى تابوت لونه بنى، يلمع خشبه مثل مرآة، ثم دفعنا بالتَّابوت إلى داخل عربة مزوَّقة بالمذهَّب، يجرها حصانان، وتَثبَّت فى سطحها العلوى من أمام ملاكان من خشب، ومن الخلف أيضا، ومشى أمامها صفان من رجال يلبسون بذلات كاكية متشابهة، مثل عساكر الإنجليز، وينفخون فى أبواق نحاسية كبيرة، فيصدر منها عويل رهيب.

أمشى فى الجنازة، لا أرى عربة حمل الموتى، ولا التَّابوت الذى تسجَّى فيه جثمان المعلم، وإنّما كنت أرى جسد "سيرين" المحشو حياة معبأ فى ملابس سوداء، يتساند من فرط الحزن على أكتاف نسوة مشفقات، وكنت أرى روح المعلِّم تحلِّق فوق رأسى، وتهمس بصوتها الميِّت: إحذر.

تعرف يا سيِّدنا، ربما لو لم يحذِّرنى المعلِّم "نظير" من التفكير فى "سيرين" لما فكَّرت فيها، ولما كانت المأساة، ولما كنت الآن هنا، أحكى معك وحولنا كل هذا الخواء.

تعرف، ربما لو لم يحذِّر الله أبينا "آدم" من أكل ثمار هذه الشَّجرة الملعونة، ربما لو لم يخلق له "حواء"، ربما لو لم يَجمع عليه غوايتى "إحذر" و"حواء"، لما كانت كل هذه البشرية تعانى فى هذه الأرض القاسية، التى لا تعطيك شيئا إلا وتأخذ مقابله جزءا من عمرك معجونا بالآلام، مسكين "آدم"، يلومونه فى

الكنائس والأديرة على خطيئته، وأبسط منها يقعون فيها بكل يسر، ثم يكرِّرون قصة النَّفى.

الله نفى "آدم" من الجنَّة إلى الأرض، ونحن ننفى أنفسنا من ونس الدُّنيا إلى وحشة الصَّحراء.

وأنا واحد من ملايين البشر الذين قُدِّر عليهم أن يكونوا أبطال نفس الرِّواية، حاصرتنى غوايتا "إحذر" و"سيرين"، المعلِّم "نظير" قال لى: إحذر أن تأكل من هذه الشَّجرة، إن أكلت منها موتا تموت.

لكن "سيرين" قالت: كل من هذه الشجرة تحيا يا مغفَّل.

لن أكون أبدأ أكثر إيمانا من "آدم"، الذى خلقه الله بيديه، أكلت مثله.

ما أن انقضى أسبوع العزاء، وفتحت الدكَّان، حتى وجدت "سيرين" تدخل، فستانها أسود، ووجهها أبيض مخضَّب بلون الورد، وشعرها حرير ذهبى يسيح خلف رقبتها، وكل هذا الجمال امتزج بمرح طفولى آسر، من يستطيع أن يربط قلبه عن الرَّعى فى مروج بنت مثل "سيرين"؟! لا أحد، و"المسيح" الحى لا أحد، و"المسيح" الحى يعرف هذا.

أنا ارتبكت، قالت: صباح الخير يا"صبحى".

يااااه، كم هو اسمى جميل، "صبحى"، كل النَّاس نادت علىّ، وقالت "صبحى"، لكن صوتها كشف لى ما لم أكن مكتشفه من قبل، إن فى اسمى معنى الصَّباح، وإن فى روحى ضياء.

جلست على الكرسى، وقالت: يا "صبحى" اعمل لى شايا.

وعملت لها الشَّاى، وقدَّمته لها، وأخذته منى وهى تنظر فى عينىّ، وكانت مبتسمة، ومن غير كلام كانت تقول لى: لماذا أنت مرتبك هكذا.

وأنا مرتبك من دخولها المفاجئ إلى عالمى، ومرتبك من نظرات أصحاب المحلَّات والعمَّال، التى ترقب ما يحدث بتعجُّب، أعرف أفكارهم التى دارت فى رءوسهم، البنت ما إن مات أبوها حتى بدأت تمشى على حل شعرها، وجاءت إلى الدكَّان لتجلس بشعرها المنساب بين الرِّجال والشباب.

وكنت مرتبكا من أجل شيء آخر، هذه الرُّوح القلقلة التى أراها تحوِّم حل رأسى، تذكِّرنى بحفظ الوصيَّة، وألَّا أقترب من "سيرين".

أنا لم أقترب أبدا، كانت هى التى اقتربت، حتى التصقت بى.، لم أقترب أبدا، لكنِّى كنت مستعدا للالتصاق بها، بل والانصهار فيها.

فى ليلة، جاءتنى، دخلت غرفتى بعد أن فتحت الباب، لم يكن لها مطلب، كانت فقط تريد دخول غرفتى، جلستَ على حافة السَّرير، نسيت أقول لك يا سيِّدنا إننى اشتريت سرير، المهم، قالت وهى تهز رأسها: يا "صبحى" إعمل لى شايا.

قلت لها: الست "جميلة"....

قطعت كلامى، وقالت: أعطيتها قرصا مهدئا، ستنام حتى الصباح مثل الميِّتة.

قلت: الست "جميلة" تتعاطى مهدئات؟!

بدا الضِّيق النَّاتج عن ضجر، يرفرف فى سماء وجهها الصافى، قالت: منذ الليلة ستتعاطاها.

قلت: لماذا؟!

كان وشيش الوابور خافتا، لكنه كان قد ملأ غرفتى بحالة من التوتُّر، وكنت أضع عينى فى الكنكة، أراقب الشَّاى، الذى لمَّا يبدأ فى الغليان، سيفور منسكبا على النَّار المتدفِّقة.

قالت: أريد أن آخذ راحتى، أريد أن أجلس من غير أن يضغط القلق على روحى، كفانى ما أُصبت به من كبسة أبى على نفسى.

فار الشاى، وارتفعت طبقة كثيفة منه تريد الانسكاب، فرفعت الكنكة من على النَّار قبل هذا الغليان.

قلت: كان خائفا عليك.

قالت: كان خائفا على نفسه، لمَّا كان يعرف أننى تأخرت يوما عن ميعاد عودتى من المدرسة إلى البيت، يترك المحل ويأتى ليضربنى، ليس له ولد ولا بنت سواى، ورغم ذلك كان يضربنى ضربا بشعا، ويزعق: تريدين أن تأتى لنا بالعار!

كان خائفا من العار يا "صبحى".

بعد أن أدرت مفتاح نَفَس الوابور، خرج الهواء المكبوت فى قلب فنطاسه الصغير ليمتزج بهواء الغرفة، فانطفأت النَّار، وخمد وشيشها.

قالت: وأمِّى صارت مثله، تخاف من العار اللابد فى جسمى.

كنت أصب الشَّاى فى الكوب الوحيد الذى أمتلكه، الكوب الذى أخذته من نجع "أبو ليلة"، كان الكوب الوحيد المعمول من زجاج فى بيتنا، ولم يكن ضروريا لى أن أشترى أكواب أخرى، فليس لى ضيوف أقدم لهم شايا فى أكواب.

ولمَّا رفعت وجهى، مادًّا يدى بكوب الشَّاى إليها، رأيت ما لم أتخيَّل أبدا أن أراه، أعجب منظر، أعجب حتى من منظر الذِّئب وهو يضع رأسه مطمئنا على فخذك، أو على فخذ الرَّاهب "بولس".

كانت "سيرين" تفتح بلوزتها، ملابسها العلوية، لتكشف عن صدرها.

"يا يسوع إرحمنى، أنت دعوت الآب ألَّا يضعك فى التجربة، فلماذا تضعنى فيها؟

كنت قد نسيت "المسيح" طوال السِّنين التى مضت، مع أن "أسيوط" هى بلاده المباركة، لكن "أسيوط" هى أيضا بلاد القرش والتعريفة، تعريفة تضعها على تعريفة تصيران قرشا، والقرش على القرش بمرور الأيام يصيران جنيها، وقعدتى مع المعلِّم "نظير" علَّمتنى أن "الجنيه" قوَّة عظمى، والتُّجار المسلمين صاحبوا المعلِّم "نظير" من أجل الجنيه، لا من أجل "المسيح"، النَّصارى فى نجع "أبو ليلة" جيوبهم خاوية إلا من "المسيح"، فلم يُغر "المسيح" المسلمين بالجلوس مع شعبه هناك، الجنيه أقوى من "المسيح"، فانشغلت به عنه، ولم أكن مخطئا، فأى غبى فى هذه الدُّنيا يمكن أن يهتم بالأضعف؟!

كان باب غرفتى مفتوحا حتى هذا الوقت، فقامت "سيرين" وأغلقته، كنت جالسا على كرسى خشبى واطئ أمام عدَّة الشَّاى، وكوب الشَّاى ما زال فى يدى الممدودة، وقلبى يضرب ضلوعى، لماذا تفتح "سيرين" صدرها وتغلق الباب؟!

اضَّطَجَعَت على السرير نصف اضطجاعة، متَّكئة على كوعها، أخذت منى كوب الشَّاى، وصدرها العارى يتوهج بحمرة أشعَّة النُّور الطَّالع من فتيل اللمبة "العويل"، آه يا خطيئتى، وحق "المسيح" بلواى أشق وأصعب من بلوى "آدم"، هو فتنته شجرة، ثمرة ممنوعة، طعام أُكل، لكن أنا فتنتى "سيرين"، شجرة ملآنة بكل أنواع الثِّمار، شجرة حيَّة، لها عينان شبقتان، تقولان "أقبل وكل أيها الجائع"، و"المسيح" الحى بلواى أوعر من بلوى "آدم".

قالت: "بابا" كان يدخل غرفة نومه، فكانت "ماما" تدخلنى غرفتى، تطفئ أضواء الشقَّة، إلَّا من لمبة وحيدة أمام الحَمَّام، ثم أسمع باب غرفة أبى ينغلق برفق، وأحس بوحدة قاتلة تحوطنى، ولولا صورة ستِّنا "مريم" العذراء، الملتصقة بالجدار المقابل لى، كنت مت من الخوف.

فى ليلة قلت لـ"ماما": لماذا تنامين فى غرفة بابا، ولا تنامين معى؟! هو كبير لا يخاف، وأنا صغيرة، وأخاف.

ضحكت، وقالت: الكبار ينامون مع الكبار يا"سيرين".

قلت لها: لكنَّك تأكلين معى، وتقعدين معى طول النَّهار، فلماذا تتركينى عندما يأتى الليل؟

رشفت "سيرين" من كوب الشاى رشفة هامسة، وابتسمت، ودارت برأسها تنظر إلى جدران حجرتى، ثم قالت: لولا أنى أعرف إنك مسيحى لظننتك مسلما، ولا صورة لـلمسيح، أو ستِّنا "أم النُّور"، أو الملائكة التى تقبض بأياديها على الرِّماح، ولا حتى صورة قدِّيس واحدة!؟

قلت لها: غطِّى صدرك العارى يا "سيرين"، "المسيح" لمَّا يكون فى القلب أفضل.

كانت فرصة لكى أُظهر تديُّنى، ومحاولة دفاع فى مواجهة هجوم غوايتها، لكنَّها لم تغط صدرها، بل لَوَت شفتيها بنصف ابتسامة ماكرة، وهزَّت ثدييها، فارتفعا ليظهر نصفهما.

"اغفر لى يارب كلامى الآثم الذى أقوله الآن، لكن أقوله كى يعرف هذا الشَّيخ ماذا فعلت معى الدُّنيا، وليعرف أنى، رغم كل ما جرى، ما جئت إلى هذه الصَّحراء ملوَّثا بإثم".

رشفت "سيرين" رشفة شاى أخرى، وكركرت بضحكة فاتنة، وقالت: أمِّى ارتبكت ولم تُجبنى، لكنَّها زعقت: صدِّعت رأسى يا "سيرين"، كلامك كثير، أسكتى.

قالت: سكتُّ، لكنِّى تكلَّمت مع صديقتى "روزا"، قلت لها: "بابا" و"ماما" يتركانى ليلا، ويدخلان حجرتهما، ويغلقان بابها.

فقالت لى "روزا": مثل "بابا" و"ماما" أيضا، لكن أنا عرفت لماذا "بابا" و"ماما" يغلقان الباب، إنهما يتشاجران، تسلَّلت مرَّة من غرفتى، واقتربت من باب حجرتهما، وسمعت "ماما" تئن، وسمعت "بابا" يتأوَّه، إنهما يتشاجران كل ليلة يا "سيرين"، مع إنهما طوال النَّهار يكونا مثل "سمن" على "عسل"!

كان عمرى ست سنوات، وكنت أحب "ماما" جدا، وكنت أحب "بابا" أيضا، لكن "ماما" طول عمرها حنونة، تقبِّلنى كثيرا، وتشتكى لى أحيانا من جفوة "بابا"، كانت تصعب علىَّ لمَّا أراها راكعة أمام صورة "المسيح"، وتشتكى له همومها، كلام "روزا" جعلنى أفكر فى أن "بابا" ربما يضربها ليلا.

فى هذه الليلة تسحَّبت من فراشى، مشيت فى الطُّرقة المعتمة، حتى اقتربت من باب غرفتهما، كان هناك صمت، وكنت أشعر بخوف، أحس أنى اعمل شيئا خاطئا، لكنِّى اطمأننت على "ماما"، وعندما استدرت منسحبة، انبثق صوت أمِّى بتأوُّه خاطف، توقَّفت مكانى، لكن الصَّمت كان قد حلَّ مرة أخرى، ليحل فى قلبى رعب، كانت صورة الشهيد "مار جرجس" الرَّاكب

على فرسه، وقابضا على حربة، يرشق سنَّها فى قلب التنِّين، معلَّقة على الجدار المقابل للطُّرقة، وكانت صورة كبيرة، وظلال الضَّوء القادم من اللمبة الوحيدة المضاءة عند الحمَّام، تسقط شاحبة عليها، أحسست بالتنِّين يتحرَّك، يحاول الاعتدال من استلقائه تحت سيقان الفَرَس، الفزع شلَّنى، و"مار جرجس" يرفع الحربة ويغزَّها مرَّة ثانية بكل قسوة فى قلب التنِّين، يبَّستنى حربة الشَّهيد، فوقفت مرعوبة، لترتفع تأوُّهات أمِّى متتالية، كأن سكِّينا تمزِّقها، رجَّنى الهلع، فاستدرت، وانكببت على باب غرفتها، وأدرت الأكرة، فانفتح الباب، لأرى فى ضوء اللمبة السهَّارى الخافتة أغرب مشهد.

11

يَا دِينُ "محمَّد"

- أنا رأيت هذا الجيش يا "حجيزى".

- الجيش الفارسى؟!

- نعم.

- الجيش الفارسى مازال فى "مصر"؟!

- نعم، مازال فى مصر، مدفونا بكامله تحت الرِّمال، هنا، فى صحرائنا.

فى صمت الصَّحراء، وبعد أن انسحب "الغرد" القاتل، لم يكن مسموعا لى غير ثلاثة أصوات، تَنَفُّس النَّاقة، ولهاث الكلب، ودقَّات قلبى، غير أن صوتا آخر بدأت أسمعه، ضعيفا، هامسا، مثل طنين نحلة بعيدة، لم التفت للأمر، رغم أن نحلة تبقى لتطن بعد هذا "الغرد" الماحق، هو شيء يلفت الانتباه، لكنِّى بدأت أنتبه لمَّا علا الصَّوت قليلا، لأسمع صهيل خيول تتقدم من أفق لا أستطيع تحديده.

هببت واقفا، وأمل مرتعش تدفق فجأة إلى روحى، هذه خيول تصهل، لابد على صهواتها رجال، ووجود رجال الآن يعنى العودة إلى الحياة من بعد موت.

لكن الأمل خفت فجأة، ربما هذه الخيول تمضى من أفق إلى أفق، من غير أن تعبر هنا.

لم يكن هناك مفر من الصِّياح، حتى وأنا متيقِّن من أن صهيل الخيول لن يسمح لركَّابها بسماع صياحى، لكن ليس أمامى شىء غير الصِّياح.

- يا عرب، يااااااا عرب، يا عراااااب.

عاد الأمل يتدفَّق إلى روحى، فالصَّهيل يعلو، وهذا يعنى أن الخيول تقترب، وبدا فى نور القمر، فيض رمادى ينساب قادما من بعيد، فيض يملأ مسافة كبيرة من الأفق!

ونسيت فجأة أننى بين الحياة والموت، لأسأل نفسى مندهشا: كل هذه أفراس؟!

وسمعت صيحات متقطِّعة، صيحات رجال يملؤهم العزم، لابد أنهم يُحفِّزون خيولهم، كنت أسمع قهقهات أيضا، لكن بطء حركة الفيض كان يؤكِّد أن الخيول لا تركض، وإنما تمشى مشيا حثيثا.

كان الفيض الرمادى يتضخَّم مثل سحابة تنساب على الرِّمال، وكان لونه الرَّمادى يتحول إلى سواد، ومع صهيل الخيول، وحمحمتها، وأصوات الرِّجال، سطعت أصوات نسائية تتكلَّم وتضحك، ضحك نساء لم أسمع مثله من قبل، والله يا "حجيزى" نساؤنا ضحكهن عويلا، الواحدة منهن تضحك وهى خجلة، فتكتم الضَّحكة قبل أن تأخذ راحتها، وتستوى ببهجتها، الضَّحك الذى سمعته قادما فى هذا السَّواد المنسكب فى اتجاهى، ضحك آخذ راحته، منطلقا هاربا من الخجل والحياء، ضحك حر.

كل ما يحدث كان غريبا جدا، وفكَّرت، ربما يكون ما أراه هو قبيلة من قبائل الغجر تمشى فى طريق التِّرحال الدَّائم.

لكن حتى قبائل الغجر لا تصنع كل هذا الصَّخب فى ترحالها، كما أنى لا أعرف قبيلة غجرية واحدة ممكن أن تبلغ فى كبرها حجما يسد الأفق هكذا.

اعتدل الكلب ناصبا ساقيه، بينما أقعى على فخذيه، وتشنَّجت أذناه، وبرق القمر فى عينيه، ونبح.

حتى قبائلنا العربية الأصيلة توقَّفت عن التَّرحال، وإذا قرَّر أحد بطونها الرَّحيل، علمت بهذا كل القبائل من قبل تحرُّكه، كما إن قبائلنا تتنقَّل فى الصَّحارى بِصمت يتنافى مع مثل هذا الضَّجيج، ثم أين هذه القبيلة التى إذا تحرَّكت سدَّت الأفق؟!

ظهرت ملامح الخيول، وهياكل الأجساد التى تمتطيها، أفراس ضخمة، ورجال كأنهم العماليق، ثم طوفان من جِمَال فوقها الهوادج تتمايل، وبشر يسيح مثل النَّمل، وكانوا يتصايحون بكلام كأنه رطن الإنجليز، كلام غير مفهوم أبدا.

وفى لحظة خاطفة، كان كل هذا يجتاحنى، الرِّجال يرتدون الحديد، السِّيوف فى أغمادها المعلَّقة بجنوبهم، الهوادج تهتز فوق أسنمة النُّوق، تكاد تسقط على رأسى، وغرقت فى بحر من كائنات تتحرَّك إلى اتجاه واحد، ثم اصطدمت بى هذه المرأة، "جاله"، وكانت تجر بغلا.

ماذا أقول لك يا "حجيزى" عن "جاله"؟! أقول: كل حريمنا ضعهن فى كومة، و"جاله" ضعها فى كومة وحدها.

لمَّا صدمتنى بكتفها، نظرت لى بعينيها، فنظرت فيهما، فنسيت ما أنا فيه، ولمَّا الزِّيادة كانت ابتسامة انسطلتُ، فما شعرت بها وهى تمسك يدى، ولا شعرت بها وهى تعتلى البغل، وتركبه بالمقلوب، ثم تجذبنى لأعتليه، فيصير وجهى مقابلا لوجه أجمل الحسناوات، "جاله".

"جاله" لها عينان، ما هما بعينى بقرة، ولا بعينى غزالة، ولا هما الليل، "جاله" عيناها أيام وليالى، وشجن ضاحك، وغنج رصين، وسعادة الحزن، ما أعرف كيف يكون هذا ؟! لكنه كان.

ولها وجه يا "حجيزى"، لا تقل لى بدرا منيرا، ولا رغيفا طازجا، "جاله" لها وجه يرتع فى جمال ما رأيت له مثيل أبدا.

ضحكت فى وجهى، ورطنت، وبسطت كفَّها على صدرها، وقالت: "جاله".

وغرست طرف سبَّابتها بين ثديَىّ، وهزَّت رأسها، كأنها تسألنى عن اسمى، فقلت: "غنيمة".

أحاطت بكفَّيها جانبَى وجهى، فسرت رعدة فى جلد جسمى كله، كانت البسمة تملأ وجهها، رطنت هامسة، ما فهمت شيئا من رطنها، لكنَّها مالت برأسها ناحية رأسى، وقبَّلتنى.

"جاله" جسمها لدن، مليان ومربرب، وبشرتها حمراء، نور البدر يلمع فيها، وشفتاها طريَّتان، لكنهما أكلتا شفتَى، وضغطت على فَكَّى ففتحتهما، لتتلقَّف لسانى، وتمصُّه، حتى كادت تقلعه من جذوره، هذه قُبلة "جاله" التى ضعضعت أعصابى، وجعلت دمى يجرى هادرا فى عروق مستسلمة، ليشتد الضَّعيف، وينتصب المرخىُّ.

الحمحمة، والصَّهيل، وتصايح العسكر، وغناء فارس تستشعر فى بحَّة صوته أحزان الغريب، وثغاء النُّوق، وأنا ما عدت أنا، لمَّا أحاطت "جاله" رقبتى بذراعها، تأكل شفتى، وبيدها الأخرى تقبض على الذى انتصب، وتدلكه.

شىء موضوع فى أجسادنا يا "حجيزى"، إذا استفزَّته النِّساء، طيَّرونا لنعود إلى الجنَّة، ونساؤنا ما يعرفن الذى فينا، "جاله" تعرفه، واستفزَّته، فَطِرت، غبت عمَّا هو حولى، إلا "جاله" التى كانت تطير محلِّقة، وملتصقة بى، تدفع أجنحتى، فأعلو.

"جاله" هاجت مثل جَمَل غاضب، فضغطت بكل جسدها علىّ، لأستلقى إلى الوراء، وتركبنى، والبغل يرجُّ جسدينا، فيتحرَّكان متماوجين مثل لسانى لهب، تداعبهما نسمة.

كانت تصهر جسدى كلَّه، بجسدها كلِّه، كأنها تريد أن تدخلنى فيها، أو تدخل فىّ، وكنت أغيب وأفتح عينَى، فأرى شعرها الذَّهبى يتراقص تحت منديل موشَّى بزروع خضراء.

وكعادة "الغرد"، يهاجم بقوة، وبسرعة خاطفة، هجم كالبرق، فرأيت منديل رأسها يطير، وشعرها ينسكب مفرودا فى اتِّجاه الرِّيح مثل نار، لكن "جاله" لم تنتبه، كانت منهمكة فى التهامى، وأسنانها تكاد تقطع صدغى، لكن أنا أعرف "الغرد"، وأعرف أنه قادم لنا بالدَّفن تحت الرِّمال، فحاولت أن أدفعها عنى، لكنَّها كانت قد صارت قطعة منى، لا يمكن نزعها.

وضرب "الغرد" ضربته العاتية، ليقلعنا من فوق البغل، ويلقى بنا فوق الرِّمال، فانفلتت "جاله" منى، وجلبابها الواسع المعقود حول وسطها بحزام قماش يرفرف كأجنحة الطُّيور، كان الرِّجال يحاولون إناخة النُّوق، وكانت النِّساء تصرخ من الرُّعب، وضاع صهيل الخيول فى عزيف الرِّيح الجبَّارة.

انفك نظام الجيش الفارسى، كنت أرى المخاليق تحاول الجرى نحو النِّياق والخيول والبغال، أُنتزعت الهوادج من فوق أسنمة الجِمَال، وطارت فى الهواء مثل عُلب الصَّفيح، لتخبط النَّاس وهى تسقط، وكان هناك من يحاول التَّشبث خلف هذه الهوادج، وأخرج الكثير منهم سيوفهم، وغرسوها فى الرِّمال، وحاولوا التَّعلق بها، غرسوا الرِّماح أيضا.

أمسكت بـجسد "جاله"، احتضنتها، واحتضنتنى، كانت تبرطم فى هلع، صوتها خافت مستغيث، كان كل منا يحاول التشبُّث بالآخر، ركلتنا الأقدام الفزعة، لكن دحرجتنا الرِّيح، ليبدأ بعدها أسوأ ما فى الأمر، بدايات الدَّفن.

رمال خفيفة، مقذوفة، تضرب الجلد مثل رءوس حراب من نار، وتملأ العيون باللهب، "الغرد" يُخضع المخاليق بهذه الرِّمال السَّفيفة، يُعجزها عن الحركة لمَّا يضطرها إلى غلق العيون، فتستسلم راغمة إلى السُّكون، والسُّكون فى "الغرد" يعنى الموت، ولا شىء آخر.

بهت ضوء القمر النَّاصع، وصرنا كأننا فى سحابة شاحبة بيضاء من دخان، ولم أعد أرى سوى قباب ظهور الحيوانات، وأكوام من النَّاس ملقاة حولها من غير حركة، وصياح الرِّجال المرتعب يختلط بعويل النِّساء، لتطيِّر العاصفة هذا المزيج من الأصوات البائسة إلى بعيد.

والتصقت بـ"جاله" أكثر وأكثر، كانت بوَّابات الرِّمال قد انفتحت فى السَّماء، فبدأت تنصبُّ صبًّا، لتستسلم كل الأجساد تماما للرَّدم، سمعت حشرجات

"جاله" تخرق أذنَى، لكن أنا كنت أواجه الموت أيضا، وما كان بمقدورى فعل شىء غير التمنى على الله فى علاه أن ينهى كل شىء بسرعة، ومن غير عذاب طويل.

وفعلا، أظلمت الدنيا فجأة، ولم أشعر بأى شىء.

*****

انتهى "سليم" من نحت التمثال، دارت الأطفال الرُّعاة حوله، ودارت "سكيرة" حوله تنظر إليه مبهورة، تسأل نفسها: كيف استطاع "سليم" عمل هذا.

كانت تنظر إلى نفسها، التمثال يشبهها تماما، هى نفسها، لكنها مقدودة من حجر، حجر دبَّت فيه الحياة، يضحك، ويشم وردة.

"سليم" يمعن النَّظر فى عينيها المذهولتين، فيرى فيهما إعجابا يركض، فيشف وجهه بابتسامة خجولة.

يصرخ "سلمان": دى "سكيرة"!

حتى لكأن الغنم أعجبها التمثال، إذ أنها تركت الرَّعى، وأخذت تتكاثر حول الأطفال، الذين كانوا ينقِّلون أبصارهم بين "سكيرة" والتمثال بأفواه مشدوهة.

لم تكن "سكيرة" تظن أنها جميلة هكذا، ولا رقيقة هكذا، وتمنَّت لو أن بيدها الآن وردة، لتشمَّها مثلما يفعل تمثالها الجميل.

- زين، حلو.

- أعجبك؟!

طأطأت رأسها، ونظرت إلى الرِّمال، وهو أيضا.

*****

النَّاقتان تمضيان على نفس النَّغم الرَّتيب، كأنَّهما خُلقتا لصنع الرَّتابة والملل، يهتز جذع "حجيزى" على الأولى، وجذع "بكير" يهتز على الثَّانية.

اختفت "الوعرة" تماما، بينما أطلَّت من الأفق قمم الصَّخرات الأربع الشَّاهقة، تلك التى تحيط بجبَّانة الموتى، تلك التى تشبه المومياوات الفاتحة أفواهها، تريد ابتلاع السَّماء.

بدا "حجيزى" وكأنه يريد أن يبتلع بعينيه كل المشاهد، فكل ما يراه الآن لن يراه مرَّة أخرى، انقضت فرص الحياة، وتمَّت الخسارة.

"متى بدأت خسارتك يا حجيزى؟"

"بدأت منذ بدأت تفتِّش، لا يعيش الحياة من يقضى أوقاتها فى التفتيش، ثم إن "شديد" أباك علمك التفتيش فى أخطر صندوق، جسم الإنسان، ومن يعلم سر صنعة الإنسان، يكرهه".

عندما قرَّر أهالى "الوعرة" بناء "ميضأة" للمسجد، بدأوا يحفرون لها أساساتها، وفى لحظة صاح أحدهم: أعوذ بالله، يا دين "محمد"! تعالوا انظروا.

تكوَّم النَّاس فوق الحَفر، ونظروا باندهاش وفزع لرأس حصان يتكشَّف تحت الرِّمال، رأس حصان بلحمه الطَّرى، محاط بسيور لجام من الجلد، ولمَّا سحب أحدهم جفن عينه جحظت مثل الزُّجاج، وأخذ النَّاس فى سحب الرِّمال، لتتكشَّف رقبته، وشعر عُرفه، ثم صدره، وساقاه الأماميتان، كان النَّاس يهلِّلون وهم يضربون أكفَّهم ببعضها، وعيونهم حائرة من العجب، يعلمون أن "الوعرة" واحة عمرها مئات السِّنين، هل يُعقل أن يبقى حصان ميِّت،

مدفونا فى الرِّمال مئات السِّنين، كما هو؟! لا تتهرَّأ من لحمه أدنى قطعة، ولا تنبعث منه شمَّة عفن؟!

اتسعت الحفرة، وأخذ النَّاس يسحبون الرَّمل أكثر وأكثر، كان "شديد" أكثرهم حماسا، يزيح الرِّمال بيديه وكله لهفة، كمن وجد كنزا، لم يكن مندهشا بقدر ما كان فرحا، كل أهل "الوعرة" يعرفون عشقه وغرامه بالجثث، يأخذها، ويشق بطونها، ويحنِّطها، ويرصّها فى حجرات بيته، فتبدو وكأنَّها حيَّة، حتى يأتى بعض الرُّهبان بصحبة إنجليز أو فرنساويين ويشترون محنَّطاته هذه؟

زاد هياج النَّاس لمَّا تكشَّفت لهم قدم إنسان، قدم كاملة فى كامل بهائها، تلبس حذاء جلديا خفيفا أحاطها بسيور سميكة، وتفجَّرت طاقة أهل "الوعرة"، والتف الأطفال حول الرِّجال، وتسرَّبوا من بين سيقانهم، ليطلُّوا برءوسهم ناحية النَّاس فى باطن الأرض، وقد مالوا على شىء لا يرونه، ويرفعون الرِّمال فى الغُلقان، كان "حجيزى" يطل هو الآخر باحثا عن أبيه "شديد".

استلزم استخراج جثَّة الفارس وحصانه نهارا كاملا، كان "شديد" حريصا على عدم تمزُّق الجثَّتين، بحكم خبرته يعلم أنهما ليستا بالقوَّة التى تبديان عليها، وإنهما عند أقل حركة غير مدروسة من الممكن أن تنهارا مثل جرف.

وعلى ضوء المشاعل بدأ الرِّجال والأطفال التفرس فى ما يرونه من عجيبة، حتى النِّساء تلصَّصن للفرجة على الفارس الذى بزغ من تحت أرض المسجد، ميتا مع فرسه منذ مئات السِّنين، لكنه كامل البهاء تماما، مثل فرسه.

الفارس ملابسه غريبة تماما، لا تشبه ملابس أهل "الوعرة"، ملابسه قصيرة، وثقيلة، تغطَّى أغلبها بصفائح حديدية مصطفة بإحكام، أخذت شكل

ريش طائر ضخم، وتحصَّن رأسه بخوذة من نحاس أصفر برَّاق، فخبأًّت كل وجهه، ما عدا عينيه المسبلتين، ولحيته السوداء القصيرة، ورقبته الغليظة.

كان الفرس مستلق على الأرض، وبجواره الفارس، بديا تحت أنوار المشاعل المهتزَّة ضخمين، وعندما حاول أحد الرِّجال نفض الرِّمال عن فخذ الفرس، زعق "شديد": لا أحد يلمسه، الشَّعر سيتساقط من مكانه، ويتشوَّه منظره، أنا سأتصرَّف.

كان "حجيزى" وقتها صغيرا، ينظر بعينى طفل إلى كل هذا، ولم يكن يفهم حجم المعجزة، بقدر ما كان أبوه يفهم هذا.

ساعد أهل "الوعرة" "شديد" فى نقل الجثَّتين إلى بيته، كان الأمر أصعب مما يتخيَّل الجميع، احتاج مفروشات وأقمشة وأخشاب، وتسوية أرض، وتجهيز عجلات صغيرة، وزمنا ومجهودا امتدَّا حتى أذان الفجر.

غرفة التَّحنيط باردة، واسعة، لا نوافذ فيها غير طاقة ضيِّقة جدا قرب السَّقف، ينسل منها ضوء النَّهار خافتا، كان الفارس قد وُضِع على المنضدة الكبيرة المقامة فى وسط الغرفة، والفرس مقلوب على ظهره فى أحد جوانبها، وقد بسطت تحته سجَّادة كبيرة من "الحلفاء" الجَّافة تغطَّت بقماش سميك.

لم ير "حجيزى" أباه، فى يوم من الأيام، سعيدا كل هذه السَّعادة، كان يتهيَّأ لعمله وفى عينيه فرحة رصينة، كانت هذه المرَّة الأولى التى سيحنِّط فيها جسدا آدميا.

كما أنها كانت المرَّة الأولى التى يرى فيها أباه، وهو يخلع كل هدومه، ولا يُبقى على جسده غير سرواله الدَّاخلى الطَّويل.

كان الأمر مخيفا لـ"حجيزى"، وظهر ذلك الخوف فى عينيه، وسأل أباه لأول مرة هذا السُّؤال: لماذا تحنِّط الجثث فى هذه الغرفة المظلمة، لماذا لا توقد مصباحا يضيؤها؟!

كان "شديد" قد أمسك بمشرط طويل النَّصل ورفيع، وبدأ يقطع به من أسفل الجسد المسجَّى، عندما توقَّف فجأة، وأخذ يتأمَّل هذا الجسد المستكين، كان الإعجاب يتنطَّط فى عينَى "شديد"، همس: هذا يا "حجيزى" فارس شاب، لا يزيد عمره عن خمسة وعشرين سنة، جسده فى أوجِّ اكتماله، أنظر لعضلاته، مازالت منتفخة وصلبة، جسد مثل هذا كنت أظن أنه سيكون أكثر تهرُّؤا بعد دفن استمر لمئات السِّنين، لكنَّه مازال وكأنه مات بالأمس.

سكت "شديد" قليلا، ثم قال مبتسما: كأنه لم يمت أبدا، كأنه نائم.

- تسأل سؤالك يا "حجيزى" يا ولدى، ماذا تريد أن تعرف؟ هل تريد معرفة سر الصَّنعة، أم تريد معرفة سر حكمتها؟!

- أنا أريد يا "شديد" معرفة لماذا نعمل هذا العمل فى غرفة مظلمة وباردة؟

- أنت إذن تريد معرفة سر الصَّنعة، لكن ليس بماهر من لا يعرف سر حكمة صنعته أيضا، وأنت يا "حجيزى" ولدى الذى خرجت به من الدُّنيا، تَعَلَّم سر هذه الصَّنعة منى، واعلم سرَّ حكمتها.

وبينما يسحب يده من جوف جسد الفارس، قال "شديد": قرِّب الطَّست.

زحزح "حجيزى" الطَّست النُّحاسى الكبير، حتى صار أسفل "شديد"، الذى رفع كلتا يديه وقد قبضتا على أحشاء الفارس كاملة، ليلقى بها فى الطَّست.

أغرقت الأحشاء حوافَّ الطَّست بالدِّماء، أخذ "شديد" يقلِّبها بيده، ويتأملها، القلب، الرئتان تحيطان به مثل جناحين، قصبة الغضاريف التى بينهما، المصارين، المعدة، رفع "شديد" وجهه، ونظر فى عينَى "حجيزى" المرتعبتين، ابتسم بسمة فيها حزن، وقال: أحشاء مثل أحشاء خروف، أو أحشاء جَمَل.

طأطأ "شديد" رأسه ناحية الأحشاء، وأخذ شهيقا، فبدا الامتعاض على وجهه، قَلَب شفتيه، وقال: بل إنَّها أكثر عفنا.

أخذ يعصر ليمونا كثيرا، قال: إذا فارقت الأرواح الأجساد بردت، والبَّارد تفتته الحرارة، إذا اضطررت لعدم دفن الميِّت، فلا بد من أن تضعه فى مكان بارد، وإلا تفتَّت وتعفَّن، والنُّور حرارة يا "حجيزى"، لو تركناه يدخل الحجرة سيسخِّنها، وإذا سارع الجسد نحو الفساد، ضاق أمامنا الوقت اللازم لتحنيطه، هذا يا ولدى سر الصَّنعة.

رفع الماجور المملوء بعصير الليمون، ودلقه داخل تجويف الجسد المسجَّى، أدخل يده وأخذ يدعك بحذر وببطء، همس همسا معجبا: صدر الانسان من الدَّاخل يختلف يا "حجيزى، رحب وواسع!

كان يتحسس جوانبه منبهرا، همس: بناؤه عجيب!

ثم أخذ "شديد" يجفِّف الجوف بقطن ناعم باتقان، وبعد أن انتهى، حشى الجوف كله بكمية كبيرة من الملح، ثم أمسك بحديدة صغيرة مبططة الحواف، واتجه إلى الرأس، ليقلع عينيها.

كان الصَّمت يعم المكان، كأن الوقت ليس نهارا يضج بالحركة، وكأن "الوعرة" كبس عليها سكون عجيب، لا أصوات ناس ولا بهائم ولا طيور، ولا حتى شقشقة عصفور شريد، فكان همس "شديد" متجلِّيا: الموت لا يتفق مع

الحياة، كمًّا لا يتفق النُّور مع الظُّلمة، كما لا تتفق برودة مع حرارة، إذا أردت أن تحنِّط جثَّة ميِّتة، فافعل ذلك بعيدا عن مظاهر الحياة، لو أنك وضعت جثَّة داخل الثَّلج، وتركت بجوارها نورا، ستفسد مع مرور الزَّمن، الحياة لا تقبل الموت، هذا يا ولدى سر الحكمة.

يتذكَّر "حجيزى" أنه فجأة سأل والده: لماذا لم تحنِّط أمِّى يا "شديد"؟

ويتذكر "حجيزى" أن "شديد" صمت طويلا قبل أن يجيبه، كان منهمكا تماما فى قلع العين.

*****

اقتربت الصَّخرات الأربع العملاقة، المُحدِّدة لجبَّانة موتى سكان "الوعرة"، وها هو المدق المؤدِّى اليها يتفرَّع عن المدق الأصلى المؤدِّى إلى "موط".

فوجئ "بكير" بناقة "حجيزى" تنحرف إلى مدق "الجبانة"، فهتف: يا "حجيزى"!

لم يجب "حجيزى" على هتاف "بكير"، واستمرت النَّاقة تمضى فى طريقها، فلم يجد "بكير" بدًّا من متابعة أبيه.

هنا، بالضَّبط، سقط "سعدون" مغشيًّا عليه، فحمله الرِّجال على أكتافهم، تتقدَّمهم جنازة "جميل" وأمّه "بثينة".

تتقدم النَّاقتان نحو "الجبَّانة"، ونور الشَّمس المتَّجه للمغارب يتوهَّج على الجانب الأيمن منها، ليرتمى ظِلَّاهما وظِلَّا راكبيهما طويلين على الرِّمال، يتراقصا على آكام صغيرة مثل أمواج نهر.

هنا نسى "سعدانى" أن ابنه "صالح" ميِّت على ذراعيه، فحاول أن يحمله على كتفيه، ليدلدل رجليه حول رقبته.

من هنا عبر كل الأموات، فوق أكتاف الأحياء، يحملونهم إلى قبور، يحفرونها بعيدا بعيدا، يدفنونهم فيها، ويتركونهم ليأكلهم النِّسيان، الحياة يا "حجيزى" أمكر من الثَّعالب، تنتصر على الموت دائمًا بحجة أن رائحته عفنة، وأنت يا "حجيزى" تحمل الآن على كتفيك آمال كل البشر القادمين من المستقبل، فى ألَّا يُدفنوا بعد موتهم، ويبقون على ظهر الحياة، يمارسونها بوضعهم الجديد.

"أنا الميِّت الوحيد الذى يعبر إلى هذه الجبَّانة على هذا المدق، ثم يعود منها عبره أيضا، وهذه أوَّل بشائر النَّصر فى معركتى الطَّويلة".

تعبر النَّاقتان بجوار الصخرة البحرية من الغرب مثل حشرتى نمل تنسابا بجوار رجل فارع الطول، وتتجلَّى مشاهد القبور المتناثرة فى مساحة واسعة بين الأربع صخرات، أكوام من رمل تعلوها أحجار مختلفة الأحجام.

"لا كرامة للموتى فى هذا الزَّمن، الفراعنة كانوا يهتمُّون بموتاهم، يبنون لهم غرفا واسعة تحت الأرض، ويضعون لهم فوق قبورهم أحجارا ضخَّمة مزوَّقة بصور منحوتة"

- أنا رأيت هذه المقبرة يا "غنيمة" بجوار "موط".

- كانت الدُّنيا رائقة فى أيامهم يا "حجيزى"، وأوقاتهم فضاء، الدُّنيا فى أيامنا مشحونة مشاغل، ولن نضيِّع الوقت فى الاهتمام بالموتى.

- الشَّيخ "مزيد" يقول أن القبر يتحوَّل إلى قطعة من الجنَّة للصالحين، ويكون متَّسعا.

- يكون أوسع من "الوعرة".

- هذا كلام يضحكون به على الموتى يا "غنيمة"، ويريحون به ضمائرهم، الحقيقة أن الحياة صارت مغرية لدرجة أنهم لا يصبرون على بناء قبور تليق بأحبائهم الموتى.

- أستغفر الله العظيم.

وقفت النَّاقتان على قبر "سعدون"، قبر جديد بالكاد يتم يومه الأوَّل، مازالت آثار المياه بادية على الرِّمال، وأقدام النَّاس مطبوعة بالصَّمت، وكان يلتصق بقبر قديم، قبر "زليخة".

وها هو قبر "غنيمة"، قريب من قبر "سعدون"، وجديد أيضا، بالكاد انقضى على بنائه أربعة أيام.

أناخ "حجيزى" ناقته، فأناخ "بكير" ناقته، ظلُّ الصَّخرة القبليَّة من ناحية الغرب ينشر العتمة فى المكان، وتنتشر الرَّهبة بانتشار مئات من ظلال شواهد القبور.

البئر "المُرَّة" محاطة بجدار واطئ يلتف حولها، ومقبض جلب الماء الخشبى تصلَّب ساكنا أسفل غُراب وقف عليه، ينكت بمنقاره تحت جناحيه.

تقدم "حجيزى" بخطوات وئيدة نحو قبر "سعدون"، وتوقَّف قبالة النَّاحية المقابلة لقدميه، تحشرج صوته وهو يقول: السَّلام عليكم يا "سعدون".

كانت عيناه تنضحان دمعا، وكان ينظر إلى قبر "غنيمة" وهو يهمس،: "غنيمة" لمَّا مات تركنا اثنين، نتعاون على الحزن، لكن أنت يا ابن الكلب تتركنى لمن؟

مسح مخاط أنفه فى كم قميصه، وقال: الحمد لله، باقى لى يومان فقط.

رفع "حجيزى" صوته، دون أن ينظر فى عينى "بكير": اعمل لنا شايا.

وتأمَّل قليلا قبر "سعدون" الملتصق بقبر "زليخة"، ثم ذهل "بكير" وهو يرى "حجيزى" يميل بأذنه ناحية قبر "سعدون"، ويقول: أنا أسمعك يا "سعدون"، قُل.

- أنت تريد ألَّا تُدفن فى قبر، وأنا يا "حجيزى" أحلم لو يدفنونى فى قبر واحد مع "زليخة"، ما أقدر أتخيَّل الحياة من غيرها، وما أقدر أتخيَّل الموت من غيرها، تعرف يا "حجيزى"، أنا أفكر فى عمل غرفة تحت الرِّمال فى "الجبَّانة"، مثل غرفة المساخيط التى فى "موط"، تكون لى ولـ"زليخة"، نعيش الموت أنا وهى سويا.

- ولماذا غرفة تحت الأرض يا "سعدون"، خذ غرفة من غرف البيت، وأنا أحنِّطكما، واجلسا فيها سويا.

- سيكون منظرنا مثل عفاريت مخيفة يا "حجيزى"، وسيتفرَّج علينا النَّاس، ولن نأخذ راحتنا، قبر تحت الرِّمال مثل غرفة أفضل.

كانت "زليخة" من تلك النَّوعية من النِّسوة اللائى لا يعشن مع أزواجهن زوجات وفقط، ولكن أمَّهات أيضا، لم يخدعها أن "سعدون" عاش معها السِّنين الطويلة التى لا تعرف عددها يضحك، ولا يتحدَّث معها أبدا عن عدم الخلفة، كانت هى نفسها تتعذَّب لأنها لم تربِّ طفلا لها فى هذه الحياة، حتى تتذوَّق طعم الأمومة الفيَّاضة المكبوتة فى أعماقها السَّحيقة، مثل ماء بئر استعصى على الشُّرب، فما بال الرَّجل "سعدون"، الذى يعنى الولد له أبوَّة وفخرا وعزا!؟

كانا يركبان على سطح عربة نقل قضت مدَّة خدمتها ضمن عربات الجيش الإنجليزى، ثم تكهَّنت وباعوها فى مزاد ليشتريها النَّاس، ويتنقَّلون بها.

العربة ترتج على الطَّريق الرَّملى الصَّعب، ما بين "الخارجة" و"موط"، كان هناك أناس آخرون من أهالى الصَّحارى يركبون معهم، فلم يستطع "سعدون" أن يأخذ "زليخة" فى حضنه ويواسيها.

كانا عائدين من "أسيوط" يحملان قفَّة كبيرة مملوءة بالحزن وخيبة الأمل، لقد قال الأطبَّاء أن "زليخة" لا يمكن أن تنجب، وأن "سعدون" فيه بذرة عيال، لكنَّها ضعيفة أيضا.

وفى "موط" حطَّها فى هودجها، وأمسك برسن النَّاقة، وشدَّها إلى الدَّرب الذى يبدو دائما وكأن لا نهاية له، ضاربا فى الغرب، على لُجج بحر الرِّمال.

وعندما رأى أنهما قد انعزلا فى الصَّحراء، قال رافعا صوته: رأسك صلب مثل الصُّخور يا "زليخه"، قلت لك نكتفى بما قالته "بهيجة" و"صدُّوق" العرَّاف، لكن لابد تتعبينا.

فلمَّا لم يسمع لها صوتا، علَّى ضحكة إلى السَّماء، وقال: لكن أنا أقدر على الخلفة.

فقالت بسرعة البرق: أنت بذرتك ضعيفة يا "سعدون".

وسكت "سعدون" لحظة، ثم انطلق يقهقه، وقال: أنا بذرتى ضعيفة، هذا طبيب حمار ابن كلب، لا يعرف شيئا.

عندما وصلا إلى شجرة البرتقال، التى تبزغ فى هذه الصَّحراء المديدة شجرة وحيدة، يرتاح تحتها المسافرون، كان الليل قد وصل أيضا، فحمد "سعدون" الله أنهما قد وصلا إلى هذه الشَّجرة، فالمبيت فى الصَّحراء تحت ظلٍّ خير من المبيت فى الطَّل.

أناخ النَّاقة، وعندما همَّت "زليخة" بالخروج من الهودج، زعق "سعدون": إصبرى.

تقدم ناحيتها، ثم وقف يتأمل وجهها، وسرح، فنظرت فى عينيه مندهشة، وقالت: مالك يا "سعدون".

قال: أتذكر ليلة الفرح يا "زليخة"، وقتما أنزلتك من الهودج المزيَّن بالشرائط الحريرية الملوَّنة، كنت مغطَّاة الوجه بالطَّرحة البيضاء، وكان نفسى أرى وجهك فى هذه اللحظة، كان نفسى أرى وجهك وأنت تنزلين من الهودج ويدك فى يدى، هات يدك يا حبيبة قلبى.

رفعت "زليخة" حاجبيها، وابتسمت، وقالت: الدُّنيا ليل، لن ترى وجهى فى الظَّلام.

قال: وجهك يا "زليخة" بدر نوَّار، أراه الآن بكل تفاصيله.

أنزلها من الهودج، وضمَّها فى حضنه، فبكت، وهمست: أطبَّاء "أسيوط" ذبحونى يا "سعدون".

وهو يجلسها على الصُّوفة التى فرشها على الرِّمال، ملاصقة لجذع شجرة البرتقال، قال: أطبَّاء "أسيوط" بهائم، وأنا الآن سأجعلك تحبلين.

ضحكت ضحكة تحيى الأموات، وقالت ساخرة: يا رجل لِمْ ليلتك، ما قدرت تعملها فى سنين، تعملها الليلة؟!

وهو يحيط بذراعه رقبتها، ويضغط عليها لتستلقى، قال: أنا كل ليلة أركبك يا بنت النَّاس، وأسقى أرضك، لكن أرضك ما تنبت زرع.

ضربت الكلمة قلبها، فضربت كتفه بقبضة يدها، وقالت: أنت بذورك ضعيفة، لا تنبت فى أسخى أرض.

لسعت الكلمة روحه، فسحب ذراعه من حول رقبتها، وأعطاها ظهره، وسكت.

كانت حبَّات برتقال ملقاة وقد أحاط بها سفيف الرَّمل حتى منتصفها، وبدت داكنة بسبب ظلمة سماء تبرق فيها النُّجوم.

أحسَّت ببرد الشِّتاء الصَّحراوى المصاحب للَّيل، ولفَّت ذراعها حول رقبة "سعدون" وجذبته، فارتمى رأسه فى حجرها، وسقطت على جبهته قطرات دموع دافئة، وهمست "زليخة": قُطع لسانى قبل أن أقول لك هذه الكلمة.

اعتدل "سعدون"، التقط برتقالة مغروسة فى الرَّمل، وقدَّمها إليها، وقال: كلى هذه البرتقالة، لتغيِّر رائحة فمك العفن، حتى أستطيع أن أقبِّلك.

واستلقى على قفاه يضحك، بينما هى تزغده بقبضتى يديها.

هَمسَت: الطَّريق!

قال: أين الطَّريق؟ ليس هنا إلا صحراء واسعة، ولا ظل يبدو فى الأفق لمرتحل.

همست: النَّاقة ترانا.

قال: هيا بنا خلف الهودج.

عمل "سعدون" فى هذه الليلة العجب، وكان أول ما عمله، أن قال لها: أنا سأجعلك تحبلين وتلدين الآن.

فهاجت مكامن "زليخة".

التقم شفتيها، وأخذ يمصَّهما، وكانت يده تزيح أغطية رأسها، وتفك عقيصة شعرها لينسال كالحرير، وتسيخ أعصابها، وتهيج مكامنه.

ذهب برد الصَّحراء عندما بدأت نار المعاشرة تتأجَّج، وكانت شفتا "سعدون" تأكلان لحم رقبتها، ويده تفك أربطة ملابسها، وفتحت "زليخة" عينيها بعد جهد، فرأت حبَّات البرتقال معلَّقة بأغصان الشَّجرة تشتعل بالحمرة، فأغلقتهما.

من فتحة الصَّدر الواسعة بزغ نهد مضىء مثل عجينة الخبز، وكان "سعدون" جائعا من أثر الرِّحلة المجهدة، فأكل طويلا، حتى أن "زليخة" لم يعد لها وجود، وكانت يده على بطنها، وأصبعه الوسطى تدور على حواف السُّرة، ثم تنغرس فى عمقها، لتمتص رحيق الحياة.

وعندما أنَّت "زليخة" أنينا طويلا، رغت النَّاقة، فأفاقت "زليخة"، وأرادت أن تعتدل، خوفا من أن تكون النَّاقة قد رأت قادما على الدَّرب، فضغط

عليها "سعدون"، وهمس بصوت ملتاث: النَّاقة سمعت أنينك فضبعت، تطلب الذَّكر.

انسدحت "زليخة" على الصُّوفة مرَّة أخرى، ونغجت: مسكينة النَّاقة.

وضع "سعدون" شفتيه على حلمة أذن "زليخة" وقال: صَعُب عليك حال النَّاقة؟!

كان يرضع حلمة أذنها، فهمست بصوت بعيد حالم: مسكينة النَّاقة.

أخذ "سعدون" يدها المستسلمة، وسحبها حتى رمحه الملتهب بين ساقيه، فقبضت عليه، قال بصوت محموم: ما تقولين فى رمحى؟

شهقت شهقة خاطفة، وقالت بصوتها البعيد: طويل يا "سعدون"، أطول من كل مرة، ونار.

همس فى أذنها: لا يصعُب عليك حال النَّاقة، رمحى يكفيك ويكفيها.

همست: أمُّك ما ربَّتك يا قليل الأدب.

وكانت ستقول شيئا، لولا أنه كان قد قبض بيده على كأسها المملوءة شهوة وجمر، فخطفت صرخة مائعة.

قبض على الكأس قبضا محكما، وأدخل أصبعه فيه يقلِّب الجمر، والجمر يلسع قلب "زليخة" فتتأوه، ثم أخذ يلسع كل جلدها فبدأت ترتعش.

ونبت من الشَّرق بدر ضخم، عندما ألقى بنوره الأحمر على "سعدون" الواقف ينزع هدومه بلهفة، بدا جنِّيا نحاسيا، يؤدِّى رقصة متشنِّجة فوق جنِّية عارية تماما، ارتمت مرتعشة فى ركوة من جحيم.

ارتمى عليها مصابا بالسُّعار، فأخذ يعض كل قطعة من جسدها الفائر، وعندما وصل إلى الكامن يغلى بين قمعين من سكَّر، اهتبره بأسنانه وشفتيه ولسانه، فنشبت أصابعها فى صدغيه، وصاحت بانكسار: ما عملت هذا من قبل يا مفتر، حرام على أمِّك.

صعد إلى أعلى، ومرَّر ذراعيه من تحت إبطيها، ليبسط كفَّيه تحت رأسها، ويغرق أصابعه فى موج شعرها، وألقى برأسه فى جوار رأسها، كان يزفر بأنفاس محمومة، وكان يمرر رمحه بين ضفتى مجرى الحمم دون أن يولجه فيه، فتهمس "زليخة" بصوت باك معذب: حرام عليك يا ولد عمى، ما أصعُب عليك؟! أدخله تبرد نارى.

همس فى أذنها بصوت ملجلج فرحان: ما قلتِ مثل هذا الكلام من قبل يا شرموطة.

تاهت وقالت: مسكينة النَّاقة.

وفجأة انبثق ساقاها يضربان فى السِّماء، قمعا سكَّر، وربلتان فاجرتان، يرجّهما زلزال، وتفح "زليخة" مثل أفعى أصابها هوس: أدخله، أدخله.

وصارت طائر عقاب يطير إلى ذرى الفرح والسَّعادة، وركب "سعدون" ظهره، يحكم قيادته.

غمس رأس رمحه فى نبع الحمم، فهيَّج المتَّقد، وتأوَّهت "زليخة" آهة ممدودة متوسِّلة، وهمست ترجوه: أدخله كله يا "سعدون"، ما تترك منه شيئا للنَّاقة، أنا أحبك يا زوجى.

- تحبين رمحى.

- أموت فى رمحك.

- وأنا أموت فى كأسك.

- وكأسى يموت فى رمحك.

غرس رمحه كله فى نبع النِّيران، متوهِّج فى متأجِّج، لتنغلق بصائر الأرواح أمام برق تبلَّج، فغرست أصابعها فى ظهره، تضمُّه إليه، وخرج من أعمق منطقة فى حنجرتها صوت مشوى: رمحك وصل إلى قلبى يا "سعدون"، نِكنى بقوة يا حبيب روح "زليخة".

الرَّفث هيَّج "سعدون" فحمى وطيسه، فأخذ يدكّها دكًّا، وصوت ارتطام اللحم باللحم صافيا فى سكون الصَّحراء، مثل ضربات قرون تيسين ينتطحان، وانسطلت "زليخة"، وسكر "سعدون"، واربدَّت النَّاقة ورغت، وهى تسمع فجأة شخرة "زليخة" المهولة وهى تهوى من شاهق، شخرة متقطِّعة لإنسان يفطس، و"سعدون" انتصب جنِّيا نحاسيا، يخور خوارا متمزِّقا، ليكون بعد ذلك سكون، سكون يتراقص برغاء النَّاقة التى جُنَّت.

12

مِكحَلة لعَينَين لَا تَكتَحِلان

كان "حجيزى" و"سعدون" و"غنيمة" يدورون حول تمثال "سكيرة" وأنفاسهم منبهرة، وشمس الظَّهيرة تخترق كبد السَّماء بكامل ألقها، فينزل نورها عموديا على هذا الصَّنم، فلا يجعل له ظلا، وإنما كل تفصيلة فيه مغمورة بالضِّياء الوهَّاج، وساطعة.

الأغنام اضطجعت فى الظِّلال الضيِّقة للصُّخور المائلة وأشجار الصَّحراء الصَّغيرة، تجتر، وتنظر حولها بعيون ناعسة.

همس "غنيمة": "سليم" هذا جن ابن عفاريت!

قال "سعدون": عمل "سكيرة" بنت "رسلان" بشحمها ولحمها من الحجر!

فقال "حجيزى": كأن البنت محنَّطة.

قطب "غنيمة" وجهه، وقال: أعوذ بالله يا أخى! الجثث المحنَّطة مريعة، وهذا تمثال كله حلاوة، لو يعمل لى الولد تمثال مثل هذا، انظرا للبنت كيف تشم الوردة!؟

قال "سعدون" وهو يتحسَّس بكفِّه الصَّدغ الحجرى: ما يعمل هذا الجمال الفائق غير الحب يا "غنيمة"، وأنت وجهك عكر ما يُحب.

ضحك "غنيمة" ضحكته التى يشبه صوتها صوت أحجار تتساقط: "سليم" يحبُّنى يا بارد.

شوح "سعدون" بذراعه، وهو يتَّجه إلى ظل إحدى الصُّخور القريبة: حب البنات شىء يختلف، يعمل عجائب.

جلسوا فى ظل الصَّخرة الذى أخذ يتَّسع، كانت الرِّمال البعيدة تتراقص بالسَّراب، وعندما أخرج "سعدون" عدَّة الشَّاى، هتف "غنيمة": أنا لا أحب شاى السبرتاية هذه، الشَّاى المغلى فى نار الحطب لا مثيل له، وقفز يجمع حطبا.

وعندما توهَّجت النَّار، نظر إليها "حجيزى"، وضحك.

تغطَّت الكنكة بالهباب فور دفسها فى كومة الحطب المشتعلة، وكان "سعدون" يمسك مقبضها عندما قال "غنيمة: لماذا تضحك؟!

- تذكَّرت هذه الليلة الأولى التى قضيتها فى جبل الرُّهبان، لمَّا حاولت أعمل شايا، وكلَّما أشعلت النَّار تأتى ريح قوية مصوَّبة ناحيتها وتطفئها.

حواف الشَّاى داخل الكنكة ترتفع ببداية الغليان، ودبيب الفوران القادم يستشعره "سعدون" وهو يدغدغ جلد كفِّه، ومن غير أن يرفع عينيه عن وش الشَّاى، قال: أنت يا "حجيزى" إيمانك ضعيف، ضحك عليك الرَّاهب "يونَّاس" وجعلك تترك دينك، وتصير نصرانيا.

يغرس "حجيزى" كفَّه فى الرِّمال، ثم يقذف بها، لتنهال على ظهر "سعدون"، وتتسرَّب إلى قفاه: حكاية انتهينا منها يا ابن الكلب.

أخذ "سعدون" ينفض قفاه بيده الأخرى، دون أن يترك مقبض الكنكة، لكنه هتف بضيق: انت من فتح السِّيرة يا "حجيزى"!

وهتف "حجيزى": وأنت ما صدَّقت أنها فُتحت حتى تسخر!

قال "غنيمة": واه يا "حجيزى"؟! تريد تتبع دين النَّصارى ولا نسخر منك؟! جيِّد إننا ما قطعنا رأسك!

فقال "حجيزى" متحدِّيا: والله لو وجدت عندهم ما أريده ما تركتهم، فى دينهم نام الذِّئب على فخذى، وفى دينكم يتحول زوج من بنى آدم إلى زوج بغال!

ورغم أن الشَّاى فار، إلَّا أن "سعدون" تركه واستلقى على ظهره من استغراقه فى الضَّحك، ومن بين شهيقه وزفيره المتقطِّعين قال: قلنا لك من قبل أن هذا كلب وليس ذئب، ما يوجد ذئب فى الصَّحراء يأمن لابن آدم.

انفعل "حجيزى" وهو يلكز "سعدون" فى جنبه: وأنا ضروسى تخلَّعت يا بهيم، وأعرف الفرق بين الذَّئب والكلب، ما ترتعد فرائص "حجيزى" من رؤية كلب.

ما عرف الذِّئبَ من نظر إليه وهو يحوِّم بعيدا، لكن عرف الذَّئبَ من اقترب منه، لدرجة يكاد معها أن يرتطم خطمه بأنفه.

ليس فى عينيه هذا العبط الذى فى عينَى الكلب، وإنما فيهما إرادة وعزم، وما يغلب الذَّئبَ إلَّا إنسان فى عينيه إرادة وعزم أكبر.

لمَّا نزل من على الصَّخرة التى بين أشجار جبل الرُّهبان، واتَّجه نحوى، وسطع البريق الأصفر فى مقلتيه، ارتعش كل جلدى، ووقف شعر رأسى، واهتز جسمى من قوَّة دقَّات قلبى.

كان يخطو ناحيتى ببطء شديد، يشد شفتيه ليكشف عن أنياب ما رأيت مثلها من قبل، معقوفة وطويلة ومدبَّبة تخترق الحجر لو أرادت، وكنت أشعر بزئيره الممتد يكلِّمنى: أنت فريستى يا "حجيزى".

من غير تفكير، كانت يدى تتسحَّب نحو "كوز" الشَّاى الذى يغلى.

وماذا يفعل كوز الشَّاى ومقبضه معمول من سلك ضعيف، الذِّئب بأنيابه هذه قادر على تمزيقهما وابتلاعهما أيضا.

لكن فجأة اكتشفت شيئا، أكتشفت أن هذا الذِّئب لن يقضى على حياتى وفقط، ولكنَّه سيقضى على ما أحيا من أجله، على الذى ضيَّعت كل مباهج الحياة من أجله، على الذى جعلنى اتبع الرَّاهب من أجله، وأترك دينى من أجله، هذا الذِّئب سيمزِّق جسدى، سينهشه، بحيث لا يبقى أى أمل فى بقائه بعد الموت جسدا سليما معافى فى دنيا الأحياء، وسيدفِن هؤلاء الرُّهبان أشلائى فى قبر، لأضيع تماما فى طى النِّسيان، حتى قبر يزار فى الأعياد لن أحصل عليه.

كان هدفى يضيع، وصَعُب علىّ حالى، وصَعُب علىّ أكثر أن يضيع هدفى بمخالب حيوان، ولو كان ذئبا، فنويت أن أدافع عن هذا الهدف.

جرى "ضب" على الرِّمال، وألقى بنفسه فى جحر تحت إحدى الشُّجيرات، ورفعت بعض الأغنام رءوسها من على ظهورها إثر حركة "الضب" المفاجئة، وهبَّت نسمة رطبة فى هجير الظَّهيرة أنعشت الأرواح.

رشف "سعدون" رشفة طويلة استنزفت ما تبقى من شاى فى كوبه، وضحك، وقال: عمَّا تدافع يا مسكين؟! ماذا تفعل أصابعك أمام مخالبه؟!

وماذا تفعل أسنانك أمام أنيابه؟! وماذا يفعل جسدك العجوز الهزيل أمام عضلاته الصَّلبة العفيَّة؟!

- هذا كلام البلهاء الأغبياء مثلك يا "سعدون"، لكن الكلام السَّليم أن الذِّئب لا يملك عقلا مثلى.

غريزته فقط تقوده لقتلى، لكن أنا غريزتى وعقلى يقوداننى لقتله، وما كانت بيدى أدوات تصلح لمبارزته، فقرَّرت أن يرى فى عينَى قوَّة تخيفه، ثم بعد ذلك يفعل الله ما يريد.

صوَّبت عينى فى عينيه، وقلت لنفسى: إنه مجرَّد كلب.

وعندما هممت بالوقوف لأهشَّه كما يهش الإنسان منا أى كلب، سمعت صوت الرَّاهب "يونَّاس" يأتينى من أعلى الجبل، يطلب منى عدم الحركة، لكن الذِّئب كان قد بدأ يحرِّك رأسه مثل كلب، وانطفأ شرر عينيه، وجاء هادئا، وحطَّ رأسه على فخذى هذه.

كركب صوت "غنيمة": ما أُصدِّق حكاية أن الذِّئب وضع رأسه على فخذك هذه أبدا، ولو حلفت على الماء فيجمد.

عاد "سعدون" إلى الوراء متَّكئا على ذراعيه، وقال: ضحك عليه الرَّاهب ابن المرأة، عمل له سحرا.

عندما كان "حجيزى" منهمكا فى الكلام، لم يشرب شايه، ولمَّا صمت، نظر فى عيونها السَّاخرة، وأخذ الكوب الذى برد، ورشف رشفاته المخطوفة.

*****

- هناك أناس يا سيِّدنا يظلّون فى سعى إلى الله طوال عمرهم، ولا يقبلهم، وهناك الخاطئون الذين ينسونه دائمًا، لكنه يسعى هو إليهم حتى يقبلونه!

"يهوذا" يا أخى كان من تلاميذ "المسيح"، حضر معه، ورأى جميع أعماله، لكنَّه طرده! و"شاءول" كان يقتل أبناء الرَّب، لكنَّه هو بنفسه سعى إليه، وجعله القدِّيس "بولس" الرَّسول الأعظم!

نظر الرَّاهب "يوأنَّس" إلى أفق الشَّرق المواجه للجبل، ثم همس: من لم تتلوَّث يده بدماء الأبرار خسر، ومن أجرى أنهارا من دمائهم ربح! أى حكمة هذه التى يريد الرَّب أن يعلِّمها لنا؟!

كانت الشَّمس تشرق، والرِّمال على مدى الشوف تخرج من عباءة الرَّمادية، وآفاق بعيدة محاطة بضباب، وينعكس النُّور على وجهَى "حجيزى" والرَّاهب المجهَدين، كانت ملامحهما رغم كل هذه الفضفضة التى قضت على ساعات الليل، متقلِّصة بالألم.

قال الرَّاهب كلمة مريعة، اهتز لها كل جسده: حكمة هذه أم عبث؟!

قال "حجيزى" من غير أن يهتز له طرف عين: أى أحد عاقل سيقول: عبث.

وشقت سكون الصَّباح الباكر تلك الصَّرخة النَّائحة الطَّويلة، صرخة الرَّاهب "برسوم"، ثم ظهر منحدرا على المدق بين صخور الجبل، نحيلا فى جلباب ممزَّق كالح، كاد وجهه يختفى فى شعر مهوَّش مُتلبِّك، كان ينحدر بسرعة، وصراخه مستمر، حتى توقَّف أمامهما، وقال بصوت رفيع يشبه صوت امرأة: ليس هناك عبث، ربُّنا "يسوع" لا يلعب، ربُّنا رب قلوب، والقلوب مساكن

الإخلاص، والقلب الذى ليس فيه إخلاص خربان، وصاحبه يخسر، لم يكن فى قلب "يهوذا" إخلاص للمسيح، وكان "شاءول" يقتل أبناء الرَّب بإخلاص.

كان "حجيزى" ينظر إلى الرَّاهب "برسوم" الذى يصعد المنحدر بنفس السرعة التى هبط بها، بينما انكفأ وجه الرَّاهب "يوأنَّس"، تدمع عيناه، وعلت صرخة "برسوم" البلهاء، قبل أن يتوقَّف مكانه، وينظر إليهما من فوق، ويقول: لا يهتم الرَّب "يسوع" بأبنائه أنفسهم، إنه يهتم بإخلاصهم.

- من هذا ؟!

- هذا هو الرَّاهب "برسوم"، وراءه قصة مهولة، أتت به إلى هذه الصَّحراء، منافى الرَّب.

تعرف!؟ وراء كل راهب من هؤلاء قصَّة مليئة بالتَّعاسة، وفى كل قصة امرأة، امرأة خائنة، أمّ خائنة، أخت خائنة، زوجة خائنة، حبيبة خائنة، المهم، امرأة ما تدفع الواحد منَّا لترك الحياة، وتسليم نفسه إلى هذا الموات، سكون الفيافى ووحشتها، ننفى إليها أنفسنا باسم الرَّب.

ابتسم "يوأنَّس" بِرُكن شفتيه، وقال: نكرِّر دائما قصَّة "آدم" و"حوَّاء"، والطَّرد من الفردوس، إلى الأرض القاحلة، ونحاول أن نتطهَّر بعذاب الوحدة والتوحُّد، هذا الجحيم الذى يشعله كل واحد منَّا لنفسه بداخله، لكن بعد كل هذا العمر، بعد مائة عام أو يزيد، أقول لك بمنتهى الإخلاص: لن يتطهَّر الماء أبدا من القذارة إذا أصابته، وستحوِّله النَّار ممزوجا بدنسه إلى بخار ينتهى إلى عدم.

كانت الشَّمس قد أشرقت بتمامها، والصَّحراء سطعت.

- لكن يا مقدِّس، هل كان هذا ذئبا حقيقيا؟!

ابتسم "يوأنَّس"، وقال بصوته العميق: وهل يمكن أن يكون شيئا آخر يا راعى الغنم؟!

- يستحيل على الذِّئاب أن تأمن لابن آدم!

- نعم، لكن لا يوجد ما هو مستحيل بالنِّسبة لمشيئة الرَّب، انت يا سيِّدنا من تلك النَّوعية التى يسعى الرَّب إليها، فيأخذك إليه بمعجزة.

نظر "حجيزى" فى عينَى الرَّاهب العميقتين رغم ضيقهما، وقال: لكن يا أيها الرَّاهب أنا من أخضع الذِّئب، وليست مشيئة الرَّب.

حرَّك الرَّاهب جلد جبهته المتجعِّد، رافعا حاجبيه، ومصوِّبا نظرة ساخرة لعينى "حجيزى"، لكن عينَى "حجيزى" كانتا مثل مرآتين عاكستين، تصوِّبان نفس النَّظرة إلى عينَى الرَّاهب.

همس "حجيزى": لا أعيش حياتى أبحث عن مهرب لجثَّتى من الدَّفن، لأتركها ببساطة لأنياب ذئب يمزِّقها.

لقد غرستُ إرادتى فى عقله، وأخضعته لى.

انكسرت نظرة الرَّاهب "يوأنَّس"، كانت نظرة "حجيزى" نافذة، كأنه يغرس إرادته فى عقله، ليخضعه هو الآخر.

همس "يوأنَّس" محتارا: لكنَّها تضع رءوسها أيضا على فخذ الرَّاهب "مرقس"!

كانت الشَّمس قد أشرقت تماما، تنشر دفئا وليدا، يدب فى الرِّمال بخطوات غير مستقرِّة.

*****

فتح "غنيمة" عينيه، شمس الضُّحى منيرة، والكلب يربض بجواره واضعا رأسه بين ذراعيه، والنَّاقة فى مناخها الرَّصين، تجتر هادئة، تنظر إلى ما حولها من وسع لا نهائى نظرات حكيم.

اعتدل جالسا، وأخذ ينظر حوله، ثم هبَّ واقفا، اتجه نحو النَّاقة، نزع المسحاة من ركابها، وعاد إلى مكانه، وأخذ يحفر.

- ما حدث كان حقيقيا، لم يكن حلما، حلمت كثيرا، ورأيت رؤى كثيرة، ما رأيته كان حقيقة، ما عملته "جاله" معى لا يمكن أن يكون حلما، لم أر ما عملته هذه المرأة من قبل لأحلم به، كان جديدا، ولو لم أتأكَّد من صحة ما رأيته لجُنِنت.

"هل تدرك خطورة ما تفعل يا غنيمة؟ أنت تائه فى مفازة، وتحتاج مجهودك كاملا لمحاولة الوصول إلى منفذ للحياة، وأنت بدلا من المشى فى أيَّة ناحية، تتحرك إلى أسفل، نحو باطن الأرض، أنت يا غنيمة تحفر قبرك بيدك".

- لو وصلت إلى "جاله"، وفردت طولى بجوارها ومت، أفضل من الموت فى المتاهة، لتنهش الطُّيور والضِّباع جسدى.

"لكن ستنهش الطُّيور والضِّباع جسديكما أيضا".

- طالما نحن سويا، لا يهم كيف يكون المصير.

أخذت أحفر، والحفر فى هذه الرِّمال السَّفيفة يقطع النَفَس، تحفر مهما تحفر، تجد الرِّمال تنزلق مرَّة أخرى إلى مكانها.

نصف النَّهار انقضى وأنا أحفر، وشربت أكثر من نصف قربة الماء، وبالكاد عملت حفرة بعمق طولى، كانت الهواجس تقتحمنى، تحاول أن تثنينى عن تكملة الحفر.

"الغرد أطاح بعقلك يا غنيمة، لو كانت جاله حقيقيَّة، كنت وجدتها، هذا الذى رأيته هو تهاويم شياطين الصَّحراء، ما رأيته شُغل عفاريت، العفاريت تريد دفنك، وأنت تنساق خلف إرادتها، كل مارأيته كان شُغل عفاريت يا عبيط".

- كانت الحفرة تعمق، والكلب ينظر إلىَّ من أعلى ويزوم زومات متقطِّعة، وفى لحظة أحسست ألَّا جدوى من استمرار الحفر، فأى شبر آخر أحفره عميقا سيجعل خروجى من الحفرة مستحيلا، لأموت مجَّانا، وبمنتهى الحمق، لكن فى نفس اللحظة التى بدأ الكلب ينبح بعزم، أحسست بملمس شىء تحت قدمى، ليس بملمس الرِّمال، وعندما نظرت إليه...

كانا يجلسان تحت شجرة برتقال، من تلك التى تحيط بالبئر السَّاخنة، العصافير تشقشق، وطيور أبو قردان البيضاء، تقف على حواف جدول

مخضوضر ينساب مبتعدا نحو الزُّروع البعيدة، مد "غنيمة" يده إلى جيب فى جلبابه القصير، أخرج منه طرحة ملوَّنة مطوَّية بعناية، ومد يده بها إلى "حجيزى".

أخذ "حجيزى" الطَّرحة، وفردها على متسع ذراعيه، كانت مزوَّقة بزهور كبيرة متشابكة، يحف بجوانبها زيق مذَّهب عريض.

قال "غنيمة": طرفها هو الذى داعب باطن قدمى، وما أن رأيته حتى نسيت كل الأخطار، وقرَّرت الاستمرار فى الحفر، فمعنى أن أجد طرف الطَّرحة فلابد سأجد رأس "جاله" الملفوف بها، معنى أن أجد طرف الطَّرحة، أن كل ما رأيته كان حقيقيًّا، ولم يكن أبدا شغل عفاريت.

كان نباح الكلب يزيد من عزمى، كان ينبح كالمجنون، فأيقنت أن ثمَّة جثة....

- تعرف يا "حجيزى"!؟ ما إن طرأ على ذهنى أننى أبحث عن جثَّة "جاله" حتى همد جسدى فجأة، ماذا سأفعل بـ"جاله" وهى ليست أكثر من جثَّة؟! ثم اكتشفت شيئا آخر، هذا المنديل طيَّره الهواء بعيدا عن "جاله"، وطالما الذى وجدته هو المنديل، فإن "جاله" بعيدة عن مكان الحفر.

كان "حجيزى" يتأمل الطَّرحة بعينين مندهشتين، حتى أنه قال: تريد أن تقول إن هذا المنديل لامرأة من جيش فارسى، مدفون فى صحرائنا منذ آلاف السنين!؟

- الجيش الفارسى دُفن أمام عينى، لكن هل أنا أخطأت لمَّا لم أواصل الحفر، بحثا عن جثة "جاله"؟

لم يجب "حجيزى" على تساؤل "غنيمة" الحائر، كان منهمكا فى تأمُّل الطَّرحة، ويتحسس بأطراف أصابعه زيقها الذَّهبى.

****

"زليخة" تعبت من السِّنين التى مرَّت عليها، وهى ليست أمَّا، فقالت فى نفسها: ضرورى "سعدون" يكون تعب هو أيضا، أنا أرضى لا تصلح للزَّرع، لكن هو بذوره ضعيفة، وربما تنبت فى أرض غير أرضى.

"سعدون" يدخِّن حجر المعسَّل الصَّباحى، أمام باب حظيرة الغنم، النَّهار يشقشق، والضَّوء هادئ، والجوزة تكركر، وجاءت "زليخة" وجلست بجواره، وفى وجهها يلوح ثقل كلام تحمله فى قلبها، ليس من عادتها الجلوس معه فى الصَّباح الباكر هكذا، عادتها الانشغال فى إطعام الطُّيور والبهائم، وسقى الغنم قبل أن تسرح إلى المراعى البعيدة، وحلب اللبن من النَّاقة، ومن الجاموسة.

نظر إليها، وقال: خير يا "زليخة"!

قالت: منذ متى ونحن متزوِّجَين يا "سعدون"؟

شد نفسا، وقال: لم نكمل يوما يا حلوة.

قالت: أنا اتكلم بجِد.

أشاح بوجهه بعيدا، وهو يقول: يا فتَّاح يا عليم، يا رزَّاق يا كريم، مالك يا "زليخة"؟!

قالت: أريد أن أفاتحك فى موضوع.

لم يتكلَّم، وإنما شد نفسا طويلا من الجوزة، فانتحبت كركرتها.

قالت: سنين طويلة انقضت يا "سعدون"، الشَّعر بدأ يشيب فى رأسك، وأنا لا أريد ان أحرمك من الخلفة.

نظر إليها مبتسما، ثم قال متهكِّما: ماذا ستفعلين؟ ستفتحين بيت الولد بالعافية؟!

ثم علت قهقهته، ولحم بطنه يرقص، فتدحرجت قطعة من البص من فوق حجر الجوزة، وسقطت على حِجره، فخطفتها "زليخة" بسرعة، وألقت بها بعيدا.

قالت: فشَّتك عائمة، أنت ستموت من كثرة الضَّحك، فى مرَّة سيأتيك "عزرائيل" وأنت سكران فى الضَّحك.

قال: كلامك يا "زليخة"!

قالت: تزوَّج يا "سعدون".

شمس الصَّحراء تسطع بسرعة، ونورها يكون ضعيفا، لكنَّه يشب قويًّا، فغمر النُّور وجه "سعدون"، الذى نظر إلى "زليخة" باندهاش مريع.

قالت: أنا أنقِّى لك العرائس، وأزوِّجك.

- انتقت لى يا "حجيزى" أجمل واحدة، "بثينة" ابنة عمِّها، وهى التى جَلَتها بـ"النُّورة"، وهى التى غسلتها فى البئر السَّاخنة، وهى التى جَرَّت الجَمَل الذى جلست "بثينة" فى هودجه، وعند البيت، أمسكت يدها، وسلَّمتها لى، شيء يجن الذى لا يُجن.

دق قلب "سعدون" دقَّات رجَّت جسده البدين، وهو يدخل بعروسه الغرفة، ويغلق الباب فى وجه "زليخة"، كانت دموع تترقرق فى عينيها، فلأول مرَّة منذ أيام لا تعد ولا تحصى، يفصل باب غرفة بينهما، وينقضى ليل من غير أن يكونا فى سرير واحد.

- وقفت "بثينة" بجانب الباب المغلق، ترفل فى ملابس عرسها الملوَّنة، ووجهها طاقة نور تشع من خلف الطَّرحة الشفَّافة المنسدلة على وجهها، كانت تضع عينيها فى الأرض، فمددت يدى وأمسكت بيدها، وسحبتها إلى السَّرير، ماذا كان بإمكانى أن أفعل غير ذلك؟! كانت عيناى تريان ربكة مشاعرى، وقلبى ينظر إلى "زليخة" المكوَّمة فى ركن من أركان غرفتها، تبكى من غير صوت، لم أكن أسمع نشيجها، لكنِّى سمعت صأصأة فرخ حمام كان منزويا هو أيضا فى ركن من أركان حجرة "بثينة".

ضحك "سعدون"، وقال: كانت "زليخة" متأكِّدة من أنى لن أستطيع عمل شىء هذه الليلة، فوضعت لى فرخ الحمام، أذبحه وأصبغ بدمه منديل الشَّرف.

"سعدون" وجهه وجه عريس، يلمع بحمرة الدَّم الجارى، وملابسه وعمامته تلمعان بالحداثة، ويجلس على المصطبة التى أمام بيت "حجيزى"، يتَّكئ بظهره إلى الجدار، وينظر إلى الجميزة، والعصافير تعود إليها فى المغارب، كان يأخذ راحته فى جلسته، فلقد أراح فخذا على المصطبة، ونصب الآخر، ورمى ذراعه على ركبته، كان "حجيزى" يشد الدخان من الجوزة، والدخان تدفق من فمه وأنفه وهو يقول: والله أفرخ الحمام كرهت العرسان.

ضحك "سعدون"، وقهقه، وأخذ الجوزة من "حجيزى"، وقال: أنا والله صَعُب عليّ حال الفرخ، ما رضيت بذبحه.

قال "حجيزى": وماذا عملت ؟

"سعدون" بحلق فى وجه "حجيزى"، ونفث الدخان فتلوَّى كأفاع.

كان يحمل الهم، وكلَّما اقترب من السَّرير خطوة، الهم يثقل، و"بثينة" منقادة خلفه، وصدره يضيق: كيف أنام مع امرأة غير "زليخة"؟ وكيف أسعد بالعروسة، و"زليخة" من غير عريسها ؟

- ما كنت أنا الذى أتحرَّك يا "حجيزى"، كان غيرى من رفع "بثينة" من تحت إبطيها، ووضعها على السَّرير العالى، وهى جلست على الفراش، وأزاحت الطَّرحة من على وجهها، فرأيت القمر بدرا، وسمعت صأصأة فرخ الحمام، ثم بدأ يتجلَّى لى صوت غناء النِّساء خارج الغرفة على نقر الدُّفوف، وخشولة حناجر الرِّجال، وأدركت أن الجميع يقف ينتظر رؤية الدَّم.

لم يكن هناك مفر من نسيان "زليخة" فى هذه اللحظة، ولمَّا انسدل شعر "بثينة" على عاتقيها، وتوهَّج صدرها، نسيت الدُّنيا، وغرقت فى الجنَّة.

وأخذ جسد "سعدون" يتمايل من سطوة الضَّحك الذى يضحكه، وهو يقول: كُتب لفرخ الحمام عمر جديد يا "حجيزى".

*****

راقبت "سريرة" النَّاقتان وهما تمضيان إلى بعيد، فوق الأولى "حجيزى" الذى لن تراه حيًّا بعد اليوم، كان بداخلها يقين بهذا، وفى عينيها دموع الملح، والشَّمس مالت عن كبد السَّماء، وبجوارها وقفت "ثريًّا"، تربت على كتف "سريرة" المتيبِّس، وتهمس: قال إنه سيعود يا "سريرة".

- سيعود إن شاء الله، لكنَّه سيعود جثَّة من غير روح، سيعود ميتا، "حجيزى" أنا أعرفه.

وظلَّت واقفة، متَّكئة على عصاها، ترقب النُّقطتين الكالحتين اللتين غاصتا فى عمق التماعة اصفرار الرِّمال اللامنتهية، ترقبهما بعينين غائمتين من إثر الزَّمن، والبكاء.

فور ضياع النُّقطتين فى السَّراب، دارت برأسها ناحية رءوس النَّخيل التى تبدو من خلف البيوت، ونظرت إلى الطَّريق الضَّيقة التى تمر أمام المسجد، لتخترق تلاحم المنازل، وركَّزت نظرها العليل فى عمق هذه الطَّريق، تذهب بعقلها إلى منتهاه، حيث النَّاحية الأخرى من "الوعرة"، حيث بيت أبيها القديم، حيث طفولتها، وحيث شبابها، وحيث جنونها، وحيث جرأتها التى نفَّرت منها أمَّهات شباب الواحة.

"جميلة، وجريئة، صفتان لما تجتمعان فى البنت، تصير مخيفة"،

نصيحة سمعها كل شباب الواحة من أمَّهاتهم، أو آبائهم، وقتما كان يهم الواحد منهم بالكلام عن رغبته فى الزَّواج من "سريرة"، و"سريرة" مجنونة، كادت تطيح بعقل أمِّها، التى قالت لها: بنت فى العشرين ولم تتزوَّج، لن تتزوَّج، أنا تزوَّجت وسنِّى ثلاثة عشر عاما، وها هن البنات حولك يتزوجن وأعمارهن أقل من الخمسة عشر، يا بنت تحشَّمى، ما ينفع البنت أن تقف خارج البيت وتضحك للرائح والغادى.

أما أبوها فقد أبطل الكلام معها، وبقى غضبانا منها، وغضبانا عليها.

لكنَّه أبطل الغضب، لما جاءه "حجيزى" وطلب يدها، وهى وافقت، وكانت فرحانة.

- يا "سريرة"، أنت جد فرحانة؟! "حجيزى" عمره خمسين سنة، ولا يضحك، ويحنِّط جثث الحيوانات!

- خمسين سنة يا أمِّى، لكن شبابه عال، الذى يراه بالكاد يعطيه عمرا لا يتجاوز الخمسة وثلاثين سنة، وأنا أوَّل بخته، امرأة قبلى لم تدخل قلبه، ولا دخلت حياته، وأنا سأجعله يضحك، وسأجعله يربِّى الحيوانات، ويرعى الغنم.

أعادت أمُّها النَّظر فى عينيها، كأنها تستوثق صدق فرحتها، فأطلقت "سريرة" زغرودة طويلة، فقامت أمُّها مرتاعة، وكبست بكفها فم "سريرة"، وبيدها الأخرى تلكزها فى صدرها، وتهتف بانبهار: تريدين فضحنا؟! ما رأينا عروسة تزغرد، يا قليلة الحياء.

نزعت "سريرة" كفَّ أمِّها من على فمها، ونظرت فى عينيها بتحد، وقالت: حتى تصدِّقى إننى فرحانة.

ابتسمت "سريرة" فانبسطت تجاعيد وجهها، ودارت برأسها تنظر إلى مكان النُّقطتين المتحرِّكتين على المدق الضَّارب فى الصَّحراء، فلم ترهما أبدا.

دخلت البيت، واتَّجهت بحركتها البطيئة إلى الدِّكة التى تحت شجرة التِّين فى وسط الفسحاية، ونادت على "ثريَّا" قبل أن تمسح بكف يدها على فرشة

الصُّوف المنبسطة على الدِّكة، ولمَّا ظهرت لها "ثريَّا" من باب غرفة الخزين، قالت: تعال يا بنت نعمل كُحل "الدلال".

اندهشت "ثريَّا"، وقالت: وماذا تعملين يا "سريرة" بكحل "الدلال"؟! أنا ما رأيتك تكتحلين به أبدا!

فقالت "سريرة" بتبرم ونفاد صبر: يا بنت تعال نعمل كحل "الدلال".

هتفت "ثريَّا" بضيق: انتهى من تنظيف حجرة الخزين ونعمل "الدلال"، و"الحمراوى"، إن شئت!

لكن "ثريَّا" لمَّا رأت جلد وجه "سريرة" يرتعش، وشفتيها ترتعدان، وسمعتها تئن: نفسى يا "ثريَّا" أعمل كحل "الدلال" الآن، ما عندى صبر يا بنيتى.

قالت: حاضر يا أمَّ "بكير"، يا غالية.

كانت قطع من الشَّمس تخترق فضاءات ما بين أوراق شجرة التِّين، وتسقط على رأس "سريرة"، ووجهها، وحجرها، وكان ذباب يغير على وجهها وهو يطن، فتهشه بكفِّها، وبينما "ثريَّا" تبحث فى أحد الصَّناديق داخل غرفتها عن القطن الذى ستصنعان منه كحل الدلال، كانت "سريرة" تمشى فى مفازة الذكريات، حتى وصلت إلى أيام فرحها.

"سريرة" شابَّة، فى العشرين من عمرها، فى أوج جمالها، تقف فى حوض ماء البئر السَّاخنة، والبنات حولها يقذفنها بالماء، يبللن ثيابها لتخلعها، وهى تدارى وجهها من رذاذ الماء، وتصرخ فيهن، بينما ضحكاتهن تصنع ضوضاء مبهجة، كان لابد أن تخلع ملابسها، وتغتسل فى هذا الماء الساخن، هذا سِلو

الأفراح فى واحة "الوعرة"، لكنَّها لم تخلع ثيابها التى التصقت بجسدها الريَّان، فهجمت البنات عليها، وألقينها فى الماء، وبدأن فى نزع ثيابها عنها بالقوَّة، ومحاولاتها المتمنِّعة فشلت، وصارت عارية كما ولدتها أمُّها، وضربها الخجل من عيون البنات والنِّساء الكبيرات الواقفات يضحكن حول الحوض، وضربها الخجل من عيون العصافير التى كانت تتأمَّلها باندهاش، وهى واقفة على الأغصان، بين أوراق شجر البرتقال.

بنات "الواحة" يجدن، فى مثل هذه المناسبة، فرصة لممارسة نزقهن، يغسلنها، ويدعكن جلدها، وأكفُّهن المملوءة بالشبق تمر برقَّة على ثدييها، وعلى سرَّة بطنها، وفخذيها، واحدة منهن قالت بصوت مائع: حظ "حجيزى" من السَّماء، وقع على غزالة ما لها وصف.

ثم هصرت ثديها وهى تهتف: أنظروا إلى رمَّانها.

وعلت الضَّحكات، بينما صمتت هى تماما، فلم يكن أمامها إلَّا الاستسلام، استسلام أحبَّته وقتها، بينما جسدها مغمور فى المياه الدافئة.

أخرجها من سرحانها فى غيم الذِّكريات قدوم "ثريَّا"، كانت تحمل بين يديها القطن الأبيض ناصعا، وزجاجة مملوءة بزيت زيتون، وطبقا من الصَّاج النَّظيف المطلى بالميناء الملوَّن، وإناء فخَّارى أسود قديم.

جلستا على الدِّكة فى مواجهة بعضهما، وبينهما عدَّة صنع كحل "الدلال"، كانت "سريرة" قد شدَّت مزقة صغيرة من القطن، وأخذت تبرمها بين طرفى إبهامها وسبَّابتها، وكانت "ثريَّا" قد دلقت فى طبق الصَّاج بعضا من زيت الزَّيتون، وضعت فيه "سريرة" لفافة القطن المبروم، وبدأت تبرم واحدة أخرى.

همست "سريرة": ليلة حنِّتى يا "ثريَّا" مرَّرَت النِّساء عجينة الحلوى على جلدى كله، فما خرجت بشعره واحدة، كنتُ يا بنت كما حجر المرمر، لامعة وملساء، وأمِّى لم تتركنى فى حالى، دعكت جسدى كله بـ"النُّورة"، وكبست عينَى بالكحل "الحمراوى"، لأجل ما يجلى بياضهما، مثل النَّار هذا الكحل "الحمراوى"، لكن كحل "الدلال" رطب، ويرسم العينين فتملآن وجه الواحدة منا، الرجال مغرمون بالعيون الواسعة.

المهم، أدخلونى فى بيت "حجيزى" مثل واحدة من حور العين، وأعطتنى أمِّى مكحلة كبيرة، ملآنة بكحل "الدلال".

وتنهَّدت "سريرة"، وقالت: وظلَّت حتى الآن ملآنة.

نظرت "ثريَّا" إليها، وقالت: عندك مكحلة ملآنة من خمسين سنة؟! أين هى؟!

- فى الصُّندوق، تحت السَّرير.

قالت "ثريَّا" بلهفة: أريد أن أراها.

قالت "سريرة": إذهبى هاتها.

دخلت "ثريَّا" حجرة "سريرة"، واتَّجهت مباشرة إلى السَّرير النُّحاسى العالى، ثم جلست على ركبتيها، فرأت الصُّندوق، لم يُثر اهتمامها كما أثاره عندما رأته أوَّل مرة، مزوَّقا بأوراق أشجار وزهور فضِّية وذهبيَّة، خشبه بنِّى، نُحتت فيه دوائر ومربعات ومثلَّثات تداخلت فى بعضها بنسق بديع، الصُّندوق معمول من خشب ثقيل، لم تستطع "ثريَّا" سحبه من أسفل السَّرير، فتسحَّبت على ركبتيها حتى وصلت إليه، ورفعت غطاءه بسهولة، فرأت

ملابس "سريرة" موضوعة بعناية ومرتَّبة، ملابس لم تر "سريرة" ارتدتها من قبل، هناك قمصان نوم ما زالت فى أكياسها، وهناك أوراق لم تهتم "ثريَّا" بالنَّظر إليها، فهى لا تجيد القراءة، وهناك زجاجات عطور لم تُستعمل، وها هى المكحلة.

كان طبق الصَّاج قد امتلأ بلفافات القطن المبرومة الغارقة فى زيت الزَّيتون، عندما ظهرت "ثريَّا" قادمة، تمسك بيدها الحافظة الجلديَّة للمكحلة، وهى تنظر إليها بإعجاب مخلوط بالانبهار.

قالت "سريرة" بلا مبالاة: هيا "ثريَّا"، أشعلى النَّار.

لكن "ثريَّا" قالت: المكحلة جلدها كأنه معمول اليوم، رسومات الطُّيور تكاد تفر.

ابتسمت "سريرة" بسمة مريضة، متهكِّمة، وقالت: ما لزوم المكحلة وليس هناك عيون تكتحل؟! أشعلى النَّار يا بنيتى.

أخذت "ثريَّا" لفافة قطن من تلك المغموسة فى زيت الزَّيتون، وثبَّتتها جيِّدا بطرف سلك رفيع إلى منتصف فوَّهة زجاجة صغيرة، ثم أشعلت النَّار فى ذؤابتها، بينما أمسكت "سريرة" بالقعبة الفخَّارية، وكفتها فوق خيط الدخان الضَّئيل المتصاعد من لهب النَّار.

قالت "سريرة": ويمكن "حجيزى" يعود حيًّا، مستحيل يكون رأى الغيب وتأكَّد من يوم انتهاء أجله، لا أحد فى هذه الدنيا يعرف متى سيموت، وليست كل الرُّؤى تتحقَّق على كلام المعبِّرين، حتى المعبِّر كان داخل الرُّؤيا!

قالت "ثريَّا" ضاحكة: قلبى يقول لى إنه سيعود يا "سريرة".

ابتسمت "سريرة" وقالت: لو عاد، سأضع فى عينَى كحل "الدلال"، وأتعاجب له.

ثم استدركت: امسكى القعبة.

أمسكت "ثريَّا" القعبة، سهاد اللهب يتصاعد إلى قلبها، ليلتصق به، هذا هو السِّهاد الذى لمَّا تكشطه نساء "الوعرة"، يعبِّئنه فى زجاجات صغيرة جدا كُحلا للدلال.

أما "سريرة" فإنها أخرجت إحدى زجاجات مكحلتها العتيقة، وفتحتها بيد مرتعشة، ثم أمسكت المِرود بأصبعين مرتعدين، وغمسته فى الكحل العتيق، ثم رفعته إلى إحدى عينيها، ومرَّرته ببطء مهزوز بين جفنيها الذين انطبقا على المِرود بشوق وحنان شديدين.

عندما فتحت "سريرة" عينيها المكتحلتين، نظرت إليهما "ثريَّا" فارتجف قلبها، لقد ظهرت عينا "سريرة" مرعبتين، ولمَّا سألتها عن رأيها، قالت "ثريَّا" بصوت بارد: حلو يا "سريرة"، حلو.

لكن "سريرة" لمست الرَّنة الباردة التى فى صوت "ثريَّا"، فقالت: الكحل للصبايا يا "ثريَّا"، ليس لمن يودِّعن الحياة مثلنا، الله يسامحك يا "حجيزى".

13

صَلِيبٌ مَكسُورٌ أَعلَى بُرجِ الكَنِيسَةِ

لسعة برد ليل ما قبل الفجر، وكان القمر قد غادر السَّماء تماما، والحلك مدلهم، حتى أن الأشجار ضاعت ملامحها فى بهيم ظلماء اصطبغت بها الصَّحراء، وغرق فيها جبل الرُّهبان.

قال "حجيزى": نحتاج نارا نُدفِىء بها جلدَينا.

قال الرَّاهب "يوأنَّس": لو أستطيع أن أُخرج هذه الجذوة المتَّقدة فى قلبى لأدفأتنا.

*****

اعتدلت "سيرين" من اتكائتها على مرفقها، ومدَّت يدها بكوب الشَّاى تعيده ممتلئا إلى "صبحى"، فأخذه منها مستغربا ما يجرى، لتضع وجهها بين كفيها، وتغرق فى البكاء.

كان ثدياها قد تضامَّا فى عريها، لكن لم يكن لهما أن يتَّضحا، وقد منع ذراعاها الملتصقان، وشعرها المنسدل حول جانبى وجهها، مسقط نور لهب اللمبة العويل عنهما.

خنقت العبرات صوتها: رأيت ما لم أكن أتخيله، ولم أفهمه، لكنِّى استبشعته.

وأخذَت تنتحب، و"صبحى" يمسك بكوب شايها، ينظر إلى كتفيها المرتجَّين حيرانا.

ارتعبت "سيرين" من صورة القدِّيس "مار جرجس"، من هذا الرُّمح الذى يعلو ويهبط ممزِّقا تنِّينا يرفس رفسات الموت الأخيرة، كانت تقف أمام باب غرفة والدها، وفى اللحظة التى صكَّ فيها سمعها صوت زئير التِّنين، سمعت تأوهات أمِّها المتتالية، فتلبَّسها الرُّعب، الذى شلَّ لسانها، لكنَّه لم يشل يديها ولا ساقيها، لتهجم على أُكرة باب غرفة المعلِّم "نظير"، وتفتحه، وتدخل.

اللمبة "السهَّارى" تشع نورا خافتا، يسقط على جسدين عريانين تماما، المعلِّم "نظير" يعلو السِّت "جميلة" التى كانت منسدحة على ظهرها، بينما فخذاها يسترخيان ويعودان للضَّغط على جنبَى "نظير" مثل زعنفتى سمكة، وكان "نظير" مرميا بصدره على صدرها، يأْكل رقبتها وأذنيها، وكان فحيح يمتزج بتأوُّه.

وقفت "سيرين" مثل صنم، كان أبواها يتعاركان فى الفراش، وأبوها يبرك على أمِّها يأكلها مثل كلب يأكل دجاجة تموت.

وبينما تحاول التخلُّص من شللها لإنقاذ أمِّها، فكَّرت: لماذا يتعاركان عريانين؟!

ثم رأت "سيرين" ما أطلق الصَّرخة من حنجرتها، صرخة ملتوية وسائحة يتصاعد منها دخان الحرائق، رأت رُمحا ينبثق من أبيها، رُمحا مشدودا التمع لمعة وامضة بنور السهَّارى الخافت قبل أن يواصل الطعن ممزقا جلد أمِّها، وكانت أمُّها تتأوَّه، وتتلوَّى مثل التِّنين الذى يموت تحت سيقان فرس القدِّيس "مار جرجس".

"لم تكن روح المعلِّم نظير فقط هى التى تنظر إلينا وقد سكنت فى أحد أركان سقف الحجرة، كنت أنت يا يسوع تطوِّف، ورأيتها أنت يا يسوع وهى.. يا ويلى.. يا خجلى.. لكنك يا ربُّ رأيتنى لا أخطئ".

باغتت "سيرين" "صبحى" بما فعلته، إذ أن حكيها كان قد أربكه، فلقد وجد نفسه محصورا بين شهوة تفجَّرت فيه، وحياء يصطحبه دائما مثل ظلّه، وتحذير المعلِّم "نظير"، وغضب "المسيح"، أربعة أحوال مثل أجنحة الصَّليب، تعلَّق عليها مقتولا، وفاجأته "سيرين" وهو فى هذه الحالة، فمدَّت ذراعها بسرعة خاطفة، وقبضت على قضيبه.

ارتج جسد "صبحى" بحركة لا إرادية، فانسكب الشَّاى من الكوب الذى بيده، كانت ساقه قد قفزت من مكانها أيضا لتضرب "الوابور"، فتسقطه على الأرض، فينسكب منه الكيروسين، بينما يده الأخرى تخشَّبت أصابعها المغروسة فى لحم كف "سيرين" تحاول نزعها عن قضيبه، لكنَّها كانت قد كلبشته بأصابعها المضمومة عليه، كأصابع ميِّت يحاول التعلق برقبة زجاجة مملوءة بإكسير الحياة.

كانت تهمس منتحبة: عشت طول حياتى بعد الذى رأيته أظلم أمِّى.

كان "صبحى" مفزوعا يحاول الوقوف، وكان يشعر بعضوه يمتلئ ويشتد رغم قبضة "سيرين" المحكمة.

- أبى يعذِّبها كل ليلة، فلماذا تذهب إليه فى غرفته وتتركنى وحيدة، كيف تتحمل طعنات هذا الرُّمح.

استطاع "صبحى" الوقوف أخيرا، وبيديه الاثنتين حاول فك قبضتها، كان يتعامل مع المستحيل، كلما حاول ضغطت أكثر، فتؤلمه ألما يهصر الرُّوح.

رائحة الكيروسين كتمت هواء الغرفة، وكذلك رائحة الدخان المتصاعد من لهب اللمبة العويل، ورائحة شعر "سيرين" رائحة قرنفل يزوى، و"صبحى" يشارف على الاختناق، وهو يرى وجه "المسيح" ناظرا ناحية "سيرين" مربدًّا، ثم يفتح فمه ويرعد: اضربها.

كانت تقول: أنا ظلمت أمَّى طول هذا العمر، أنا يا "صبحى" لى جسد لا أعرف لماذا يثور منذ فترة، ويطلب هذا الرُّمح، ويريد تجربة الطَّعن؟!

فى هذه اللحظة هوت روح المعلِّم "نظير" من ركنها عند سقف الحجرة، لتسقط على الأرض، وتصرخ: اقتلها يا "صبحى"، اقتلها، إياك و"سيرين" يا ابن الإسكافى.

وانطلقت يد "صبحى" بصفعة هائلة على وجه "سيرين" ألقتها صريعة على الفراش.

كانت النَّار ترمى بدفئها ووهجها، حتى أن حشرات تلبد بين أغصان الأشجار التى فى سفح الجبل جاءت لتحترق فى ألسنة لهبها، حتى أن مساحات من هذا السَّفح أضاءت، ليتراقص عليها ظلا العجوزين.

- بكيتَ كثيرا يا مقدِّس، هوِّن عليك.

مسح الرَّاهب وجهه، وهمس: أبكى العمر الذى ضاع، ضيَّعَته هذه الصَّفعة، لمَّا صفعت "سيرين" كنت أصفع حياتى، فهربت منى، لتواجهنى بعد ذلك بصفعة قَلَبَتنى، وما عرفت بعدها كيف أعتدل.

- "سيرين" هربت منك؟!

رفع الرَّاهب "يوأنَّس" وجهه من فوق ألسنة اللهب، وحدَّق فى عينَى "حجيزى" طويلا، كان تحدٍ يبرق فى عينيه، وبدا أنه يهم بِقَول كلام خطير، ثم طأطأ رأسه مرَّة أخرى ناحية النَّار، وفى الوقت الذى كانت تعلو فيه طقطقة حشرة يلتهمها اللهب، ارتفعت صرخة الرَّاهب "برسوم" الحادَّة، الطَّويلة، المعذَّبة.

رفع الرَّاهب "يوأنَّس" وجهه مرَّة أخرى، وأيضا حدَّق فى عينَى "حجيزى"، ثم قال: سأقول كل شىء يا "حجيزى"، أنت أتيت إلى جبل الرُّهبان من أجل أمر أعدَّه الرَّب، وأنا لم أجلس هنا مع بشرى غيرك، فكلنا هنا نتفرَّغ للجلوس مع الرَّب، لا مع البشر، ونحن لا يمكننا إلَّا أن نتحدَّث مع "يسوع" بأدب، نشكره على محبَّته، ورحمته، ونغنِّى له، ونمجِّده، لكنَّنا لا نشكو له آلامنا، أقصد... لا نشكو له آلامنا بشكل حقيقى.. أقصد...

أخذ صدر الرَّاهب يعلو ويهبط مثل صدر الغضبان، ورأسه يدور مثل رأس الحيران، وصرخ الرَّاهب "برسوم" مرَّة أخرى، فهتف "يوأنَّس": الرَّب هو سبب آلامى، وسبب آلام "برسوم"، وسبب آلامنا كلنا، يجب أن أتكلَّم الآن، وأقول كلَّ شىء، ويجب أن يسمعنى "يسوع"، أنا أمدحه طول عمرى، أمدحه وقلبى معبأ بالآلام، وهو لا يقدِّم لى أىَّ حل، بل ألقى بى فى منافيه هذه، ليسمع إذن تذمُّرى ولو مرَّة واحدة، ليتَّسع صدره لغيظى المكبوت من تصرُّفاته المريرة.

امتقع وجه "حجيزى" وهو ينظر إلى شفتى الرَّاهب الذى انفلت عياره.

- لماذا يحارب الرَّب جسدى؟ لماذا يصرخ فىّ دائمًا لأهتم بما لا أراه على حساب ما أراه؟! لماذا يطالبنى بمراعاة روحى، ويأمرنى بإهلاك جسدى؟!

تخيَّل يا "حجيزى" أنى لم أصفع "سيرين"، وأنى سمحت لجسدى بأن يلبى نداء جسدها، ما الذى كان جرى؟! كانت اختلفت الأمور، ودارت العجلة فى اتِّجاه الحياة، إمَّا كنت تزوجتها، أو كنت شبعت منها ثم تركتها، لكنِّى فى كل الأحوال كنت سأشترى محل "مانيفاتورة"، وربما صرت أكبر تاجر أقمشة فى بر "مصر"، ولم يكن ضاع العمر بين السَّحالى والضِبان والثَّعالب والذِّئاب، وهذه الأجساد التى تحيا ميِّتة.

لكن كيف للرَّب أن يطيب باله وعبيده فى هناءة؟! لابد من العذاب والألم، البنت تمسك قضيبى الذى نفر فى قبضتها، وجسدى طاب له المَشْهَى، وبدلا من أن أمرح فى جِنان "سيرين" وأشجارها، وأعبُّ من نهر حبها وأروى عطشى، يظهر الرَّب فى سماء الغرفة غضبانا! وتظهر روح الملعون "نظير" غضبانة، وأنا كنت فى عز شبابى، وكلام أبى عن "المسيح" فى صدرى لم يزل غضًّا، وصَعُب علىَّ صليبه المكسور فى نجع "أبو ليله"، ولم أشأ أن أكسر أيضا صليبه الذى فى قلبى، وبغباوة العبيد ضربتُها بكف زهقان، أطرش من وشيش الغضب، وخرجتُ من الغرفة مسرعا، أقف على السَّطح المكشوف، أسحب الهواء إلى رئتىّ المخنوقتين.

يا لغبائك يا "صبحى"! تطيع روحا تهيم فى سماء الحجرة، وتعصى جسدا كاملا بضًّا دافئا، يريد أن يمنحك حبَّه فى فراشك؟! يا لحماقتك أيها الرَّاهب المغبون "يوأنَّس"!

- وبعد؟

- ها أنا كما قلت لك، أقضى أيام العمر منفيًّا فى هذه الصَّحراء.

- تنفى نفسك لأنك ضربت واحدة على خدِّها فتركتك وهربت؟!

- لا، نفيت نفسى لأنى قتلت "سيرين".

- قتلتها يا مقدِّس؟!

بعد ظهيرة اليوم التَّالى، وبينما "صبحى" فى المحل، يتعامل مع الزبائن، ورأسه يمور بما جرى فى الليلة السَّابقة، رأى "سيرين" تدخل، وجهها رائق ومبتسم، وملابسها ملوَّنة ومحبوكة، وشعرها منطلق، وفى يدها كيس به لفافة.

ابتهج قلب "صبحى" لمرآها، لكنَّه كسر عينه ونظر فى القماش الذى يقطعه للزَّبائن، كان خجلا مما حدث بالأمس، بينما "سيرين" بدت وكأنها لم تكن تحيا أساسا بالأمس، كانت جديدة تماما.

وبعدما غادر الزَّبائن المحل، أخرجت اللفافة من الكيس، وفتحت أوراقها، كاشفة عن حلوى البسبوسة، قطعا متراصَّة فى طبق كرتونى، وضعته على النُّضد الذى تراصَّت فوقه دفاتر حسابات، وأوراق فواتير، وابتسمت وهى تهز رأسها، وقالت: اعمل لى شايا يا "صبحى".

وقف "صبحى" ليعمل لها الشَّاى، وكان قد رأى الصليب مخضرًّا فى رسغها اللدن، صليبا مبهجا، مشعًّا بالحياة، وليس أبدا خشبة لعنة، تُزهق عليه روح ابن الإنسان.

ما الذى يفعله الليل بـ"سيرين" فيجعلها غير سويَّة؟!

فتح "صبحى" باب غرفته، فدخلت، دموعها تسيل، وفمها يشهق، وألقت بنفسها فى أحضانه، فصرخ الرَّب "يسوع"، الطوَّاف فى سماء الحجرة: احذر يا ابن الإنسان.

وصرخت روح المعلم "نظير"، التى عادت للسَّكن فى ركنها بجوار السَّقف: احذر يا ابن الإسكافى.

صفعت الصرختان وجهَ رغبته، فأزاح "سيرين" من بين ذراعيه وصدره بجفاء، فنظرت فى عينيه، وهمست: لماذا تكرهنى؟!

اتَّجه "صبحى" إلى صندوق متوسط الحجم موضوع بجوار الحائط موازيا للسَّرير، فتحه، وأخرج منه علبة صغيرة مكسوَّة بالقطيفة الحمراء، رفع غطاءها الصَّغير، وأخرج منه سلسلة ذهبيَّة تدلَّى منها صليب لمَّاع، ومد يده بها إلى "سيرين".

ابتسمت، وقالت: أنت تحبنى يا "صبحى"؟!

لم تحفل بالسلسلة الذَّهبية، وإنما وضعتها فى علبتها، ثم ألقت بها على السَّرير، وأخذت تفك أزرار قميصها، استدار "صبحى" مبتعدا عنها إلى الوابور، وجلس على الكرسى المنخفض، وأخذ يكبس الوابور، يعدُّه للعمل واشتعال النَّار.

سمعها تقول: أنا لا أريد شايا يا "صبحى"، أنا أريدك أنت.

- هل يمكن لشاب أن يسمع مثل هذا الكلام ولا يلبى يا "حجيزى"؟!

نكَّس "حجيزى" رأسه، وأخذ يقلِّب النَّار بأحد أعواد الحطب، ولم يُجب.

- "سيرين" نادت علىّ بصوت مبحوح: تعال.

أنا نظرت إليها، فوجدتها مستلقية على السَّرير عريانة كيوم ولدتها أمُّها، وتحت باطها علبة القطيفة، لكن كيف لى أن أذهب إليها وضجيج صرخات "المسيح" والمعلِّم "نظير" يعصف بى؟! لم يكن ممكنا أبدا أن ألقى بنفسى فى رغبتها، وهناك أعينهما الغاضبة تهتك عريينا.

ثم، كيف خلعت "سيرين" ملابسها كلها، واستطاعت أن تتمدَّد بكامل عريها هكذا، من غير ذرَّة خجل؟! بل وتدعونى كى...

فى صخب النَّاس، وهوس دنياهم، يضيع صوت الرُّوح، أحبال الحناجر لها الغلبة، والألسنة تتكلَّم بكل ما يؤذى كينونة الأجساد، فى حين أن الرُّوح تتكلَّم بالحق، للحقيقة، من أجل صالح هذه الأجساد، والصَّحراء، هذه المنافى السَّاكنة، بيئة صالحة لسماع صوت الرُّوح، الصوت الخفيض الهامس كصوت ملاك.

أنا سمعت هذا الصوت، كثيرا سمعته، وطويلا كانت روحى تشرح لى ما جرى، لكن كيف أستمع لصوت روحى، وأتجاهل صوت الرَّب؟! ما تقوله روحى لا يستقيم مع كلام "يسوع"!

روحى تقول: "سيرين" أصدق منك يا "صبحى"، أحبَّتك بروحها، فدقَّ قلبها، وأرادت أن تضمّك إليها بجسدها، فطلبت منك ذلك، ولم تخبِّئ شيئا، تعاملت مع الأمر ببساطة.

لكن كلام الرَّب ليس هكذا، الرَّب يتكلَّم عن الزِّنا، ليس رجل وامرأة يعرفان بعضهما فى فراش من غير علم النَّاس ومباركتهم إلَّا زانيين.

قلت لروحى: "سيرين" كانت عاهرة، ليست أكثر من عاهرة، أقدِّم لها حبِّى فى علبة مكسوَّة بالقطيفة، وهى ترفضه، وتطلب جسدى!

أيام طويلة قضيتُها فى هذا الكهف أجادل روحى، أحاول إقناعها بأن "سيرين" كانت مُشينة، وكانت تستأهل قتلها، وفى مرَّة بصقت، وزعقت: كانت مومسا.

فإذا بى أرى روحى تتكاثف فى فضاء الكهف، بنتا بيضاء مثل نتف القطن، بنتا تشبه...

كانت روحى يا "حجيزى" تشبه "سيرين"!

آه، كم هو غبى هذا الإنسان؟! معقولة أنا عشت حياتى كلها، روحى فى داخلى تشبه "سيرين" ولا أعرف؟!

نظرت روحى لى فترة طويلة بغضب، قبل أن تعود إلى الوراء فتختلط بالنُّتوءات الصَّخرية لجدار الكهف، ثم تندفع إلى الأمام، وتركل وجهى بقدمها.

شعرت بدوار رهيب، وأنا أسمع صوتها مثل صلصلة الأجراس: أنت من ضيَّع "سيرين" يا أحمق، وأنت من ضيَّعت نفسك.

*****

الرَّب لا يصمد كثيرا أمام المال، والمال لا يصمد كثيرا أمام الحب، الحب يهزم الجميع، إذ أن "صبحى" بعد اكتمال هذه السَّنوات الخمسة فى "أسيوط" كان قد نسى الصَّليب المكسور، وكنيسته العاجزة عن التوسُّع فى "أبو ليلة"، كما أنه لم يعد يهتم بالجِمَال الحمراء الشَّامخة بأنوفها على أوراق الجنيهات الأبية، وإنما صار يقف فى محل "المانيفاتورة" ذاهلا مثل مريض، ناحلا من حب

"سيرين"، الحب الذى تبيحه له صاحبة الشأن، بينما تمنعه عنه تحذيرات الرَّب، وأحقاد ميِّت مثل المعلِّم "نظير".

لم تعد "سيرين" تأتيه، لا فى المحل، ولا فى غرفته، كانت تأتيه من قبل فى المحل من أجل أن تمهِّد للقاء الغرفة الليلى، لكن لقاءات الغرفة كانت تنتهى دائما بما هو مهين لها، مرات عديدة تتعرَّى له، مرات تلقى بنفسها عليه، تتحمل لكزاته ودفعه لها، على أمل أن تنتصر يوما، أن يلين، كانت تظن أنه يعانى من الخجل، أو من تركيبة شخصيَّة خاصَّة معقَّدة، وفكرَّت أنها فى كل ليلة قد تكسر جزءا من حائط الصَّد هذا، وتحل عقده.

فى هذه الليلة أفلحت بعد طول تشابك فى أن تدفعه لتلقى به فى السَّرير، ثم تعلوه، شعرها مهوَّش، وعرق جبينها يلتمع فى النُّور الهادئ للمبة العويل، ونهداها يتدلَّيان فوق وجهه اللاهث، كانت تضغط على كتفيه، وكان يستطيع أن يزيحها عنه بسهولة، لكن جسده كان يتآمر عليه أيضا، أحب اعتلاء "سيرين"، وكانت الرَّغبة تجتاحه مثل فيضان هادر، لكن عيناه ترفضان دائما أن تلتقيا بعينيها، دائما تنظران إلى أعلى، وتدوران فى محجريهما كأنه ينظر إلى أشباح تطوِّف الحجرة بهوس.

كانت تضغط على كتفيه تمنعه من الحركة، وقالت بضيق فيه رجاء: لماذا ترفض؟! أشعر به تحتى مثل الحجر، فلماذا ترفض؟!

هَتَفَت بصوت مكبوت: لا تضربنى، لا تدفعنى، ولكن أخبرنى، قل لى.

- لو قلت لك ستسخرين منى.

أرخت ملامح وجهها الغاضبة، وقالت بلهفة: لن أسخر منك، صدِّقنى.

رفع "صبحى" ذراعه اليمنى، وتتبّع بسبّابته شيئا يتحرّك فى سماء الحجرة، لم تتمكّن "سيرين" من رؤيته، لكنّها سمعت صوت "صبحى" مخنوقا، يهمس: ها هو "المسيح" مهتاجا، ينظر إلينا بغضب.

وعندما ضمّت شفتيها إلى بعضهما مذهولة، كان "صبحى" يشير إلى ركن قرب السّقف، ويقول: وها هى روح المعلِّم "نظير" تصرخ فىّ "إحذر يا ابن الإسكافى".

اكتمل ذهول "سيرين"، ومن غير كلام لبست هدومها، ومن غير كلام مضت.

- لم أعد أرها، وعادت الأيام إلى سوادها القديم، تمر بطيئة، لكنّها كانت أكثر مرارة، كان غياب "سيرين" قد أفقد حياتى روحها التى عملت فى وجدانى مؤخّرا، فأعطت للدُّنيا طعما آخر، لا يكون لمّا لا تكون.

وفى عصرية كئيبة، جاء المعلِّم "اسطفانوس"، صاحب أحد محلات "المانيفاتورة" المجاورة، وجهه السّمين مربدًّا، وشاربه المفتول مرتخيا، وجلس على الكرسى، وأمال رأسه إلى رأسى، وهمس: بنت المعلِّم "نظير" مالت ميلة شنيعة يا "صبحى"، ولولا أنى أعرف مقدارك عند المرحوم، ومقداره عندك ما أخبرتك، البنت مالت ميلة شنيعة، وتمشى على حل شعرها مع ولد مسلم، النّاس رأوها تدخل بيته يا "صبحى"!

"السّماء تلبدت بالغيوم، والسُّحب الحمراء فى سواد الليل تتصادم، وتدوِّى بهزيم الرّعد، وألسنة البرق تتلوّى فتشرخ الفضاء الغاضب، أحد هذه

الألسنة يضرب الصَّليب المكسور المغروس فى أعلى برج كنيستنا، فينزعه ليلقى به فوق أحد أسطح البيوت القريبة، والمسيح يهوى من تحويمه فى حجرتى، ليسقط على الأرض وهو يعوى، وثمَّة خنجر مرشوق فى قلبه، على مقبضه مرسومة إحدى عينّى سيرين، سيرين قتلت المسيح، والمسلمون يمارسون هوايتهم فى السُّخرية من الرَّب يسوع وشعبه، حتى فى مملكته القائمة فى أسيوط".

لا أعرف كيف انقضى الوقت، وبعد العشاء أغلقت المحل، ومضيت متجها إلى حجرتى، الشَّوارع هادئة، قليل من النَّاس، وبعض عساكر إنجليز يصخبون، وسيَّارة تمضى لتتبعها بعد حين سيَّارة أخرى، وقمر مكتمل يسير فوقى، يمشى معى، لكنِّى أذكر أننى فى هذا الوقت كنت متمالكا نفسى تماما، كنت قد قرَّرت قتل "سيرين"، وكان هذا يسبب لى راحة خدَّرت أعصابى.

وصلت إلى باب عمارة المعلِّم "نظير"، ولأوَّل مرة، وأنا الذى دلفت من هذا الباب سنين طويلة، أنتبه لضخامته، وأنه من حديد تشابك والتوى ليرسم ملاكين على ضلفتيه، بينما دارت الصُّلبان تؤطِّر أعلاه.

صعدت على السلالم الواسعة، كانت تلمع بنور مصباح باهت تدلَّى من السَّقف العالى للمدخل، وعند باب شقة المعلِّم "نظير" توقَّفت.

باب خشبى ثقيل، له شرَّاعتان من زجاج أبيض مغبَّش، احتمتا بشبكة حديدية زرقاء مزوَّقة.

طرقتُ الباب، ومع الصَّمت بدأ قلبى يخفق، ثمَّة مفتاح لجرس كهربائى بجوار الباب، ضغطت عليه، فأطلق صليلا حادا، وسمعت حفيف خطوات خفيفة تقترب من الباب.

جاءنى صوتها، صوت "سيرين": من؟

- "صبحى".

إنها السَّاعة التى قبل الفجر تماما، أحلك ساعة، وساعة الصَّقيع، ووقت الحزن، وبكى الرَّاهب "يوأنَّس"، ونشج، والنَّار ارتسمت فى دموعه، ووجهه توهَّج بنورها.

قال: فَتَحَت الباب وأطلَّت فى عينَى، توهَّجت فرحة خاطفة فى عينيها، ثم انطفأت.

لا أعرف كيف قتلتها حتى الآن؟! كيف هانت علىّ؟! هل كنت ممتلئا بالشَّيطان إلى هذه الدَّرجة؟! إلى حد البلادة...

وقتها كنت أظن أننى ممتلئ بالمسيح!

- ماذا تريد؟

- أريدك أنت.

- لكنِّى سأخرج الآن.

- أحتاج الكلام معك.

صمتت، فقال بنبرة حالمة: سأنتظرك فى غرفتى.

"إلى أين ستخرج هذه العاهرة؟! بالتأكّيد تنوى الذِّهاب إلى عشيقها المسلم، الكافرة، لن تتمكن أبدا من الذهاب إليه بعد الحين، فهى ابتداء من الآن تعيش لحظاتها الأخيرة".

فتح "صبحى" باب حجرته، واتَّجه فورا إلى الصُّندوق الخشبى المجاور للوابور، الذى يضع به مستلزمات طعامه، طبق وكسرولة وحلة صغيرة وملعقتان، إحداهما صغيرة لتقليب الشَّاى، وسكيِّن صغير ذو نصل طويل قوى، اصطدمت يده بالسِّكين، فأمسك بها، وبسرعة خبَّأها تحت وسادة السَّرير، كانت دقَّات قلبه قد صارت ضارية، وتحت ضلوعه يتزلزل، أشعل عود ثقاب، وأضاء اللمبة "الكيروسين"، ونظر إلى فضاء غرفته، كان خاليا، لا مسيح، ولا شبح روح المعلِّم "نظير".

ظهرت "سيرين" فى باب الحجرة، واقفة، كأنَّها لا تريد الدُّخول، فقال "صبحى": أدخلى.

قالت بصوت خفيض ساخر: ربما "المسيح" يكون فى غرفتك، وروح المعلِّم "نظير" أيضا.

نظر إلى فضاء الغرفة وهو يهم بقول "لا"، لكنَّه فوجئ به، فى قلب الفضاء، ينظر إليه متألِّما، وقد نشر كفَّ يده على جرح كبير عند قلبه، يبكُّ الدِّماء.

ابتسم "صبحى" ابتسامة شاحبة، فدخلت "سيرين"، وجلست على حافَّة السَّرير، من غير أن تغلق باب الحجرة كعادتها، فاتَّجه "صبحى" إلى الباب وأغلقه، فنظرت إليه "سيرين" نظرة مندهشة.

- جلستُ على الكرسى الواطئ، أمام وابور الجاز، وأخذتُ أعدُّه للاشتعال، بينما أفكر فى كيفية قتلها، كيف أغرس فيها السِّكين؟ وأين؟ أى منطقة فى جسد الإنسان إذا غَرَست فيها نصلا حادا، يموت بسرعة، ومن غير ضجيج، ثم فكرت فى جديِّة ما أنا مقدم عليه، هل فعلا سأصير قاتلا؟! وهل فعلا سأقتل "سيرين" بالتحديد؟!

سألتُها بصوت مرعوش: كنت ستخرجين لمقابلة هذا السَّافل!؟

لم تبد عليها أيَّة مفاجأة، بل خيِّل لى أنى رأيت طرف ابتسامة على شفتيها، وقالت: من أخبرك؟

- إذن ما سمعته صحيحا؟

- صحيحا أو غير صحيح، ما الذى يعنيك فى هذا الأمر؟!

- يعنينى أن هذا السَّافل مسلما.

رأى "صبحى" زاوية شفتيها تتقلَّص، ليشع وجهها باحتقار غريب، فتظهر "سيرين" أخرى غير التى عرفها، "سيرين" قاسية ومتنمِّرة.

- فقط هذا الذى يعنيك؟! لو كان السَّافل مسيحيًا لن يشغلك الأمر!؟ يا لها من خسارة.

ووقفت كأنها لُدغت، وعندما همَّت بالتحرُّك ناحية الباب، أمسك "صبحى" بذراعها ليمنعها من المغادرة، فنظرت إليه نظرة طويلة متهكِّمة، قبل أن تجذب ذراعها، لتنفلت من قبضة يده، وتتحرَّك فى اتجاه الباب.

فى لحظة خاطفة، فكَّر فى أن يخطف السِّكين من أسفل الوسادة، وينهال بها طعنا فى ظهرها وعنقها، لكنَّه وجد نفسه يهرول ناحيتها، ويقبض على عضدها قبل أن تصل إلى الباب، ثم يجذبها بقوة، ويلقى بها على السَّرير.

بوغتت "سيرين" بهذا التصرُّف، وحاولت أن تعتدل، لكن "صبحى" كان قد جثم فوقها وهو يلهث، وأحاط عاتقيها بكفَّيه يدفعها للسكون التَّام.

- المسيحى عندما يركبك لا يفكِّر سوى فى أنه يقضى شهوته مع عاهرة، لكن المسلم عندما يركبك، يركب كل المسيحيين، ويذل "المسيح".

- لم أكن أظن أنك سافل إلى هذه الدرجة.

حاولت نزع ذراعيه، بينما كانت تطلق كلامها الملتهب: أنا التى أردت أن أذل مسيحك، وليس المسلم، أنا التى أردت أن أعطيك درسا، مسيحك الذى يمنعك منى، لم يمنع المسلم منى، لو كان مسيحك مهتما بالأمر كما تظن لقتل المسلم قبل أن يلمسنى.

مدَّت ذراعيها بكل قوَّتها، وأحاطت بكفَّيها رقبته، وهى تدفعه عنها، كانت تفح: مسيحٌ وهم، وروح المعلِّم "نظير" وهم، وأنت أغبى إنسان قابلته.

انسلَّت يد "صبحى" إلى أسفل الوسادة، وقبضت على يد السكِّين، بينما "سيرين" تواصل فحيحها: المسلم أذكى منك، لمَّا رآنى أخرج إلهه من رأسه، وتمتَّع بى.

كانت هذه آخر كلمة لـ"سيرين" فى الحياة، فلقد جحظت عيناها، بينما بؤبؤاها يدوران فى محجريهما، وانفتح فمها ليشهق شهقة طويلة، ونصل السِّكين يمزِّق قلبها، ولهب اللمبة الكيروسين مستقرا فى مكانه، كأنه لهب مرسوم فى لوحة، لكنَّه يشع نورا أفلح فى أن يرى "صبحى" على ضوئه ابتسامة "المسيح"

المغتبطة، ونظرة حيرى فى عينى روح "نظير" المستكينة فى زاويتها قرب السقف.

*****

سن الشَّمس يبزغ من الأفق، بالكاد يرسل نورا باهتا، ورمال الصَّحراء تصطبغ باللون الرمادى، والعصافير تشقشق داخل الأشجار.

وما زالت النِّيران تطقطق وهى تلتهم الحطب المكوَّم تحت الأكف الأربعة المبسوطة فوق اللهب، تمتص الدفء.

-كانت ليلة طويلة.

- نعم، ليلة طويلة.

- متى يعود "عبدالله"؟

- لم؟!

- سأعود معه إلى "الوعرة".

صمت الرَّاهب "يوأنَّس" طويلا، ونفض عن حجره حشرة نمل كبيرة، ونظر إلى قرص الشَّمس الذى ظهر مستديرا، مستندا بحافَّته إلى رمال الأفق، وقال: من كان منَّا بلا خطيئة فليُلقِك بحجر يا "حجيزى"، حتى أنا نفسى تمنَّى لو أنها الآن تعود إلى نجع "أبو ليلة"، ربما ما زال الصَّليب هناك مكسورا فأصلحه.

مد يده وأمسك بعصاه، وتساند على يده الأخرى، ونهض واقفا، وقال: لا أحد يعرف متى يأتى "عبدالله"، لقد مضى بالأمس أمام عينيك، ربما يأتى

بعد أسابيع، أو أشهر، عموما، أنت أمامك فرصة طويلة وممتدَّة، لتصغى فى هذه المنافى إلى صوت روحك، لعلك تنقذها قبل فوات الأوان.

ابتسم "حجيزى" ابتسامة ساخرة، منهزمة، وقال: عمرى ثمانين عاما يا مقدِّس، لقد فات الأوان بالفعل.

قال الرَّاهب، بينما يستدير للمضى نحو المدق الصَّاعد إلى الجبل: ربما تعيش عشرين عاما أخرى، عشرون عاما أخرى ليست بالزَّمن القليل.

كان يصعد المنحدر، بينما صوته الباكى ينساب إلى أذنى "حجيزى": لنبدأ بدءا حسنا، ارحمنا إلى الأبد، الليل عبر، نشكرك يارب، إحفظنا فى هذا اليوم بغير خطيَّة، وانقذنا.

14

الوَلِيفُ تَنسَحبُ رُوحُه لِبُعدِ الوَلِيفِ

أخذ "غنيمة" يزيح الرَّمل بمسحاته ويلقى به فى الحفرة، يعيد ردمها، طالما أنه ليس بمستطاعه إخراج جثة "جاله"، فلن يسمح أبدا لضوارى الصَّحراء بنبش الحفرة والفتك بجسدها.

وبعد أن انتهى، جلس يفكِّر فى حاله، لم يزل تائها، والشَّمس تميل نحو المغيب، ها هو مكان الغروب، هذا هو الغرب، لكنَّه لم يستطع رغم ذلك أبدا تحديد اتِّجاهه، ولم يكن مستعدا للبقاء فى نفس المكان لليلة أخرى، سكون المرتحل فى الصَّحراء لو لم يكن من أجل استراحة، فهو خطوة نحو الموت، لابد من الحركة قبل نفاد الزاد والماء.

- إلى أين نتحرك ؟

كان يوجه خطابه لكلبه، الذى كان يقعى على مؤخِّرته، ناصبا ذراعيه أمامه ويلهث، لكن الكلب أرخى أذنيه، وأطلق نباحا خافتا ممدودا مثل الأنين.

أما النَّاقة فمستمرة فى الاجترار، تفتح عينين مطمئنَّتين غبيَّتين، لا تريان أن ثمَّة مشكلة هناك.

دار "غنيمة" برأسه فى كل الاتجاهات، كلها متشابهة، رمال منبسطة من غير آخر، سفيفة، رمال خالية من أية معالم، حتى هذه الأشجار القصيرة لم تعد هناك بعد أن دفنها "الغرد".

"من قال لك أن هذه الناحية هى ناحية غروب الشَّمس، ربَّما غربت هناك، فى تلك النَّاحية الأخرى! مسلك الشمس لا يبدو واضحا فى سماء صحراوات بلا معالم".

نظر طويلا إلى كلبه المهموم، اللاهث، ثم أعاد سؤاله: إلى أين نتحرَّك يا كلب يا ابن الكلب؟

- ليست العصافير فقط هى التى تصلِّى مرَّتين فى اليوم يا "حجيزى"، الكلاب أيضا تصلِّى مرَّتين، مرَّة فى الفجر، ومرَّة فى العشاء، تسمعها كيف تعوى لما تسمع أذان "سعدون"؟! حتى الكلاب يا أخى تعرف الله! كلبى لمَّا سألته "إلى أين نمضى؟!"، رفع رأسه إلى أعلى، ونظر بعينيه إلى السَّماء، وعوى، فذكَّرنى بالذى عنده الحل، وطريق الهداية، الكلب هو الذى ذكَّرنى بالله يا "حجيزى".

قرَّر أن يصلِّى لله ركعتين، يسأله فيهما النَّجاة، لكن ما عملته معه "جاله" فى ليلة الأمس أصابه بالجنابة، وكان لابد أن يغتسل.

الماء فى القربة ليس بالكثير، طالما أنه لا يعرف نهاية متاهته، ورغم أنه يعلم أن هناك تيمُّما يمكن أن يتطهَّر به، إلَّا أنه لم يكن يعرف كيفيَّته، الأخذ من الماء الآن لمجرد الاغتسال هو تصرف يوجع القلب.

"قدِّم لله يا غنيمة، بماذا ستفيدك قربة المياه لو بقيت ضالا فى هذه المفازات، ستشربها ثم تموت من العطش أيضا، لكن لو هداك الله ربما تصل إلى النَّجاة وفى القربة مياه، قدِّم لله يا غنيمة".

- فى لحظة خاطفة غلبنى الشَّيطان، ورمى فى ذهنى تساؤل، لماذا لا يقدِّم الله حلولا إلا إذا قدَّم له الواحد منا ما يملكه؟! لماذا دائما يتعامل بمنطق التُّجار، هات وخذ؟!

استغفرت الله بسرعة، عرفت أن الشَّيطان يريد قتلى، يوقعنى مع الله، الكافر لا يعلم أن ما يقدِّمه الله لنا أكبر وأقيم بكثير مما يأخذه منا، وهو سيأخذ قليلا من الماء، وسيهبنى الحياة كلها.

رغم أن الصَّحراء بلقعا خاويا، إلا أن "غنيمة" جعل النَّاقة الرَّابضة ساترا، وخلع هدومه، وصار عاريا، وعندما دار الكلب ليأتى ويقعى فى مواجهته، ضربه بحصوة، وهو ينهره: جررر، كلب ما عند الذى خلَّفك حياء.

- يتصرَّف الإنسان مثل الحيوانات يا "حجيزى"، كانت الصَّحراء ما فيها شكل ابن آدم على مدى البصر، وليس معى سوى ناقة بهيمة، وكلب لا يعقل، وأصر رغم ذلك على السُّترة من عريى! مثل القط الذى يقضى حاجته على الحجر الصَّلد، ويصر، بعد انتهائه، على تحريك ذراعه كأنه يدفن خراءه، وهو لا يدفن شيئا، الغريزة تحكم الجميع، عاقل أو غير عاقل.

يصب "غنيمة" الماء من فم القربة على كفِّه، ويدعك جسده، والرّمال النَّاعمة على جلده تتحوَّل إلى معجون لزج، وحارق، فيضطر إلى صبِّ الماء بغزارة، وعندما انتهى، كان الماء قد شارف على النَّفاد، وكانت فرصة النَّجاة كذلك، فنظر إلى الماء المتبقِّي، ودق قلبه هلعا، سينفد الماء قبل أن يصل إلى أي أفق من هذه الآفاق، وليت الحياة تكون عند الأفق، ربما بعد الأفق آفاق أخرى قبل النَّجاة، التي قد لا يصل إليها.

صلَّى لله واقفا، وصلَّى راكعا، وعندما سجد، وانكفأت رأسه في الرِّمال، لسعته حرارتها، لكن حرارة دموعه كانت أسخن، وسخونة مأزقه كانت أشد لهيبا، واستعمل قلبه، كان لابد أن يستمع الله إليه، وإلا مات.

- رأيته يا "حجيزى".

- رأيت من؟

- رأيتُ الله.

- أنت رأيت الله؟!

- رأيته.

- طيِّب! وما شكله يا ابن الكلب.

انسان ضخم لا مثيل لضخامته، الصُّخور الشَّاهقة هذه التى حول جبَّانتنا تحت قدمه مثل ذرّةِ رمل، رجل جميل الوجه، مليئ بالحنان والحب، عمره فى الخمسينيَّات تقريبا، يلبس على رأسه تاجا تتقلَّب فيه جواهر مثل الشُّموس، ويرتدى قميصا لونه أبيض زهرى يكب أنوارا، وأصابع يديه مُلبَّسة

خواتم وهَّاجة، تشع ألوانا مضيئة، وكان يجلس فوق شجرة تلتمع ببروق خضراء، وقدماه مدلَّيتان، وليس فيهما خف أو حذاء.

- يا رب، انقذنى.

- سأنقذك.

- الحمد لك يا رب.

- لكن ليس قبل أن تدفع الثَّمن.

فى هذه اللحظة أردت أن أسأله: لماذا وأنت الله الكريم، لا تعطى الإنسان شيئا إلا وتأخذ منه ثمنا؟!

خجلت، ولسانى عجز، لكن الله يا "حجيزى" يعلم ما فى النُّفوس فعلا، كأنه سمع سؤالى، فقال لى: لا يحيا الإنسان إذا أخذتُ منه من غير أن أعطيه، ولا تتحقق قيمته إذا أعطيته فقط، من غير أن آخذ منه، هكذا يصير مجرد عبد، وأنا ما خلقت الإنسان ليكون عبدا دنيئا، يأخذ من غير عطاء، وإنما خلقته خليفة لى، ربا على هذه الأرض، كما أنا أعطى، هو يعطى أيضا، وكلَّما أعطى بالرِّضا، صار ربا أقوى.

نظر "حجيزى" فى عينى "غنيمة"، ثم قال: أنا أصدِّقك هذه المرَّة يا "غنيمة".

- لماذا تصدِّقنى هذه المرَّة؟!

- هذا الكلام الذى قلت أن الله قاله لك، كلام موزون، ومعانيه عالية، وأنت حمار لا تستطيع تأليف مثل هذا الكلام، آخرك الكلام عن "شقمق بيك.

- طيِّب، المهم، دعنى أكمل لك...

- هذا كلام سمعت مثله من "المسيح" نفسه.

نظر "غنيمة" إلى "حجيزى" نظرة مشفقة، وقال: أنا الذى لا أصدِّقك هذه المرَّة يا "حجيزى"!

*****

النَّاقتان رابضتان فى متَّسع بين القبور، الشَّمس غابت تماما، وكان "بكير" قد عمل شايا، ومد يده بكوب إلى أبيه، وبحركة لا إرادية أخذه "حجيزى"، بينما مال برأسه ناحية القبر الجديد، مستغرقا تماما فى سماع صوت "سعدون" المدفون تحت الرِّمال، ولم يكن بمقدور "بكير" فعل شىء غير النَّظر إلى أبيه باندهاش صامت.

- أنا أخطأت لمَّا سمعت كلام "زليخة"، كانت تريد سعادتى، لكنَّها أهالت علىّ الأحزان، وأوَّل الأحزان كان موتها.

الوليف تنسحب روحه لبعد الوليف، ويتبخَّر لحمه عن عظامه من حريق الوجد، فينحل، حتى يموت، ولم يكن "سعدون" بالنِّسبة لـ"زليخة" مجرد زوج، كان وليفا، وكانت فى كل صباح من صباحات عرسه، تحمل صينية واسعة، عليها أطباق الفطور، ممتلئة بزبد وجبن ولبن وبيض، وحلوى العجوة، وتذهب بها إلى باب غرفته، وتطرق طرقة مستحيَّة، يسمع "سعدون" الطَّرقة فيرتبك، ويدفع "بثينة" كى تفتح الباب، فتقول له: افتحه أنت.

فيهمس لها وهو يكاد يبكى: حرام عليكى، ما أستطيع النَّظر فى عينيها.

وتقف "زليخة" تنتظر طلَّة وجه "سعدون"، تريد رؤية السَّعادة فى عينيه، وتريده يرى الحزن فى عينيها، لكن دائمًا يطل وجه "بثينة"، باردا، تأخذ منها الصِّينية، ولا تعرف ماذا تقول، فتغلق الباب.

وتقف على الباب وهى تحمل الصِّينية الواسعة، رصَّت فيها أصناف طعام الغداء، الفطير الرقاق، وطاجن المرق المعبَّأ باللحم، وطبق الملوخية، وطبق الفاصولياء، وخبز. ويطل وجه "بثينة"، ولا يظهر "سعدون"، وتأخذ "بثينة" الصِّينية، وجهها بارد، لا تعرف كيف تنطق كلمة شكر، إنما يركبها الحياء، فلا تعرف ماذا تقول، وتغلق الباب.

وكذلك فى العشاء، تحمل الأطعمة، وتنتظر طلَّة "سعدون"، فلا يطل، ليبدأ عذاب الليالى.

عندما دخل "سعدون" بعروسه فى أوَّل ليلة، دخلت "زليخة" غرفتها، فما عرفتها، أحسَّت أنها قد دخلت مكانا غير مكانها، مكانا يشبهه، نفس الدُّولاب، والسَّرير، والمرآة المعلَّقة على الحائط، والكرسى الخيزران القديم، لكن مواتا باردا يحيط بكل هذه الأشياء، بينما أشياؤها، التى عاشت معها كل هذه السِّنين الطَّويلة، دائمًا تكون حيَّة ودافئة.

وقفت فترة بجوار الباب، قدماها ثقيلتان، تريدان الدَّوران إلى الخلف، والخروج، لكنَّها من غير شعور، وجدت نفسها على السَّرير، متكئة على وسادتيه العاليتين، وعيناها تدلقان ماءًا حارا، وصار السَّرير صحراء واسعة، تتوه فيها وحيدة، وليلها زمهرير، فتدلَّت من السَّرير، وتركت الغرفة.

كان باب الغرفة الأخرى فى مواجهتها، غرفة العرائس، فانقبض قلبها واعتصر، لكنَّها مضت إلى عمق البيت المكشوف للسَّماوات، السَّواد العلوى، وبريق نجوم أخَّاذ، وقط يمضى بحذر المفترس على أحد الجدران، ودجاجة تقأقئ قأقأة

مفاجئة مذعورة، ودفعت "زليخة" باب غرفة الحزين، فانسكب الظَّلام فى وجهها، لكنَّها تلمَّست طريقها إلى أقرب جوال من الأجولة المملوءة بالذُّرة الشَّامية، جلست عليه، ثم فردت جسدها، ونامت فى الكوابيس.

بعد مرور السَّبعة أيام التَّعريس، لم يكن هناك مفر من أن يترك "سعدون" غرفته، ويخرج ليمارس الحياة، التى يبدأها بأذان الفجر، فطلع من الباب ينظر إلى الأرض، مخافة أن يصطدم بـ"زليخة"، فتأتى عيناه فى عينيها، فيرى ما لا يجب أن يرى.

وأذَّن "سعدون"، فحمل الهسيس صوته إلى أذنى "زليخة"، فاعتدلت من منامها على جوال الغلَّة، وأخذت تسمع بقيَّة الأذان، مثل الأيام الخوالى، أذان رائق خاشع، يخرج من قلب راض، فيحرِّك الكوامن، لتطير بالسَّامع إلى سماوات الله.

وعندما انتهت الصَّلاة، وشقشقت العصافير، حمل "سعدون" هَمَّ العودة إلى البيت، وعندما دفع الباب ودخل، حدث الذى خشيه، وجاءت عيناه فى عينى "زليخة"، فرأى الذى لا يجب أن يراه، ذبول الرَّونق، وغيض البهاء، وسهام عتاب ترتشق فى قلبه، هاله نحول "زليخة"، واتِّساخ ثيابها، وجفاف شعرها، فوضع نظره فى الأرض، وانطلق إلى غرفة "بثينة"، وأغلق الباب، وارتمى على السَّرير، الذى أحسَّته "بثينة" يرتعش، فاستدارت فى مضجعها، ونظرت إلى "سعدون"، فرأته يبكى.

- مالك يا "سعدون"؟!

- "زليخة" تذبل.

- إذهب إليها الليلة، واجبر خاطرها.

- ما أقدر، خجلان منها.

- تريد أن تتركها حتى تموت؟!

- جاء الليل يا "حجيزى"، وخرجتُ من غرفة "بثينة"، ساقاى تحملان قلبا ثقيلا مثل جبل، فتتحرَّكان ناحية غرفة "زليخة"، تزحفان زحفا، ماذا أقول لها؟! وهل ستقول لى شيئا، أم إنها ستنظر لى نظرة مرَّة، مثل تلك التى نظرتها لى بعد صلاة الصُّبح وتسكت؟! وماذا لو قالت لى كلاما يذبح؟ وماذا أقول لو أنها بقيت صامتة؟

وجدت نفسى ملاصقا لبابها، ورفعت يدى، ووضعتها على الأُكرة، وأدرتها، فاصطدمتُ بالظَّلام، تحب "زليخة" دائما النَّوم فى عتمة الحلك.

تنحَّمت حتى تنتبه لدخولى إن كانت نائمة، وحتى أشجع نفسى إن كانت مستيقظة.

لم أسمع صوت حركة، حاولت أن اخترق الظلام برؤيتى، فلم أر شيئا، اقتربت من السَّرير، شىء ما أحسست به يقول: "زليخة" ليست فى السَّرير.

مددت يدى أتحسَّس الفراش، ولم أجدها فعلا، ففزعت، كان الفراش مرتَّبا، لا يوحى بأنَّها كانت تنام وخرجت مثلا لقضاء حاجة، كان الفراش مرتَّبا، يوحى بالهجر، أين ذهبت المرأة؟!

أخذت إحدى اللمبات العويل، أشعلت فتيلها، وخرجت أبحث عنها فى كل أركان البيت التى من الممكن أن تكون قد ذهبت إليها فى هذا الليل، ركن الطبيخ، الكنيف، الفسحاية، العشش، لم تكن موجودة فى كل هذه الأماكن، وعندما وصلت إلى أعلى درجات القلق، لمحت عيناى باب غرفة الخزين الموارب، ذهبت إليه، ودفعته، وعلى الضَّوء المتراقص رأيتها هناك، نائمة على الجوال الممتلئ بالغلَّة.

لم تكن نائمة، إذ أننى ما إن دخلت الغرفة حتى اعتَدَلَت، وقفت مكانى، ولم أستطع الاقتراب منها، لكنِّى سألتها: لماذا تنامين هنا يا "زليخة"؟!

لم ترد على سؤالى، وبقيت مشيحة بوجهها عنى، تنظر إلى بؤرة مظلمة بين قدميها.

يا "زليخة" يا شقية، من الذى أشقاك؟ أنت أم أنا؟ أنت لمَّا اقترحت علىّ الزواج من أخرى؟ أم أنا لمَّا وافقت؟!

انفتح قلبى يا "حجيزى"، ففاض بكل شوقه إليها، وصَعُب علىّ حالها، وصَعُبت علىّ نفسى، فوجدتنى أندفع ناحيتها، وأجلس بجوارها وأبكى، وحرقنى البكاء فأجهشت، وكادت اللمبة تسقط من يدى.

"زليخة"! آااه يا "زليخة"، ما كانت "زليخة" زوجتى وحبيبتى وفقط، كانت أُما يا "حجيزى"، لديها غفران تمنح منه فلا ينتهى، أخذت اللمبة من يدى،

ووضعتها على الأرض، وقالت: أنا ما أعرف غير "سعدون" الذى يضحك، إضحك يا "سعدون".

قلت لها: أضحك لو جئت معى إلى غرفتك.

- غرفتى ؟!

- غرفتنا.

- لى شرط.

- أشرطى.

- لا تنم مرة أخرى عند "بثينة"، أنت زرعت البذرة ورويتها، ما عادت هناك ضرورة للذِّهاب إلى الغيط.

- الغيط يحتاج صاحبه يطل عليه ويتابعه.

- لكنه لا يحتاج لرمى بذور جديدة، ما أمنعك من الطل، أمنعك من البذر، وهذا شرطى.

- لكن "بثينة" ليست غيطا، إنها امرأة لها حقوق يا "زليخة".

قالت بحدة وصرامة: هذا شرطى، وإلَّا دعنى لحالى، واذهب لحالك.

أنا سكت يا "حجيزى"، وهززت رأسى بالموافقة، وقلت لها: طيِّب، إذهبى استحمى، رائحتك صارت عفنة.

لكزتنى فى كتفى، ووجهها انشرح، وأنا سبقتها إلى غرفتها، أفكِّر فى شرطها.

قال "حجيزى": وماذا فعلت ؟!

- كنت أغيب وأقضى وقتا عند "بثينة"، وبعدما أنتهى أذهب إلى غرفة الحزين لآخذ "زليخة" إلى غرفتها، كنت أقول لها: اكتشفت بورة فى الغيط لم تكن مبذورة فبذرتها.

انطلق "حجيزى" يقهقه، لم تكن عادته القهقهة أبدا، دائما إذا ضحك يبتسم فقط، كأن القهقهة تؤلم عضلات وجهه، لكن أن يزيد الأمر إلى حد الاستلقاء على الرِّمال، فهذا هو الذى جعل "بكير" ينظر إلى أبيه وقد أخرسه المشهد تماما، هل جُن "حجيزى"؟! يجلس أمام قبر، ينصت لميِّت، ثم يقهقه حتى يستلقى على ظهره؟!

*****

"الوعرة" انقلبت ترغى مثل النُّوق بحكاية تمثال "سكيرة"، واشتهر فى بيوتها أنَّه لولا أن "سليم" ولد "بكير" عشقها ما كان عمل هذا الصَّنم، فغضب "رسلان"، ولم يكتف بحلف يمين الطَّلاق من أمِّها إن أقدمت "سكيرة" على الخروج من البيت، وإنما ذهب إلى "حجيزى"، فوجده جالسا على المصطبة، ومن غير سلام قال: تكون يا عم "حجيزى" خصومة ليوم الدِّين بينى وبينك، لو لم تحطِّم هذا الصَّنم الذى نحته وَلَد "بكير".

- هذا والله منتهى العجب! وأين الأصول يا "رسلان"؟! قل اوَّلا السَّلام عليكم واجلس.

- لا سلام ولا جلوس قبل أن تحطِّمون صنمكم، تريدون تشويه سمعة البنت؟!

- تقصد التمثال الذى عمله "سليم" فى الصَّحراء البعيدة؟

- بعيدة أم قريبة، ما تفرق، المهم هناك قُطران أسود يخرب البيوت.

- طيب إجلس وتكلَّم ما تحب.

- لا يا شيخ "حجيزى"، حطِم الصَّنم حتى لا يتحطَّم الذى بينى وبينكم، وإلَّا أذهب لأحطِّمه، فيتحطَّم كل الذى بيننا، أمامكم ثلاثة أيام.

تنهد "حجيزى" وقال: ما أعرف ما الذى يضيرك من هذا التمثال.

ابتسم "رسلان" ساخرا، وقال: كأنك لست من أهل البادية والعرب!؟

أشاح "حجيزى" بذراعه وهو يقول: والله أنا كرهت باديتكم، وكرهت العرب، هذا يا رجل يا عبيط تمثال يخلِّد "سكيرة"...

زعق "رسلان" مقاطعا الكلام: يخلِّد "سكيرة" ويقتل سمعة أهلها، كلامك هذا لا نفهمه يا شيخ "حجيزى"، احكِه مع صاحبيك، لكن لا تحكِه لى.

وذهب "رسلان" وصدره يغلى مثل المراجل، وكانت الشَّمس تشعل النِّيران.

"يحيون بقلوب مقفلة، يؤلِّهون تقاليدهم، ويحطِّمون الجَمَال، يخترعون قيما قاسية، كأنهم يحبُّون تعذيب أنفسهم، ما أردت من الإنسان تقديس ما يفقده بهجته، أو ما يمنع خلوده، الآب الذى أرسلنى قال لى هذا، وقال إن مسرَّته فى أن يصير الإنسان ربا، لا عبدا، الآب أرسلنى لأعلِّم هذه الحكمة، ولأكرِز بأن المجد لله فى الأعالى".

هذا كلام قاله "المسيح" لـ"حجيزى" فى تلك الأيام التى قضاها فى جبل الرَّهبان، لكن "حجيزى" لم يستطع قوله بهذه الدِّقة، لمَّا جلس مع صاحبيه "سعدون" و"غنيمة"، وإنَّما قال: ناس قلوبهم مغلقة، يعذِّبون أنفسهم ويعذِّبون من حولهم، ماذا يضير "رسلان" لو سكت؟! تقاليد؟! ملعون أبو التَّقاليد

التى تعذب النَّاس، الولد "سليم" بعد أن يتعب كل هذا التَّعب نحطِّم له تمثاله؟!

قال "سعدون": نحطِّم التمثال أفضل من عمل المشاكل.

وكركبت حنجرة "غنيمة": والله عمل المشاكل أهون من تحطيم هذا التمثال، خسارة.

وفى المغارب عادت القطعان من مراعيها، وعاد "سليم"، فنادى عليه "حجيزى": "سليم".

- نعم يا جَد.

- غدا تحطِّم هذا التمثال، عمُّك "رسلان" غاضب.

- ما للتمثال وما لعم "رسلان"؟!

- التمثال لإبنته "سكيرة" يا "سليم"، أنا ما أحب اللف والدوران.

وظهر "بكير" قادما من عند المسجد، غاضبا، وعندما اقترب من أبيه وولده زعق: ولد يا "سليم"، باكر تذهب وتحطم تمثالك، كنت الآن سأسيِّح دم "رسلان" الكلب، ايَّاك أن تترك أحدهم يحطِّمه، ولكن حطِّمه بيدك.

*****

الأغنام نشيطة، تمشى مهرولة نحو مراعيها، تترك خلفها ما لا يُعد من البؤر على سطح الرِّمال، شمس الصَّباح حانية، ونسيم الشُّروق باهيا، والرُّعاة الصِّغار يمرحون خلف قطعانهم، و"سليم" يحمل معولا على كتفه، ويحمل فى صدره قلبا يتصدع.

"كم نهار من النَّهارات القائظة قضيتها وأنا أنحت تمثال "سكيرة"؟ كم شظية أصابت بشرة وجهى ودخلت فى عينى؟ كم مرَّة طرق الجاكوش أصابعى بدلا من الإزميل؟".

القطعان تتحرَّك نحو وجهتها فى خط مستقيم، وبعض كلاب الرعى تمشى فى جوارها مشيا ملولا، أحيانا تترك القطعان وتتَّجه إلى صخرة أو شجرة صغيرة، ترفع إحدى ساقيها الخلفيتين، وتقذف بولها بسرعة.

و"الوعرة" تبتعد تخلُّفا.

فكَّر "سليم" فى أن حبس "سكيرة" فى البيت ليس أمرا خطيرا، فهى له فى نهاية الأمر، طالما أن قصَّة عشقه لها قد شاعت، لن يتقدَّم أحد للزواج منها، وسيضطر العم "رسلان" للموافقة على زواجه منها، وحتى إن رفض سيحتال من أجل الوصول إليها فى محبسها، وإطلاق سراحها، والهروب سويا من "الوعرة"، إلى حيث بلاد النِّيل، ليختبئا فى الزِّحام، ويتزوَّجا.

الرُّعاة الصِّغار يمرحون خلف قطعانهم، ولا أحد يشعر بهذه الآلام التى تأكل "سليم"، حتى "سالم" و"سلمان"، ها هما يتقافزان بين الرُّفقاء وهما يضحكان، لا يعيران ما هو فيه أدنى اهتمام.

ها هى "سكيرة" تظهر فى مدى البصر، واقفة وقفتها الخجولة، والمِعول على كتف "سليم" يتنفَّس بعمق، ما أوقح شكل المعاول، كأنها مناقير طيور أكَّالة جيف، أو خناجر قتل، وكلما اقترب من التمثال، أحس أنه يسمع دقات قلبه الصَّخرى، كأنه استشعر قدوم المعول.

وقف "سليم" أمام التمثال، وقد وضع المعول بين ساقيه واعتمد على مقبضه الخشبى الطَّويل، ينظر بعمق إلى عينى "سكيرة" الحالمتين، والنَّاظرتين إلى أسفل مستحيَّتين بينما تغرق بروحها فى عبير الوردة التى تشمّها.

"كم من الوقت بذلته وأنا أرسم هاتين العينين؟ أنا منحتهما من روحى هذه الحياة السَّارية فيهما".

مد يده يتلمَّس الخدَّين المليئين، النَّاعمين مثل بشرة عذراء حقيقيَّة، اندهش، كأن التمثال دافئ، رغم برودة فترة الصَّباح، وضع كفَّيه على الصِّدغين المورّدين يريد التَّأكد ممَّا شعر به، كان التمثال فعلا دافئا، كأنه حى، كأن "سكيرة" هى من تقف الآن، وكأنها ستغادر وقفتها، وتتحرَّك.

نزع كفّيه من على صدغيها، فرآها تدير رأسها وتنظر إليه نظرة صامتة طويلة، ارتعش، بينما جَمد مكانه فصار صنما هو الآخر.

- تحمل معولك تريد تحطيمى؟!

- أنا أحمل المعول، لكنِّى لا أريد تحطيمك، أنت يا "سكيرة" عالمى.

- فلماذا تحمل المعول؟!

- حملته حتى لا تراق الدِّماء، الخصومة ستتَّقد بين عائلتينا، وأنا أريد "سكيرة"، ستروح منِّى إن جرى الدَّم.

- لا تحطِّمنى بيدك، دعهم يفعلون ذلك.

- لا أستطيع أن أتخيَّلك بين هؤلاء الهمج، وهم يرفعون المعاول بقلوبهم الكارهة، ويفتِّتونك إلى مئات القطع.

- وأنا سأموت فعلا لما تفتِّنى أنت.

- أنا لن أفتِّتك يا "سكيرة"، كيف أفتِّت حبيبتى ؟!

رفع "سليم" معوله، وهوى به إلى جِذر التمثال، إلى أسفل القدمين الموضوعين فى خف أخضر، ومع صوت ارتطام سن المعول بالصَّخر تجمَّع الرُّعاة حول التمثال، كان "سليم" لا يمس التمثال بضربة واحدة، لقد قرَّر أن ينتزعه سليما، وكانت السَّماء قد التمعت بالزُّرقة، والشَّمس بالبرتقالى.

*****

- أنا ما فهمت شيئا من كلام الله لى، ما معنى أنه خلق الانسان ليصير ربا لا عبدا ؟!

سكت "حجيزى" طويلا قبل أن يقول: أنا يا "غنيمة" لست بقارئ مثلك، لكن الله كريم ويحب أن يكون الإنسان كريما مثله، والله رحيم ويحب أن يكون الإنسان رحيما مثله، الله وضع الإنسان فى الأرض خليفة له، والجنَّة لكل من استطاع أن يكون ربا خليفة، والنَّار لكل من لم يحقق مراد الله، وأصر على أن يكون مجرَّد عبد.

همس "غنيمة": يمكن!

قلت له: كيف ستنقذنى يارب ؟

- اركب ناقتك ودَعها تمشى بخيارها، الإبل عجائب الصَّحراء.

ركبت النَّاقة، كان الظَّلام قد بدأ يفرد عباءته، وأخذ الكلب يُرقِّص ذيله ويهز رأسه وقد أرخى أذنيه، كأنه سعيد بالتحرُّك، لم أنهز الناقة لتتحرَّك، وإنما بقيتُ ساكنا فوقها، وبقيَت هى ساكنة أيضا لفترة طويلة، تنتظر منى توجيهها، وعندما لم يحدث، استدارت وهى ترغى، ثم غزَّت السير تخترق العتمة المقبلة.

لماذا استدارت النَّاقة؟ بالتأكيد استدارت لأنها تعرف أن السَّلامة فى هذه الجهة، فأحسست بالرَّاحة، وعلمت أن عيون النَّوق ليست متبلِّدة، وإنما حكيمة، وواثقة، هذه الإبل تتركنا نقودها أحيانا إلى حتفها، رغم أنها دائما تعرف طرق السَّلامة، وها هى ناقتى تغز السير فى إحداها.

لم تقابلنى "جاله" غير هذه المرَّة الوحيدة، فكيف أمكنها أن تتعامل معى بكل هذا الحب؟! عيناها شبعتان بالأنس، وقلبها عمران بالألفة، كأنى رأيتها قبل ذلك، لكن لا أعرف أين، لن ألحق بـ"الزبير"، سيمضى الجاحد من غير أن يحاول رؤيتى، كأنى لست أبيه.

كان القمر يبزغ ذهبيًا، وبدأ قلبى يعانى من ضربة قلق مفاجئة، كيف أسلِّم مصيرى إلى ناقة؟!

"تسلَّم مصيرك إلى ما أمرك الله أن تسلَّم إليه مصيرك، اهدأ ولا تجزع، وثق بالله، الذى ما أخلف مواعيده".

- المهم يا "حجيزى"، النَّاقة ظلَّت تدب فى الصَّحارى طوال الليل، ونعست فوقها من هدَّة التعب، ولما فتحت عينى، كانت الشَّمس تشرق، والنُّور ينتشر، وما حولى من فراغ ممدود، يشى بما هو موجع، كأننى يا "حجيزى" ما تحرَّكت خطوة واحدة، نفس المشهد، رمال لا تنتهى، ورأس النَّاقة شامخ أمامى، والكلب يسعى تحتها، أحسست بجوع شديد يفترس معدتى، فأنخت

النَّاقة، وتناولت من خُرجها كسرتى خبز، ألقيت بواحدة للكلب، وأكلت الأخرى، لم أغمسها بالجبن خشية العطش، وإنما أكلت طعاما ممزوجا بالخوف، وشربت ماء مخلوطا بالقلق.

كنت أفكِّر فى أنه ربما عند قدوم الليل سنصل إلى عمار ما، لكن أتى الليل ولم يأت العمار، وبقيَت نفس اللوحة الثَّابتة، التى لا تعطيك أى إحساس بأنك تتحرَّك، رمال بلا أفق، وصخور صغيرة ناتئة هنا وهناك، قلت لنفسى: لماذا لم أضع شاهدا على الحفرة التى انطمرت "جاله" تحتها برمال الغرد؟! ربما فى يوم من الأيام أستطيع الوصول إليها فأبنى لها قبرا يليق بها.

ابتسمت بطرف شفتَى، بسمة مريرة ساخرة، وقلت لنفسى: لمَّا تنجو أنت أولا، وتضمن أن جسدك لن تأكله ضوارى الصَّحراء، فكِّر فى قبر لـ"جاله"، يكفى أنك ضيَّعت وقتك ومجهودك وماءك من أجل أمر غبى، عندما أخذت تحفر وتحفر وتحفر، ألم يدر ببالك أبدا أنك تحفر لإخراج جثَّة؟ ماذا كنت ستصنع بجثَّة؟! حتى وإن كانت جثَّة "جاله"؟! أدركت هذا فى آخر لحظة! لما استنفذت رصيدا ليس بالهيِّن من فرصة النَّجاة، يا لحماقتك يا "غنيمة".

كم شمس عبرت السَّماء؟ كم قمر؟ هزل الكلب، وأكيد هزلت أنا، وعندما ضربت يدى فى الخُرج، وأخرجت آخر كسرتين من الخبز، أيقنت أننى صرت على مشارف هلاك حقيقى، فحتى قربة الماء لم يعد بها سوى قطرات تجمَّعت فى قعرها، وفكَّرت طويلا، وأنا أنظر فى عينى الكلب المعلَّقتين بكسرة الخبز، فى أن أحتفظ بهذه الكسرة الأخيرة لى، لكن جوع الكلب البادى فى عينيه، تلك النَّظرة الرَّاجية، جعلنى ألقى بها إليه، وأنتظر عوض الله، لكن أين الله؟! ألم يقل لى إنه سينقذنى؟ لماذا إذن لا ينقذنى وينهى هذا العذاب؟

أوقف "غنيمة" النَّاقة، كانت الشَّمس فى كبد السَّماء، والرِّمال ملتهبة، لكن عذاب "غنيمة" كان متأجِّجا، فلم يشعر بسعير الرَّمل وهو يلفح جبهته المغروسة فى الرِّمال يصلِّى لله.

- يارب، قلت إنك ستنقذنى، وها هو زادى ينفد، والصَّحراء باقية على حالها، ما لها حد.

- أليست النَّاقة تمضى بك؟

- إنها تمضى بى، لكنَّها على ما يبدو تمضى فى عماء، ربما تدور فى مكان واحد.

- فى متاهة الصَّحارى القِ قيادك إلى ناقتك، اركب ناقتك والزم الصَّمت.

ركب ناقته، ولزم صمتا، ومضى يوم من غير كسرة الخبز، ويومان، فاضطر إلى إخراج الجبن المالح، التهمه هو والكلب، وليس هناك ماء.

ومضى يوم، من غير خبز ولا جبن، ونار الظَّمأ تشوى جوفه، ولمَّا رأى الكلب يلعق حجرا، أخذ شظية صخرة صغيرة، وضعها فى فمه، وأخذ يمصّها، لتستنفذ هذه الشَّظية آخر قطرات ماء ريقه.

ومضى يوم لاحت فيه أنفاس "عزرائيل"، كان الكلب قد عجز عن المشى، فوضعه "غنيمة" بين يديه على شدَّاد النَّاقة، لكن حتى النَّاقة نفسها ضعف مشيها، قضت أياما طويلة من غير طعام ولا ماء.

- أنخت ناقتى يا "حجيزى" لتستريح، لو ماتت النَّاقة مت معها، لكنى كنت بالفعل أموت جوعا، وعطشا، ويأسا، وعندما رأيت الكلب ملقى أمامى من الوهن، خطرت الفكرة البشعة فى رأسى، أن أذبحه وآكله، فيذهب جوعى، وأشرب دماءه فيذهب عطشى.

"إنها ليست فكرة بشعة يا غنيمة، إنها فكرة خلَّاقة، وبدلا من أن تموت أنت والكلب، فليمت الكلب وتحيا أنت، وبهذا يكون هذا الكلب قد أنقذك من الرَّدى مرتين، مرَّة عندما ذكَّرك بالله فى الأعالى، فوهبك أملا فى الخلاص، ومرَّة عندما وهبك حياته نفسها".

أخذ السِّكين "المطواة" من مكانها فى الشدَّاد الخشبى، كانت النَّاقة منيخة من غير أن تجتر، لم يكن فى جوفها ما تجتره، حتى أن سنامها قد تهدَّل، وصار مثل وسادة متهرّئة، وكان الكلب، رغم أنه ملقى على جانبه يلهث من فرط عطشه، يتابع بعينيه تحرُّكات "غنيمة"، فرآه يسحب السِّكين، ويشد نصلها من منامه، فيلتمع فى وهج الشَّمس، ثم رآه يتقدَّم ناحيته.

عندما مال "غنيمة" منحنيا نحو كلبه، رفع هذا الكلب رأسه، ونظر فى عينى صاحبه، كانتا تهطلان دموعا، ثم آخر ما رآه نافورة دماء تضرب وجه "غنيمة"، قبل أن يئن أنينا طويلا، ثم يرفس بأقدامه، ليكبس ظلام لم ير مثيله من قبل.

طالما أن الإنسان يجيد ذبح الخراف، لن يكون صعبا عليه ذبح كلب، لكن قد يصعب عليه لو أن الأمر يجرى تحت ضغط ظروف غرائبية، فقد كان أول ما اهتم به "غنيمة" هو أن يشرب أكبر قدر من الدِّماء المتدفِّقة، ليس ثمَّة اهتمامات عنده بالطعم، فقط هناك حريق بداخله، ويريد إطفاءه بأى سائل يتيسَّر وجوده، كان يجرع الدِّماء كأنها ماء، ولم يتأفَّف إلا مؤخَّرا، بعد أن انطفأ الحريق.

فجأة بدأ يقيىء كل ما شربه، وكلما رأى دماء تتدفَّق من فمه إلى الرِّمال نبح، وحمل جثَّة كلبه، وصعد إلى شدَّاد النَّاقة، ونخسها، فقامت تترنَّح، وفى الأفق ظهر اسوداد، وسواد الآفاق فى الصَّحراء يعنى الحياة، وظهرت صخور عالية،

فصرخ "غنيمة" مثل المجانين، حتى النَّاقة اعتدل مشيها، اتَّزنت مهرولة نحو السَّواد، وأخذ "غنيمة" يرفع ذراعيه إلى السَّماء ويهتف: الحمد لك يارب، الحمد لك يارب، وعدتَ وما أخلفت.

وفى تمام غمرته بفرحة النَّجاة، وهرولة النَّاقة نحوها، انسلت جثَّة الكلب من على الشدَّاد، وسقطت بعنف على الرِّمال، وتقلَّبت مثيرة الغبار قبل أن تستقر هامدة، ونظر إليها "غنيمة" نظرة أسى، ولم يجد فى نفسه العزيمة الكافية لإيقاف ناقة بدأت تركض نحو مشارف الحياة.

بكى "غنيمة" وهو يقول لـ"حجيزى": أحيانا تضطرنا الظُّروف ألَّا نهتم بنهايات من أعطونا كل حياتهم، بقيت نهارا أحفر من أجل "جاله" التى عشت معها ساعة، أما الكلب الذى أعطانى حياته، تسقط جثَّته فى العراء، فأتركها نهبا للضَّوارى! يعلم الله أنى ما حملته معى على النَّاقة إلَّا لدفنه، لكن الظُّروف.

العصافير تشقشق تطلب الدِّفء، تتحوَّل شجرة الجميز فى المغارب إلى عمارة اللقيا بعد شقاء النَّهار فى مطاردة أرزاق صعبة رغم يسرة وجودها، يُصعِّبها الإنسان بمطاردته لهذه العصافير بالمقاليع مرة، وبالفخاخ المدفونة مرة، وبهذه الشُّخوص التى ينكتونها فى غيطانهم وحقولهم مرَّة أخرى.

العصافير ستشقشق فى المغارب، وفى كل شروق.

15

المَجدُ لله فِى الأَعَالِى

تنقضى الأيام، وتهلك الليالى، وقافلة "عبدالله" الصِّغيرة لا تجىء، و"حجيزى" يجلس تحت ظلال الأشجار، ويجلس فى سفح الجبل، ويرى الغزلان تقترب بمشافر أفواهها من أيادى رهبان مملوءة بفتات الخبز الجاف، تأكل آمنة، ويرى الذِّئاب تطوِّف مثل كلاب، ويرى الرُّهبان جثثا متحرِّكة، يمشون ببطء، عضلات وجوههم تيبَّست على رسم حالة من البؤس، لا يتخاطبون فيما بينهم، ربما تبادلوا ابتسامات شاحبة، ربما قال أحدهم للآخر كلمة فيهز الآخر رأسه، كانت أجسادهم قد بلغت درجة مفزعة من الهشاشة، لو سقط أحدهم لأى سبب ربما يتفتَّت، لذلك يتحرَّكون دائمًا ببطء، مثل حرباوات، يذهبون إلى الأشجار ويأكلون من أوراقها.

لم يعد "يوأنَّس" الرَّاهب يجلس مع "حجيزى"، وفى آخر جلسة، منذ أيام طويلة، قال له السِّر: الحديث معك يا "حجيزى" يحيى رغبة وأدتُها منذ سنين طويلة، كلامى معك ينفخ فيها الرُّوح، أتكلَّم معك فأشعر أنى أحب الدُّنيا، تعيد لى ذكريات قاسية لكنَّها تمنحنى إحساسا جميلا بأننى كنت واحدا من النَّاس، مغموسا فى الآمال والمشاكل مثلهم، لا مجرد مطرود فى هذه الفيافى، أتكلَّم معك فأشعر بالرَّغبة فى العودة إلى نجع "أبو ليلة"، لكن هذا عذاب يا "حجيزى"، عذاب أن ترغب شيئا مستحيلا، فلا الجسد صار حمل سفر، ولا الرُّوح صارت حمل غربة جديدة.

- لماذا تستمر يا مقدِّس فى عبادة رب يعذِّبك؟

صمت الرَّاهب "يوأنَّس" طويلا، ونظر فى السَّماء، وصمت طويلا، ونظر فى الرِّمال بين قدميه، وصمت طويلا، وهز عصاه بيده العجفاء، وصمت طويلا، ثم نظر مرة أخرى إلى السَّماء وقال: لأنه فى كل الأحوال إله، حتى لو أنه أوجدنا لمجرَّد أن نتألَّم فهذه محبَّة كبيرة، الحياة مع الآلام أفضل كثيرا من العدم.

كان الرَّاهب "برسوم" قد قطع بتنيُّحه أى تردُّد عن مغادرة جبل الرُّهبان فى نفس "حجيزى"، مات بعد أقل من خمسة عشر يوما من قدوم "حجيزى" إلى هذا الجَّبل، كان يهز الليالى بصراخه الذى ينطلق فجأة مثل الرَّعد، ويزول فجأة مثل الرَّعد، قال الرَّاهب "يوأنَّس" إن خلف "برسوم" حكاية مؤلمة، ألم من هذا النَّوع الذى لا يغادر الجسد مع مغادرة خلاياه الميِّتة، وإنما يلبد فى العظام والنُّخاع ويبث أحزانه، فتسيطر على اللسان وعلى الدُّموع، فلا يشكو الإنسان ولا يبكى، ولكن يصرخ مثل المعاتيه.

- ما هى حكاية المقدِّس "برسوم" يا مقدِّس؟

- ما أعرف حرفا من حكايته، لكن وراءها امرأة.

- لماذا المرأة دائما هى التى وراء مصائبكم؟!

- لأنها هكذا منذ خلقها الرَّب، أخرجت وليفها من الجنَّة.

"حوَّاء أخرجت آدم من الجنَّة، وأدخلته قلبها، لكن نساءنا الآن يُخرجننا من عُقولنا، ويُدخلننا جهنَّم، الإنسان منَّا لن يلقى بنفسه فى منافى الرَّب البعيدة لو أحبَّته امرأة، لو كانت أحبتنى سيرين بإخلاص كنت الآن نابضا بالآمال، ولى أحفاد ينبضون بالأحلام".

صرخات "برسوم" المعتادة لم تنطلق هذا الصَّباح، ولا انطلقت فى كل مواعيدها حتى العصر، وفى المغارب، اكتشف أحد الرُّهبان، وهو يسكن فى كهف بجوار كهف "برسوم"، أن جاره قد تـنيَّح، وكان قد مات ميتة عجيبة، تنشرح لها قلوب المُرتحلين إلى "المسيح"، فلقد وجدوه ملقى على شقِّه الأيسر، ويده اليمنى قابضة على شمعة لم يرَوا مثلها، تضىء ولا تتآكل، فعرفوا أن "برسوم" لم يعد مجرَّد راهب يتنسَّك فى الصَّحارى، وإنما ها هو قد صيّره الرَّب قدِّيسا.

ماذا فعل هؤلاء الرُّهبان بالقدِّيس المطهَّر؟!

"إنه رجل مات على كرامة، ولو أنهم صادقون فى حكاية القيامة والحياة، التى يعدهم بها ربُّهم، لما دفنوا رجلا مات وفى يده شمعة تشتعل من غير انتهاء، إنهم أيضا يدفنون أعز الناس".

- كيف دفنتموه؟!

- كما رأيت، حفرنا له قبرا، ووضعناه فيه، ثم أهلنا عليه الرِّمال، وها نحن سننحت صليبا كبيرا من الصُّخور، نضعه شاهدا على قبره، إكراما لقداسته.

- أنا لا أسأل عن هذا، ولكن أقول كيف هان عليكم دفن صاحب كرامة؟!

- وماذا كان يجب أن نفعل لصاحب كرامة ميِّت؟!

- "أنا هو القيامة والحياة، من آمن بى ولو مات، فسيحيا"، أليس هذا ما يقوله المسيح؟! كيف تقولون على صاحب كرامة أنه ميِّت؟!

- إنه يحيا فى العالم الآخر، ويحيا فى قلوبنا، وسيحيا ذكره فى محافل قدِّيسينا، لكنَّه أمام أبصارنا هو ميِّت، وجثَّة، والجثَّة لا بد لها من دفن يا "حجيزى".

موت "برسوم" الرَّاهب، لم يترك لـ"حجيزى" فرصة كى يفكر فى مواصلة البقاء بين هؤلاء الرُّهبان، لقد تأكَّد الآن أن مصير الميِّت عندهم، هو نفس المصير كما عند جميع النَّاس، لقد خدعه الرَّاهب "يوأنَّس".

- لماذا قلت لى إن كل مسيحى يموت، وأنه يقوم بعد موته.

- لأن كل مسيحى صالح يعيش بـ"المسيح"، و"المسيح" قام بعد موته، ترك القبر ومضى.

فتح "حجيزى" عينيه كالمصعوق، وهتف: أنتم من دفن المسيح؟!

نظر "يوأنَّس" حوله مبهوتا، كانت كلمة "حجيزى" صادمة بالفعل، لم يكن قد فكَّر من قبل فى غرائبية وضع جسد "المسيح" فى قبر، فعلا! كيف أمكنهم أن يضعوا المسيح فى قبر؟!

*****

ظل الإنسان الحائر "حجيزى بن شديد الواعرى" يُشعل كل ليلة نيرانا يتدفَّأ بها، ويجلس ناظرا فى أفق الشَّرق، حيث خلف هذا الأفق تتلوى المدقَّات فى وسع المفازات، رائحة وغادية، لكنَّها تنتهى كلها على مشارف "الوعرة"، الواحة التى فيها أهله وماله وأيامه.

ظل منتظرا القافلة جميع وقته، لكن فى الليل العميق، وقبل الفجر، فى أحد الأيام النَّاشزة بغرابة ما يحصل للإنسان فيها، كان "حجيزى" قد غلبه الوسن، فانداح رأسه ليرتكن بذقنه إلى صدره.

ثمة شبح لشخص طويل، مفرود الجسم، ينساب فوق الرِّمال كأنه يتهادى فوق سحابة، قادما من أفق الشَّرق، ملابسه طويلة هفهافة، كما هى أكمامه المتَّسعة، ويقترب من "حجيزى" النَّاعس جالسا أمام النِّيران.

رفَّ جناح طائر اخترق السَّماء بسرعة برق، ففتح "حجيزى" عينيه، وأغلقهما، خُيِّل إليه أنه رأى أحدا ما يجلس بجواره يتدفَّأ أمام النِّيران، حدَّث نفسه بأنه الرَّاهب "يوأنَّس" بكل تأكيد.

لكن للرَّاهب "يوأنَّس" رائحة الدخان، وأحيانا رائحة عرق منتنة، أما الرَّائحة التى تعبق حوله الآن فهى رائحة عطر، عطر فوَّاح ما لرائحته مثيل، وعندما فتح عينيه وتطلَّع فى وجه الجَّالس بجواره يتدفَّأ، أدرك أنه حتما فى دنيا الأحلام، فكما أن هذا العطر لا ينبغى وجوده الآن، كذلك هذا الشَّخص.

وجه لم ير شبيهه بين وجوه الرِّجال طوال حياته، وجه طويل منساب منجلٍ مثل قمر، قمر حقيقى، وجه يسبح فى طراوة زيت لمَّاع، بشرة لا تعانى من جفاف الصَّحارى، مثل بشرات الذين يحيَون فيها، وعينان مطمئنَّتان، تملؤهما الثِّقة، ثم شعره هذا الذى ينحدر على كتفيه يبرق من غزارة دهنه، هذا رجل لم تبلغه وعثاء السَّفر فى الرِّمال.

وإذا كان هذا الرَّجل لم يسافر عبر هذه الصَّحراء، فمن أين جاء؟!

هذا هو الإنسان الوحيد الذى يراه فى حياته ويشعر أن له مهابة ماحقة، رغم صغر سنه، تقاطيع وجهه تقول إنه فى أواخر عشرينيات عمره، أو فى أوائل الثَّلاثينيَّات.

انتبه "حجيزى" تماما، لكن الرَّجل ابتسم وقال: كيف حال إخوانك هنا؟

هذا ليس صوتا إنسانيا، إنه شدو ملائكى، ما هو شدو الملائكة؟! لم يكن يسمع عن شدو الملائكة هذا، لكن سمع عنه من الرَّاهب "يوأنَّس" كثيرا، ما هو شدو الملائكة إن لم يكن هذا الصَّوت؟! حتى رخامة صوت "يوأنَّس" ليست شيئا فى هذا الرَّونق المنبعث من حنجرة هذا الشَّاب الفخيم.

قال "حجيزى": إنهم ليسوا إخوانى.

- إنهم يشاركونك المصير فى هذه الصَّحارى، فهم إخوانك.

- لكنهم نصارى، وأنا مسلم.

- ما نصارى؟! وما مسلم؟!

نظر "حجيزى" فى هذا الوجه الرائق، وساءل نفسه، من أى البلاد هذا الشاب المليح؟! لا بد أنها بلاد لا تعرف شيئا عن نصارى أو مسلمين، أين هذه البلاد؟

- النَّصارى نصارى والمسلمين مسلمين.

ابتسم صاحب الوجه المليح، ورفع وجهه إلى السَّماء، وهمس: المجد لك فى الأعالى أيها الآب، كن معى، واغمرنى بمحبتك.

ثم نظر إلى "حجيزى"، وقال: النَّصارى بشر، والمسلمون بشر، لا يملأ النَّصارى الأرض، ولا المسلمون، البَّشر هم من يملأون الأرض، طوبى للإنسان على الأرض، والمَّجد للآب فى السَّماوات.

- ما أفهم كلامك يا مليح الوجه.

- الآب الذى أرسلنى ما أرسلنى لنفسه، ولكن للإنسان.

- ما أفهم، الكلام يستغلق أكثر.

- كما أن الآب هو غاية الإنسان، فالإنسان أيضا هو غاية الآب.

- الكلام استبهم يا مليح الوجه.

- الله جعلك خليفته فى هذا العالم، فلتكن الله فى الأرض.

"الجنَّة مملوءة بالمرح، والأرض مملوءة بالشَّقاء، وعندما صنع الله آدم وضعه فى مرح الجنَّة، لم يرد له شقاء ولا نكدا، وزادت محبَّة الله لآدم، فمنحه مرحا طاغيا، يشع حبا وعشقا، منحه حوَّاء، وعندما عمل آدم خطيئته، أخرجه من المرح إلى الشَّقاء، لكن أخرج معه المرح الطَّاغى، ليصنعا بهجتهما فى بؤس الدُّنيا، بهجة الإنسان وسعادته هما المقصد الإلهى، لكن الإنسان يترك بصائره الحكيمة، ويقيِّد نفسه بأغلال حاكها لنفسه باسم الآب".

- كيف أكون الله؟! هو يملك الأكوان، وأنا أملك بيتى الصَّغير وحقل زرع، وهو غنى، وأنا كلى عِوز، وهو حى، وأنا أموت، ويريدون بعد موتى أن يدفنونى فى قبر!

ابتسم الشاب المليح، ومد يده إلى الرِّمال، وأخذ منها قبضة، ثم فرَّج بين أصابعه الطَّويلة الرَّشيقة، فأخذ الرَّمل يتسرسب ساقطا من غير أن تعلو منه ذرَّة غبار واحدة.

- يا أيها الإنسان المسكين، لو أعملت عقلك أدركت، ولو أدركت استرحت، الآب مَلَك الأكوان، وأنت ملكت بيتا وحقل زرع، لو اكتفيت بهما استغنيت، والآب مستغن، ليس الغِنى سوى عِوز مرفوض، ارفض عِوزك بقناعتك تكتفى بذاتك، والآب مستكف، الإنسان لا يموت، لأن الموت اختفاء، والانسان ظاهر فى الأرض يشيِّد خلوده، لا يموت الإنسان ولا يُدفن.

- مات النَّاس ودُفنوا أمام عينى.

- الواحد ليس إنسانا، الجماعة هى الإنسان، يموت الواحد، لكن الجماعة لا تموت.

- أنا لا أريد أن أموت، وإن كان لا بد، لا أريد أن أدفن.

- أنت هنا فى سفح هذا الجبل من أجل هذا الأمر.

- من أنت أيها الشَّاب المليح؟! بالتأكيد أنت لست من هؤلاء الرُّهبان، فأنا لم أرك بينهم من قبل؟!

- أنا لست من الرُّهبان، كما أن الرُّهبان ليسوا منِّى، أنا يا أيها الشَّيخ القيامة والحياة، من آمن بى سيحيا ولو مات.

كان "حجيزى" قد سمع هذه الجملة كثيرا فى كلام الرَّاهب "يوأنَّس"، وكان قد علم أن الذى قالها هو "المسيح"، ربُّ النَّصارى.

هذه ذئاب تتوافد، وتربض ساكنة على حواف نصف دائرة واسعة وهمية أمامها، وها هى غزلان أيضا تتقدَّم آمنة، ليس فى عينيها خشية افتراس، ولا كأنها انتبهت لوجود قتلتها، أرانب برِّية، وقطط وحشيَّة، وضِباع، وفود تترى لتشكِّل جمهورا ينصت لكلمات بلسان غير ألسنتها، لكن لغة القلوب واحدة، وكان "المسيح" يكرِّز ممتنا.

"إنهم يحيَون بقلوب مقفلة، يؤلِّهون تقاليدهم، ويحطِّمون الجَمَال، يخترعون قيما قاسية، كأنهم يحبُّون تعذيب أنفسهم، ما أردتُ من الإنسان تقديس ما يفقده

بهجته، أو ما يمنع خلوده، الآب الذى أرسلنى قال لى هذا، لكن ماذا يفعل الرُّهبان غير كل ما ينكره الآب؟! الآب قال إن مسرَّته فى أن يصير الإنسان ربا، لا عبدا، الآب أرسلنى لأعلِّم هذه الحكمة، ولأُكرِز بأن المجد لله فى الأعالى، حينما يصنع الإنسان مجده فى ملكوته".

قلب "حجيزى" تزلزل من كل ما يجرى، وتزلزل من هذا السؤال: هل هذا الشَّاب المليح هو "المسيح" بنفسه؟!

فكَّر فى أن ينادى على الرَّاهب "يوأنَّس" ليرى ويشرح له ما يراه، وعندما هم بالوقوف، أشار له "المسيح" بالبقاء جالسا فى مكانه، فبقى جالسا يكتنفه خشوع.

ثم قال المسيح بنبرة صوت مرعبة: ما جئت لألقى سلاما على جبل الرُّهبان، بل سيفا.

وهال "حجيزى" أن يرى "المسيح" وهو ينتزع سيفا من تحت ثيابه، ويشرعه أمام عينيه، كانت النِّيران تتوهَّج من غير حطب، وتنعكس التماعاتها فى عيون الحيوانات والطُّيور التى تجمَّعت من كل حدب وصوب، تقف منتبهة فى نصف دائرة تتسع.

- أنت "المسيح"؟!

- أنا هو، أنا القيامة والحياة، من آمن بى، ولو مات، فسيحيا.

- مات الرَّاهب "برسوم" منذ أيام، ورغم أنه عاش حياته يؤمن بك، إلا أنه لم يحيا، بل دفنوه وهو الميِّت بمعجزة.

- الحياة ليست أن تعيش، أولاد الأفاعى يملأون الأرض، يعيشون ولا يحيَون، الحياة أيها الشَّيخ لا ينالها إلا من يعيش كإنسان.

- ألم يعش الرَّاهب "برسوم" حياته كإنسان؟!

أشار "المسيح" إلى الطُّيور والحيوانات، وقال بصوت ساخر: الرَّاهب "برسوم" عاش مثل هذه المخلوقات البهيمة، هائمًا فى مملكتها القاحلة، يعيش فى المنافى يعد أيامه منتظرا الموت، ما خُلق الإنسان ليجاور الحيوان، وما كلَّمه الآب عن الحياة ليعكف مهتما بالموت.

"هل هذا هو المسيح فعلا؟! هل هذا الرَّجل هو رب المسيحيين الذى عُلِّق على صليب حتى مات، ودفنوه فى قبر، فغلب موته وقبره؟! لا يبدو أن هذا الرَّجل قد مات على صليب من قبل، أيها المسيح، لو تدلَّنى على طريقة تنقذنى بها من الدفن".

- هذه مخلوقات البرِّية تقف أمامى خاشعة، من غير لقمة خبز، أو عشبة جافة، ولا حتى شربة ماء، وإنما خشعت لروح الرَّب العاملة فىّ، ما أتعسهم فى جبل الرُّهبان، هؤلاء الذين يظنُّون أنهم أتباعى وما هم بأتباعى، يستذلُّون مخلوقات البرِّية بأطعمتهم، الذِّئب وضع رأسه على فخذ الإنسان لما ذلَّت اللقمة روحه العزيزة، لكن أنت أيها الشَّيخ، وضع الذِّئب رأسه على فخذك، خشوعا لروح الرَّب التى عملت فيك، فأرهبته.

ونظر "المسيح" فى عينى "حجيزى"، فشعر "حجيزى" بمياه باردة تجول فى روحه الملتهبة، تطفئها من غير ألم، قال "المسيح": لماذا تريد ألَّا تدفن فى قبر؟

- أنا لى نصيبى فى هذه الحياة، عمرتها وزهزهتها، ليس من الحق أن يسلبونى نصيبى بالموت، ثم الدَّفن.

ابتسم "المسيح"، ووضع كفَّه بين كتفى "حجيزى"، الذى شعر لحظتها بحنان غامر يجتاحه، حنان لا وصف له، سوى أنه ود لو يتمدَّد وينام.

قال "المسيح": هو أنت الإنسان أيها الشَّيخ، مفعم بالحياة، تتعلَّق بها حتى بعد موتك، بمثلك يُسَـرُّ الرَّب.

فجأة استقام من جلسته، وسطع وجهه الحانى بغضب، وقبض على سيفه، واستدار ناحية المدق الصَّاعد إلى الجبل، نظر إلى الكهوف الفاغرة أفواهها تلتهم الظَّلام، وقال: اتبعنى أيها الشَّيخ.

ثم هتف: أنا هو القيامة والحياة، ربُّ كل حى، وأحكم على كل ميِّت بالبكاء والنَّدم.

*****

قطعا لم يتخيَّل الرَّاهب "يوأنَّس" فى أى لحظة من لحظات حياته أنه سيرى "المسيح" أمامه هكذا، بشحمه ولحمه، حتى وإن كان قد قال قريبا لـ"حجيزى" أنه لن يندهش لو رأى المسيح فى قلايته، ولو تخيَّل، ما كان سيتخيَّله مثلما يراه الآن، غاضبا ويمتشق سيفا!

كان "يوأنَّس" ممدَّدا فى ظلمة الكهف، عندما رأى نورا يتحرَّك خارج فتحة الكهف، وظلال تتقافز، قبل أن يدخل هذا الرَّجل الذى يقبض على سيف، ويدخل "حجيزى" خلفه يحمل خشبة تشتعل قمتها بنار ذات لهب.

وعندما انعكست النَّار على وجه "المسيح" ارتعش الرَّاهب، ولم يحرَ حركة، فصار كأنه تمثال.

هذا وجه يعرفه، رآه فى الصُّور التى كانت تزوِّق جدران محل المعلِّم "نظير"، ورآه فى تلك الصُّورة التى بهتت على الجدار الكالح فى البيت القديم فى نجع "أبو ليلة"، الوجه الذى هو غالبا مرفوعا إلى السَّماء، ينظر إلى الذى أرسله نظرة مسكنة وحاجة، أو ينظر إلى الأرض متواضعا كإنسان، لكن هذه النَّظرة الغاضبة لم يرها إلا فى غرفته فى "أسيوط"، نظرة تستغضبه، لكنه الآن يشعر بأن نظرته هذه غاضبة عليه.

نظر الرَّاهب "يوأنَّس" إلى "حجيزى" نظرة مستفسرة، كأنه يريد أن يسأله: هل هذا هو الرَّب "يسوع" فعلا؟!

- تُزهق الرُّوح يا مغرور ثم تأتى وتلتصق بى!

ارتعشت شفتا الرَّاهب "يوأنَّس"، وفضح النُّور المتراقص نظرة حيرة غمرتها دموع ضحلة: إلهى وسيِّدى.

- لا أحب أن أكون سيَّدا، لأنى لا أحب العبيد.

- إلهى.

رفع "المسيح" وجهه إلى السَّماء وتمتم، ثم نظر إلى الرَّاهب وهمس: هل فهمت ما قالته أمُّك قديما؟!

بدا أن "يوأنَّس" لا يفهم، فقال "المسيح": لمَّا قالت لأبيك أنا أنظر لمن ينظر إليه "المسيح"، كنت أنظر إلى الإله، الآب الذى أرسلنى.

- يا ابن الله، ارحمنى.

- لم ترحم نفسك.

- لم أرحم نفسى حتى لا تغضب علىّ.

- الآب يرحم الإنسان، فكيف لا يرحم الإنسان نفسه؟!

- إن تركتُ نفسى للخطيئة لن أدخل ملكوت الرَّب، لن يرحمنى، وسيلقى بى حيث البكاء والندم.

"ما ألقى الآب فى روعنا أن نبشِّر بالخوف والرُّعب منه، هو الممجَّد فى الأعالى أحب الإنسان، ومن يحب لا يعذِّب، يكره الإنسان نفسه، فيعذِّبها بالأعراف، ويبرِّر كبتها بالخطيئة، ومخافة الرَّب، مخلوق أيها الإنسان لتحاور الآب، وتصنع مشيئتك، لا أنت ملاك، ولا أنت شيطان، كمالك بنقصك، وفى نقصك اكتمالك، والرَّب هو الإنسان الكامل".

- يا ابن الله، تقدَّس اسمك، بَلَغَنا من القدِّيسين أنه بالألم يطهر الإنسان، نترك ما نحب لكى نطهر، وأنا أحببت "سيرين"، لكن ما كان لى أن أتبع شهوتى وأقطف زهورا محرَّمة!

"ما أشقاك أيها الإنسان، تحرِّم الزُّهور، وتحل الدَّم".

رأى الرَّاهب فى عينى "المسيح" ما هزَّ أعصابه بالخوف، فهمس: أنا عبدتك طول عمرى، لم أنشغل عنك بسواك، و"سيرين" ما فكَّرت سوى فى حبِّى، أنا العبد.

- انشغلتَ بى طول عمرك، ولم تفهم قصد الذى أرسلنى، لكنَّها فهمَت، قلبُها وسع عمل الرَّب، وقلبك ضاق أيها الحزين.

ترقرقت الدُّموع فى عينى "يوأنَّس"، وانتحب: تبكِّتنى يا ابن الله بعد كل هذا العمر.

- حرَّمت الحب، واستحللت القتل، وظللت تخدع نفسك طول العمر، تعبد مسيحا ليس هو أنا ، مسيحك المرعب.

ملأ الرُّعب عينى "يوأنَّس" وهو يرى "المسيح" يقدِّم له السيف، كانت عيناه تدعوانه لقتل نفسه، وكان "حجيزى" يرى ما سيفعله "يوأنَّس"، سيفعل مثلما فعل كل رهبان الجبل قبله، سيغمد السيف فى قلبه، ويموت.

وعلى المدق المنحدر إلى سفح الجبل، سمع "حجيزى" هذه الكلمات: ومع أنك عشت حياتك تفكِّر فى الموت، وكيف تهرب من الدَّفن، ومع أنك ضيَّعت مباهج حياتك، إلا أنك كنت تفتح الباب لحياة جديدة، يحياها الميّت فى الدُّنيا من غير دفن، الرُّواد يتعبون من أجل القادمين، أنت أيها الشَّيخ تحقِّق رغبة الآب، إلَّا أنك عندما تموت ستدفن.

ارتعد "حجيزى"، لكنَّه سمع نفسه يقول: أنا لن أُدفن.

- أنت أيها الشَّيخ جدير بالدَّفن.

- جدير بالدَّفن ؟!

- أنا سأذهب الآن، لكى أُرسل إليك المُعَـزِّى، الذى يتكلَّم بما تفهم، وسيقول لك كل شىء، ووقتها ستصرخ بكل قوتك فى صحراء البرِّية: أحفروا لى قبرا.

*****

ظلت حيوانات البرِّية حول جبل الرُّهبان أياما تطوِّف حول المكان، تنتظر أن يخرج إليها الرُّهبان بالأقوات التى اعتادتها، لكن الرُّهبان كانوا قد صرعوا أنفسهم بسيف "المسيح"، كل واحد منهم كان يغمد النَّصل فى قلبه بيده، تحت أنظار الرَّب الغاضب، الذى هو الحياة، الذى كره الموت فقام منه، والذى كره الدَّفن فخرج من قبره.

ظلَّت الحيوانات تطوِّف، ثم تمضى متحسِّرة، وبدا عليها الهزال، لم تعد الذِّئاب حتى تشبه الكلاب النَّشطة، وإنما صارت مثل جراء بائسة، والغزلان وهنت، وأرانب ظهرت هزيلة.

ظلَّت الحيوانات تطوف، والجوع يطوف فى خلاياها، حتى أثار هذا الجوع وجدانها بالحقيقة، فنظر الذِّئب إلى الغزلان نظرته الأولى، وأدرك أن الغزال بالحق فريسته، وكذلك هذه الأرانب، والغزلان أبصرت أوراق الأشجار، والأرانب أبصرت العشب، عادت إذن الحيوانات إلى سيرتها الأولى.

ومضت أيام لتظهر بعدها حيوانات البرِّية بجلود ملتمعة، الذِّئاب أشعارها تبرق مثل عيونها، وورق الشَّجر ازداد اخضرارا، توهَّجت الحياة بالافتراس والمطاردة.

مَن يدفن مَن إذا ما كان الجميع موتى؟! والحى الوحيد لا يؤمن بالدَّفن!

بقى "حجيزى" وحيدا ينتظر قافلة "عبدالله"، متشبِّعا بلقاء "المسيح"، الذى مضى منذ أيام طويلة، أو ربما أسابيع، فى الظَّلام مبتعدا، رآه يومها يقوم من جواره ويبتعد، والنَّار لهيبها يضوى، كان "حجيزى" يرفع رأسه مغمورا بوهن النَّوم، ينظر إلى ذلك المبتعد تتبعه حيوانات الفلاة، كان ما حدث أعجب

وأغرب من أن يكون حقيقة، حتى أن "حجيزى" أحيانا كثيرة كان يسأل نفسه: هل أنا رأيت "المسيح" حقا؟

عندما أصابه الشَّك فى هذه الرُّؤية أوَّل مرة، قرَّر أن يصعد إلى كهف الرَّاهب "يوأنَّس"، ليتأكد مما رأى فى ليلة الأمس، كان يصعد المنحدر ناظرا فى البقع الليِّنة بالرِّمال السَّفيفة، عساه يرى أثر قدم غير قدم الرَّاهب، لكنَّه لم ير إلا آثار قدميه هو، أين ذهبت آثار من قال عن نفسه إنه "المسيح"؟!

سينادى على الرَّاهب من غير أن يدخل، كان قد أصابه التهيُّب، ولمَّا نادى فلق صوته الصَّمت، صوته هو، لأن صوتا آخر لم ينبعث ليفلق الصَّمت.

همس "حجيزى" لنفسه: الرَّاهب لا يجيب، إما أنه خرج لقضاء حاجة، أو أنه انتحر فعلا بسيف "المسيح".

سيتقدَّم إلى فتحة الكهف، متردِّدا من التهيُّب، وسيدخل بمهل المرتعب، ستفاجئه روائح كريهة، مثلما فاجأته فى ليلة الأمس، روائح إنسان يحيا بمنأى عن الحياة وحيدا، وسيدور برأسه ينظر إلى النَّاحية التى كان الرَّاهب مستلقيا على أرضها مذعورا أمام "المسيح" الغاضب، وسيجده ممدَّدا على الأرض، مصلوبا على الصَّخر، ناظرا إلى مكان أبعد من السَّقف، ميتا، لكن لا آثار لدماء، ولا أثر لوخزة نصل سيف قاتل فى أى مكان من الجسد العجوز.

الرُّهبان جميعهم كانوا ميِّتين، لكن لا آثار لدماء، ولا لوخزة سيف، وإنما كل واحد منهم مشبوح على هيئة صليب فوق الأرض الصَّخرية داخل كهوفهم.

وأصبح "حجيزى" غير قادر على تأكيد رؤيته ومحاورته للمسيح، كما أنه غير قادر أيضا على نفيها.

لقد رأى فى ليلة الأمس السَّيف وهو يخترق قلب كل واحد منهم، ورأى الدِّماء تتدفَّق من الجروح، والآن لا جروح ولا دماء!

لكنَّه "المسيح" من فعلها، وإلَّا ما ماتوا كلهم دفعة واحدة هكذا.

"ماذا تفعل الآن يا حجيزى؟ هناك موتى مبعثرون فى كهوف الجبل، تتركهم يحيَون معك، أم تدفنهم وترتاح؟

أرتاح؟!

الميِّت سيبقى ميِّتا، هل تستطيع العيش الآن مع هؤلاء الموتى؟!

كانوا موتى وهم أحياء، لن تفرق المسألة كثيرا.

طيِّب، لو أنهم وهم أحياء ملأوا الدُّنيا حياة من حولك ثم ماتوا، ليبقوا حولك جثثا صامتة، تنشر حولك الصَّمت والحزن، هل كان الأمر سيختلف؟ هل سيكون بمقدرتك البقاء معهم، أو تتحمَّل وجودهم معك؟".

"أنت جدير بالدَّفن أيها الشيخ".

- أنا سأصرخ وأقول أحفروا لى قبرا؟! مستحيل!

"الآب هو الإنسان الكامل".

- الله إنسان؟!!

"إنسان كامل، ليس كمثله إنسان منَّا"

- لم يقولوا لنا ذلك، قالوا إن الله لا يشبهنا، ليس كمثله شيء.

"وهل الإنسان الكامل مثله شيء؟"

- لكنَّه إنسان فى النِّهاية، سيشبهنا.

"وهل يعيب الآب أن يشبه الإنسان؟ أحب الآب الإنسان يا أيها الشَّيخ"

- أنا لا أحب الدَّفن أيها الرَّسول الكريم.

"ستحبه، لمَّا يكلمك المُعزِّى الذى سيأتيك، فيكلِّمك وتفهم".

- ولماذا لا تقل أنت لى!

"كيف يتحرَّك الزَّمن إلى لأمام إذا قال أحدنا كل شيء فى لحظة واحدة، العالم أيها الشَّيخ يعيش من أجل أن يُكمل الآب كلماته، وحينما تكتمل ستقوم المحاكمة، وتُنصب أدوات الدينونة، سأذهب الآن، وسيأتيك المُعزِّى، فتُعَزَّى".

16

العِشقُ قَتَّال

- عندما حدث هذا الهول أمام عينَى كرهت الله، وتمنَّيت لو أنِّى إله مثله لأستطيع أن أقتله، لماذا يعذِّبنا كل هذا العذاب، وعدنى بالنَّجاة فلماذا لا ينجينى من غير رعب أو ألم، يفعل ذلك كى أكون ربا!؟ يا للعبط، إنه الله، الله يا حجيزى، الله بجلال قدره لا يستطيع أن يوجد لنا طريقة تجعلنا أربابا من غير عذاب؟!

الشَّمس تحلِّق نحو غروب العصارى، وظلال لثلاثة من البشر يمشون الهوينى تزحف على الرِّمال زحف الحيَّات الشَّبعة، ظل يد أحدهم ارتفع إلى ظل الرَّأس وبدا أنه يمسح الوجه.

كان "سعدون" ينشج بحمية، ويبكى بعنف، فربت "حجيزى" على كتفه، فانفلت يقول كلاما مخلوطا بالشَّهيق والزَّفير الحاميين: ظللت أدعوه أربعين عاما ليعطينى ذرِّية، ولمَّا أعطانى "جميل"، ودعوته فى لحظة غضب أن يحرقه هو وأمِّه، حرقهما من غير تأن! الله هذا لا يعرف طعم عذاب القلوب، لذلك يعذِّبنا وباله رائق.

"لماذا لا تشتكى لصاحبيك همومك يا حجيزى كما يفعلان معك؟ أنت تتعذَّب مثلهم بالضَّبط، يشويك الله مثلهم فى جحيم الآلام، ضيَّع عليك حياتك،

ودفعك دفعا كى تبحث فيما لا أهمية فى بحثه، موت ودفن وفناء، تخاف الدَّفن والفناء، فدفنت حياتك وأفنيتها، لو عشت كما يعيش النَّاس لاختلف الأمر، كنت استمتعت بسريرة التى رقَّصت قلوب الرِّجال بالهوى، كنت أنجبت عيالا كثيرين، ولم تكتف ببكير، كنت شاركت النَّاس حياتهم، كنت ضحكت كثيرا، ولعبت فى أفراحهم بالسَّيف، كنت عشت الحياة يا حجيزى، لكنَّك ها أنت عمرك يشارف على المائة، أو تجاوزتها، ولم....".

- لما دخلت ناقتى هذا الحيِّز من الصَّحراء شعرت وكأنى دخلت الجنَّة التى يحكى لنا عنها الشيخ "مزيد"، أشجار "عاقول" و"عبل" منتثرة فى الرِّمال على مرمى البصر، هذه أشجار الحياة، ستلتهمها ناقتى وتمتلئ قوَّة، لتزداد فرصى فى النَّجاة من هذه المتاهة المميتة، وأنا سألوك أوراق هذه الأشجار، سآكل شيئا يخرس أنين جوفى، وورق أخضر أمصُّ ماءه فأغلب عطشى، ثم فى ظل إحدى هذه الصُّخور أنام، أنام بعمق.

كان قلب "غنيمة" يضطرب من الفَّرح، للدرجة التى شعر معها أنه يريد القفز من فمه، وإلَّا ما تفسير هذه الشَّهقات الحادَّة التى كانت تندلق من حنجرته لتمزِّق سكون الرِّمال!؟

لم تكن هذه الأصوات كلها لشهقات "غنيمة"، وإنما كان بعضها يأتى من بعيد، حيث خمس أو ست نقاط سوداء، قادمة تركض من الأفق الذى يبتعد خلف "غنيمة".

- قطيع ذئاب.

- قطيع ذئاب؟!

- وجائعة.

لم يكن "غنيمة" يشعر بقدوم قطيع الذِّئاب، كان، مثل ناقته، قد انكب يقلع نبتة شجر من جذورها، ويمضغها متشنِّجا من قسوة الجوع والعطش، فلم ينتبه للقطيع القادم يزأر من بعيد.

- فجأة سمعت هذا الصَّوت المرعب، فانتبهت، وعندما نظرت خلفى وجدتها قادمة من بعيد تزأر، معالمها واضحة، لا تسمح بلبس الرُّؤية، إنها الذِّئاب، بآذانها المشرعة، وعيونها الخارقة، وأنيابها البارقة، ورغبتها الأكيدة فى القتل.

فى لحظة سحب "غنيمة" المسحاة من الشدَّاد الخشبى المرتكز على سنم النَّاقة، لكن النَّاقة نفسها كان الرعب قد لسع قلبها، إذ أنها تركت قضم الشُّجيرات ونظرت حولها بعينين سوداوين، وفكَّر "غنيمة" فى أن الدِّفاع عن نفسه بمجرد مسحاة أمام ستَّة ذئاب جائعة هو أمر بالغ الحماقة، والأفضل الهرب والانزواء.

- آه يا "حجيزى"، آه يا "سعدون"، لو أنَّكم رأيتم حيرة النَّاقة، وهى ترى الذِّئاب وقد اقتربت جدا!

لقد رغت رغاء طويلا وهى ترفع رأسها محاولة الفهم، ثم حاولت الرَّكض، لكن الذِّئاب أحاطت بها من بعيد، فوقفت فى مكانها، تنظر حولها وترغى، كأنها تنادى علىّ، كأنها تريد أن تقول: أنا ما تركتك للهلاك، فلماذا تتركنى له؟

الذِّئب قاتل قاس، يضرب ضربته المهلكة فتسقط الفريسة، وقبل أن تموت ترى بعينيها قلبها يتمزق بين أنيابه النَّاهشة.

انطلقت ثلاثة ذئاب تناوش سيقان النَّاقة، بينما بقيت الثَّلاثة الأخرى تزأر وقد أخذت وضع الاستعداد للهجمة الحاسمة، كانت النَّاقة تحاول عض هذه الذِّئاب التى تناوش سيقانها، لكن ماذا يفعل الثَّقيل أمام الخفيف الرَّشيق، كانت الذِّئاب تقفز مبتعدة، لكنَّها فى كل مرَّة كانت تبتعد، كان الدَّم يتدفَّق بغزارة من جروح كثيرة فى سيقانها، وفى المرَّة الأخيرة، أفلح أحدهم فى تهشيم مفصل ساقها الخلفية لتسقط على مؤخرتها.

أجهش "غنيمة" بالبكاء وهو يحكى قصَّة مصرع ناقته، كانت الشَّمس قد أقبلت على الغروب، وكان "سعدون" كعادته فى مثل هذه الجلسات، يعد الشَّاى ويصبّه فى الكوب الصَّغير، و"حجيزى" يرشف الشَّاى رشفاته القلقة المخطوفة.

- سقوط الكبير أمام الصِّغار يحز فى النَّفس، النَّاقة ضخمة، شكلها مؤلم وهى تنهار، وعيناها السوداوان لم تعدا جامدتين، وإنما رأيت فيهما دموع مظلمة، عندما سقطت انطلقت كل الذِّئاب فى هجمة واحدة ناحيتها، وتكالبوا عليها، أحدها يغرس أنيابه فى رقبتها، بينما الجميع كانوا يبقرون بطنها، وفى لحظة كان قلبها بين أنياب أحدها، ورفعت رأسها الرَّفعة الأخيرة، لترى قلبها وهو يتمزَّق.

بقيت الذَّئاب تنهش فى النَّاقة الصَّريعة، نهشا مريعا إثر جوع فاتك، وكانت تغيب وتنظر ناحية الصَّخرة التى يختبئ خلفها "غنيمة"، وكان "غنيمة" يرتعش من الرُّعب.

- كنت أراقب الذِّئاب وهى تنهش لحم ناقتى، وكل ما أفكر فيه هو ماذا ستفعل هذه الذِّئاب بعد ذلك؟ هل ستنشبع بطونها فتمضى مبتعدة، أم أن شهوة القتل عندها ما زالت جائعة، وسأروح ضحيَّتها؟

لكن الذئاب مضت مبتعدة، مخلِّفة بقايا لحم ملتصقة بعظام نافرة.

لم يستطع "غنيمة" أن يفرح بمغادرة الذِّئاب، كانت تبتعد وهى تلعق أفواهها بألسنتها، وكان هو ينتبه إلى ما لم يكن منتبها إليه.

لم تعد هناك ناقة، وعدم وجود ناقة فى فلاة لا نهاية لها، لا يستطيع الإنسان فيها أن يكون على هدى، فهذا يعنى حضور الموت.

"ستموت يا غنيمة، لا تأمل كثيرا فيما قاله لك الله فى صلاتك، لو كانت هناك نجاة للاحت بوادرها، وكل ما يحدث لك معناه الدَّفع بك وبمنتهى الإصرار نحو الهلاك".

- تصاريف الله عجائب يا "حجيزى"، كانت "الوعرة" خلف ظهرى ولم أكن أدرى، لو حدَّقت فى الأفق جيِّدا لربما رأيتها، لكنِّى كنت قد يئست، فأسندت ظهرى إلى الصَّخرة واستسلمت للموت، هنا الهلاك قادم لا محالة، حتى مع كل هذه الأشجار، المسألة ليست طعاما أو شرابا، ماذا سيفيد

الطَّعام أو الشَّراب من غير ناقة تقطع بك المسافات نحو العمران، هذه الشجيرات الكثيرة تعنى وجود آفات كثيرة قاتلة، أفاع ودفان وطريش وعقارب، هنا ذئاب وضباع، وماذا يفعل الإنسان المسكين وسط كل هذا الشر، خاصة إذا كان جائعا ومهدودا ويائسا مثلى.

"المشاكل الكبرى، تلك التى تجعل الإنسان من الممكن أن يُجن أو يقتل نفسه، حلها فى الاستسلام، لا تفكِّر كثيرا، وإنما حاول أن تهدِّئ من دقَّات قلبك، ونم".

- نمت وأنا جالس مستندا إلى هذه الصَّخرة، نوم العجز، الذى يشبه نوم المرض، ملىء بالهلاوس المريعة والكوابيس، رأيت "الزبير" يضربنى بكفه على وجهى، ويركلنى وهو يدفعنى خارج بيت، وهو يصرخ: أخرج من هنا، لا أريد أن أراك ثانية.

ورأيت "لبنى" الله يرحمها، تجرى بين نخيل لا حصر لها ولا عد، وتصرخ مرعوبة: الذِّئاب يا "غنيمة".

أستفيق، فأنظر حولى، وأتذكَّر أننى ملقى فى الصَّحراء، وأننى أنتظر الموت، فأنام.

طلع الصَّباح بعد ليل بارد، كاد "غنيمة" فيه أن يتجمَّد، طلع الصَّباح عليه، وهو منكمش يرتعد فى رمال تمزِّقه ببرودتها، لم يكن يفكِّر فى شىء، فقط انطبعت فى عقله صورة هذا المتعاظم فى ضخامته، الباسم الوجه، وهو يعده بأنه سينجيه، وبأنه لا يحب للإنسان أن يكون مجرَّد عبد، وإنما خليفة ربَّانى،

لا يأخذ فقط مثل عبد، وإنما يعطى كإله، أن يعطى من أعظم ما يملكه، من حياته، يعطى أوقاتا للألم والعذاب، ويتجمَّل بالصَّبر، صبر يليق بخليفة ربَّانى.

طلع الصَّباح، ونور الشَّمس لاح، واندفع يغمر الأرض، لم يكن بإمكان "غنيمة" الوقوف، كان مستندا إلى الصَّخرة فى الظِّل، ونور الشَّمس يبدو دافئا بجواره، كان يتمَّنى لو بمقدوره أن يزحف، حاول، لكن عظامه كانت قد تجمَّدت، فثبَّت عينيه بالنُّور، وحاول أن يمتص الدفء بعينيه.

أصوات الرُّعاة الصِّغار تأتى من بعيد مثل سرسعة فئران تتعارك، وأصوات ثغاء أغنام القطيع، ويفتح "غنيمة" عينيه، هل هذه الأصوات حقيقية، أم أنها من بشائر الموت القادم، تخيُّلات أخيرة تمهِّد للنِّهاية بلطف، أمل مباغت يعمى الإحساس بضربة اليأس القاضية.

نصب "غنيمة" رأسه، رفعها عن متكئَّها الصَّخرى المستسلم، يتأكَّد من إن كان يسمع أصواتا حقيقيَّة أم إنه ينصت إلى سراب.

الأصوات تقترب، نصب رأسه وقتا طويلا، والأصوات تقترب، هذه هى الحقيقة، الوهم خاطف، لكن الحقيقة ممتدة، وهذه الأصوات ممتدة، وتقوى بالاقتراب، وفتح فكَّيه ليصرخ، ليسمع الرُّعاة صوته، فتحهما بصعوبة، سمع صوت تفكُّكهما من جمود الصَّمت، كأنهما صخرة تنشق، وقال بصوت واهن: يا ولد.

الدفء يسرى فى جسد "غنيمة"، وعندما سمع صوته دبَّت فيه الحياة مرة أخرى.

- أقوى ما يمكنه أن يحول يأس الإنسان إلى أمل يا "حجيزى" هو صوته، جرَّبت هذا، لما سمعت صوتى وأنا أنادى على العيال عادت لى الحياة.

تذكَّر "حجيزى" كلمات الرَّاهب "يوأنَّس" عن صوت الإنسان فى وحدته، فهمس: سمعت مثل هذا الكلام زمان، منذ عشرين عاما.

قال "سعدون": كلام يصح.

وقال "غنيمة": وأوَّل ما رأيت الأغنام تتدفَّق، انفكَّت أعصابى المشدودة مرَّة واحدة، وشعرت بهدير مفاجئ يجتاح عروقى، ولمَّا ظهر أول ولد من الرُّعاة، ونظر ناحيتى كنت أسقط فى غيبوبة، ولم أشعر بشىء.

*****

- يا "حجيزى"، الشَّمس غربت، والظَّلام قادم، هل سنقضى الليل فى المقبرة؟!

نظر "حجيزى" إلى "بكير" وقال: اعمل لنا شايا آخر، لا تحلِّه بالسُّكر.

- لماذا يا والدى؟! أنت طول عمرك تشرب الشَّاى بطعم العسل من كثرة ما تمزجه به من سكَّر!

- اسمع يا "بكير"، أمامى يومان، وسأموت فى الثَّالث، إياك وأن تدفننى.

بقايا واهنة من نور النَّهار المنقضى، ليست كافية لرؤية وجه "بكير"، وكيف صارت ملامحه وهو يسمع هذا الكلام من والده، لكنَّه صمت تماما.

- سمعت الكلام، أم أصاب الصَّمم أذنيك؟

- سمعت يا "حجيزى"، لكن كلام لا أدرى كيف أعقله؟!

- وأنا لا أريدك أن تعقل كلامى، لأنك لن تستطيع، أنا أقول لك وصيتى، لا تدفننى.

أشعل "بكير" النَّار مرَّة أخرى ليعد الشَّاى، كانت أفكاره قد ارتبكت، نعم هو قد كبر فى ظل تصرُّفات أبيه المغايرة لتصرُّفات النَّاس فى "الوعرة"، لكنَّه لم يكن يوما غريبا لهذه الدَّرجة مثل ما هو غريب اليوم، يمكن وفاة صاحبه "سعدون" بالأمس تكون هى السَّبب! ربما!

مرَّة أخرى يرى "حجيزى" يميل برأسه ناحية قبر "سعدون" ويصيخ السَّمع.

- البكاء يعيب الرِّجال يا "سعدون".

- أنا قتلت "زليخة" يا "حجيزى".

- هى التى زوَّجتك!

- وأنا ما كان يجب أن أصدِّق إنها تريد تزويجى، لو كنت فاهما لما رضيت.

-كانت تريد تسعدك بذرية تعزّك.

- ومن قال إن السعادة فى الذُّرية؟ من قال هذا أبله، لا يفهم، السَّعادة امرأة تحبُّك وتحبُّها.

اعتدل "حجيزى" مبتعدا برأسه عن القبر، ونظر إلى السَّماء التى غمقت تماما، وظهرت فيها بعض النُّجوم المستطلعة، كان "بكير" يقدِّم كوب الشَّاى لأبيه، الذى أخذه سارحا، بينما "بكير" يحاول متابعة تصرُّفات والده، كان "حجيزى" يخرج كيسا كبيرا من سيَّالة قميصه الطَّويل، أخذ منه شيئا ووضعه فى كوبه.

- ما الذى وضعته فى كوبك يا والدى؟!

"السعادة امرأة تحبُّك وتحبُّها، كلمة تشبه ما قاله الرَّاهب يوأنَّس: لو وجد أحدنا امرأة تحبُّه ما ألقى بنفسه فى منافى الرَّب".

"يمكن لو أحبَّتنى سريرة ما كنت فكَّرت فى مواضيع الموت والدَّفن! لو كانت غمرتنى بالحياة لما اهتممت بدفن أو غير دفن، كانت سريرة دائمًا بعيدة، وكنت أفشل دائمًا فى التقرُّب إليها، وكانت هى تجيد الابتعاد، لو أنها حاولت من زمان ما حاوَلته معى اليوم، لو دعتنى بنفس الحب، والرَّغبة فىّ، كانت اختلفت كل هذه الحياة".

ابتسم "حجيزى" بسمة مغموسة فى الأسى، كان الظَّلام قد حل، والنَّار خبت، فلم يكن بإمكان "بكير" أن يراها.

"وماذا كنت تنتظرين منى اليوم يا سريرة؟!"

دخل "حجيزى" الغرفة مرتبكا، وأغلق بابها خلفه، كانت "سريرة" قد تخلَّت عن عصاها، ووقفت بجوار السَّرير تستند على مرتبته العالية، نظر "حجيزى" إليها نظرة خاطفة، استجمعت أهم ملامحها بالنِّسبة إليه، العينان اللتان ضاقتا وغامتا، الأنف الذى تهالك على مجموعة من الأخاديد حول فمها الذى انهار، لا شىء تبقَّى فيها يمكنه أن يثير شهوة، نداؤها هو الذى أثار شهوته، نداؤها الذى يشى برغبة ملتهبة، ينظر إليها مرَّة أخرى، كانت ترفع نفسها إلى السَّرير

العالى وقد استعانت بكرسى خشبى تضعه خصِّيصا لهذه المهمَّة، الصُّعود إلى الفراش، كان منظرها وهى تعانى من أجل الصُّعود مثيرا للشفقة، إنها ليست أكثر من هيكل عظمى يرتدى ثيابا، جلست على السَّرير، ونظرت إليه وابتسمت، بسمتـُها هى الشىء الوحيد فيها الذى ما زال يحمل الكثير من بهجتها القديمة، ونظرتها الدَّاعية أيضا، رغم أنها تنبعث من عينين تغيمان بسحب الزَّمن الطَّويل الذى انقضى.

تحرَّك نحو السَّرير، خطواته بطيئة، فى عينيه حيرة، هذه أوَّل مرَّة يبدو فيها تصرُّف لـ"سريرة" مشحونا بكل هذا الجنون.

تذكَّر مرَّة قديمة، ربما من أربعين سنة، كانت مرَّة لا تنسى، عاش على ذكراها سنين، كانت "سريرة" قد استطاعت فى هذه الليلة أن تنسيه الجثث المحنَّطة والموت، أخذته بسرعة وهو لم يزل جالسا على حافَّة السَّرير، لم تتمدَّد أمامه، وانما أتته من الخلف وقبضت على ذكره، وصهرت روحه بأنفاسها السَّاخنة وهى تعض حلمة أذنه.

وصل إلى السَّرير، لم تكن قد تمدَّدت بعد، صعد هو الآخر على الكرسى الخشبى قبل أن يجلس على حافَّة الفراش.

"لو أنها أخذتنى فى كل مرَّة فجأة! طيِّب، وإذا كانت هى لم تفعل، فلماذا لم تطلب منها أن تفعل ذلك؟! أطلب؟! أنت جننت يا "حجيزى"؟! تطلب ماذا؟! تطلب الوساخة وقلَّة الأدب؟! هذه لحظات وتنقضى، يكون الواحد منا فيها مثل البغل، حيوان مطلوق، أطلب؟! من أجل لحظات أضيِّع هيبتى طول العمر؟!"

"لم تضيِّع هيبتك يا حجيزى، وإنما كل عمرك هو الذى ضاع".

شعر بيد "سريرة" قوية، تجذبه من رقبته لتلقيه ممَدّدا بجواره، واضعا رأسه على ذراعها المقدود من عظام، قرَّبت رأسها من رأسه النَّاظر إلى أعلى مبهوتا، وهمست: حجيزى.

أمال رأسه ناحيتها، ولم ينظر فى عينيها، وإنما نظر إلى نور الضُّحى الذى يتدفَّق من بين أسياخ حديدية تقاطعت فى طاقة ضيِّقة اقتربت من السَّقف، نور يتدفَّق عفيًّا إلا أنه هادئ، يسكِّن جو الغرفة، ويجعلها مريحة للنَّفس، رغم قِدَم كل ما فيها، وشحوب ألوانه، ورغم الملابس المبعثرة هنا وهناك من غير ترتيب، كانت الغرفة مريحة للنَّفس.

- "حجيزى" كيف تموت وتتركنى ؟!

"ومتى كنت معك، حتى إذا مت أكون قد تركتك؟! أنتِ فى آخر العمر يا سريرة تتصابين!؟"

- لن تموت يا "حجيزى".

- سأموت يا "سريرة"، عشت الحياة مع اثنين وماتا، "غنيمة" مات منذ أربعة أيام، و"سعدون" مات بالأمس، وأنا جائتنى الرُّؤيا الصَّادقة بأننى سأموت بعد يومين من الآن.

- إذا كنت ستموت ودِّعنى الآن.

ما الذى تفعله "سريرة"؟! لقد قامت من اضطجاعتها لتنام بكامل طولها فوق جسد "حجيزى"، الذى نفر الدَّم فى عروقه، فركضت الشَّهوة تحت كل جلده، فتململ بالحركة.

كانت "سريرة" تلقى برأسها فوق رأسه، تبحث بشفتين منحوتتين غارتا نحو فراغ الفم عن شفتين محاهما تتابع قرن من الزَّمان، وكانت أنفاسها تخرج

هرمة، تتَّكئ على عظام صدرها، لكنَّه أحاط ظهرها بكفَّيه العجفاوين، يريد ضمَّها.

"ما عاد فى جسدك غير عظام يا سريرة، وجلد ذابل، وأنا سكننى الثَّلج، أريد نارا تذيبنى، وأنت الآن لست غير رماد".

انهار القائم، وارتخى المشدود، وهطلت الدُّموع من سحب عينيها الغائمتين.

دفعها لتنزل من فوقه، فارتمت بجواره، وقالت بإلحاح: ودِّعنى يا "حجيزى".

"لماذا تريد البقاء بعد موتك بين الأحياء إذا كنت لم تستطع وأنت حى أن تعيش بينهم؟ الأفضل أن تبحث لك عن منفى من منافى الرَّب، وتبقى هناك حتى الموت، هل بعد كل ما حدث يمكن لسريرة أن تطل عليك وأنت مجرَّد جثَّة محفوظة فى غرفة مغلقة؟ ماذا قدمت إليها لتطل عليك، وتمسح التَّراب عن أعضائك التى ستكون متيبِّسة، ماذا قدَّمت لها لتستطيع تحمُّل النَّظر إلى عينيك الميِّتتين".

- ودِّعنى يا "حجيزى".

"حاول يا حجيزى".

مال ناحيتها، نظر فى وجهها مرَّة أخرى نظرة سريعة، هذه امرأة يجب أن تكون الآن جثَّة محنَّطة، لا جسد يشتعل بالاشتهاء.

تغرس أصابعها الممصوصة فى رقبته، وتهمس منتحبة: ودِّعنى.

"حاول، حاول، حاول يا حجيزى"

تشعر بمحاولته، فتسحب عنها جلبابها، تخلعه وتلقى به جانبا، ويرى "حجيزى" الجلد وقد التصق بالعظام التى زهقت من الجسد فبرزت تريد

الهروب، ونهدين صارا مجرَّد ورمين مملوئين مرضا، ورأى يدا تمتد لتشق هذه الجثَّة، لا دماء تنبثق من الجرح، ولا دماء تزيِّن الجوف، ويد "شديد" تُخرج أحشاء باهتة، ويسمع صوته قائلا: الأجساد الشَّابة ترحب بالتحنيط، نحن نعمل التحنيط للمحافظة على الحياة الكامنة فى الجسد، لكن هذا جسد مصّه الموت.

يرتد "حجيزى" كالملدوغ، وعندما تحاول "سريرة" التعلُّق به لمنعه من المغادرة، يدفعها فى جنبها، وينزل من السَّرير، ويغادر الغرفة.

- هذا مطحون الـ"قرض" يا "بكير".

- ولماذا تضعه فى شايك يا والدى؟!

- لماذا يدفن النَّاس أعز النَّاس يا "بكير".

- قلت لك من قبل يا "حجيزى" لو لم يدفنوهم لتعفَّنوا، وأكلت الكلاب جثثهم.

- الـ"قرض" يا ولدى سينبت لحما مرا، لحما يقتل دود العفن، فيبقى الجسد إذا مات سليما لا يفسد.

- أنت تتكلم جادا يا والدى؟!

- ومنذ متى كنت أتكلم بهزر؟!

- لكن يا والدى أنت هكذا ستموت فى منتصف طريق الذِّهاب!

- تعرف شجرة البرتقال؟

- نعم.

- سأموت هناك، اسندنى جالسا إلى جذعها، وأكمل رحلتك إلى "موط"، بع التمور، واشتر ما يحتاجه البيت، واترك لى مكانا على النَّاقة، لتأخذنى وأنت عائد.

- لن أستطيع تركك وحيدا فى هذه الفلاة، ربما جاءت الذِّئاب يا والدى و...

وانهار "بكير" باكيا، و"حجيزى" ينظر إليه وهو يبتسم.

*****

عندما دخلت "بهيجة" المولدة خلف "سعدون" إلى غرفة "بثينة" اضطرب قلب "زليخة"، وعندما خرجت مبتسمة، وخلفها "سعدون" يكاد يطير من الفرح، سقط قلب "زليخة"، خرجت المولدة من الباب، وعاد "سعدون"، وقبل أن يدخل إلى "بثينة" أمسك بكتفى "زليخة" وهزَّهما فرحانا، وهو يقول: "بثينة" حامل يا "زليخة".

وهرول إلى غرفة "بثينة"، وكان وتد مدبَّب بحدة قد انغرس فى قلب "زليخة"، وبدأ الدَّم يظهر نارا فى ابيضاض عينيها.

"لماذا تتألَّمين الآن من مرارة كأس أنت التى قدَّمتيها لنفسك؟".

ذهبت "زليخة" إلى عشَّة الحمام، وجلست على بابها، وأخذت تنظر إلى الأعشاش.

"كل عش فيه طائران فقط، حمامة ووليفها، عاشرتِ الحمام طول عمرك، ولم تتعلمى منه شيئا".

طال النَّهار على "زليخة"، وهى قاعدة تسمع هديل الحمام، وضحكات مكبوتة هاربة من شقوق باب غرفة "بثينة"، الشَّمس لفحتها فى الضُّحى والظَّهيرة، فترفع رأسها تنظر إلى عصافير تطير خلف بعضها فى مناورة غَزَل، وقبل

العصارى قامت، لما خرجت "بثينة" تعد طعاما لها ولـ"سعدون"، وهى تمضى إلى حجرة الخزين، نظرت إلى "بثينة"، وجهها متورِّد بالفرحة، الدِّماء تركض فى خلاياه، وعيناها مبتهجتان، الأبيض فيهما أبيض كدفقة لبن، والأسود فيهما أسود مثل لقحة ليل مستبد، ورأت الولد يمرح فى بطنها، يتقلَّب ويلعب، وينادى أباه، و"سعدون" سيأخذه فى أحضانه، والولد سيكون عند أمه، و"سعدون" سيكون عند الولد، سيعمر عالم "بثينة" أكثر، لكن عالمها هى الذى سيحل فيه الخواء التَّام لا محالة.

مضت إلى حجرة الخزين، وفى قلبها حسرة شمَّت لها رائحة دخان.

- عدت بغنمى فى المغارب يا "حجيزى"، كنت فى المرعى أعذِّب نفسى من أجل أنها لم تستطع كبت فرحة ستصيب قلب "زليخة" بالكمد، كلَّما تذكَّرت حالها أشفقت عليها، "زليخة" التى كانت ملكة على كل بيتها، الحلوة بضحكها الذى يجلجل فى الليل والنَّهار، تصير هكذا؟ يضيق عليها بيتها فتنام فى غرفة الخزين؟ يهرب منها الضَّحك لتعشِّش فى صدرها أسراب كآبة؟

عدت بغنمى، فما دخلت عند "بثينة"، ولا غسلت جلدى، ولا حتى شربت ماء، لم تكن فى غرفتها، فعرفت أنها فى غرفة الخزين.

دفع "سعدون" باب الغرفة برفق كما اعتاد، ضوء الشَّمس الغاربة بالكاد يبين ملامح الغرفة، أجولة من غلال متراصَّة فى أحد الأركان، وأجولة تمر مجفَّف فى ركن آخر، وحبال من ليف سميك، وأوتاد من خشب ملقاة فى ركن آخر مبعثرة، وكانت "زليخة" ممدَّدة على ظهرها فوق جوال الغلَّة الذى اعتادت أن تستلقى عليه، اندهش "سعدون" من هيئة هذه النَّومة، نائمة مستلقية على

ظهرها، رأسها محدوف إلى الوراء، وذراعاها انفرطا إلى جنبيها ليلامسا الأرض فى جمود، وساقاها تمدَّدا يخترقان الهواء المعتم.

- "زليخة".

ليس من صوت إلا صوت حمحمة الغنم وهى تتلاصق فى حظيرتها تستعد للهجوع.

- "زليخة".

ليس من صوت إلا أصوات طيور القرادين البيضاء، تضرب بأجنحتها ناحية أعشاشها فى الأشجار المبعثرة على مدى الغيطان، تسبح فى وهج شمس تغرب، فتطير بلون نحاسى فاقع.

*****

قافلة كبيرة من سبعة جمال تقترب من "الوعرة"، جمال غريبة يركبها غرباء، يرتدون ملابس مثل ملابس النَّاس البندريَّة، قمصان قصيرة وسراويل طويلة، وقبَّعات رأس تشبه تلك التى يرتديها عساكر الإنجليز، يصطحب القافلة حداة عرب قادوها عبر الصَّحراء المتداعية، وعلَّموهم أصول التعامل مع أهل هذه الواحات، ألَّا يدخلوها إلا بعد استئذان مشايخ قبائلها، وأن يُنيخوا جِمَالهم خارج الواحة، وأن يمضوا فى الطُّرقات فيلقوا السَّلام على من يلقاهم من رجال أهلها، وأن يحذروا مجرد الالتفات لأى أنثى، صغرت أو كبرت.

فى الدِّيوان الكبير جلس الغرباء، خاصة الإنجليز منهم، ينظرون إلى أهل "الوعرة" نظرتهم إلى أناس من عالم قديم، تاريخى، ينبعث الآن أمامهم حيا.

قال الشَّيخ "زويد" وهو ينظر فى وجوه الغرباء بتوجُّس: مرحبا.

قُدِّمت الأطعمة لمن أُعتبروا ضيوفا، وقُدِّم الشَّاى، وقال الشَّيخ "زويد" دون أن يتخلَّى عن توجُّسه: مرحبا.

رطن أحد الغرباء المصريِّين مع أكبر الإنجليز سنا، له شارب ذهبى يشتبك طرفاه بلحية مهذَّبة، وعينان برَّاقتان باخضرار ماء بئر "الرَّاهب"، وأنف معقوف مثل منقار صقر، ورطن الإنجليزى بكلمات قليلة، ثم توجه المصرى بالكلام إلى الشَّيخ "زويد": مستر "سميث" يوجِّه لكم الشُّكر على كرم ضيافتكم، نحن وفد من مصلحة الآثار التَّابعة للحكومة المصريِّة، لدينا معلومات عن وجود أثر مهم فى واحتكم، أثر عثمانى، معنا فى القافلة علماء سيحدِّدون هذا الأمر لاتِّخاذ الإجراءات اللازمة فى حالة صحة هذه المعلومات.

نظر "غنيمة" إلى "حجيزى" الجالس بجواره بين النَّاس المتواجدين فى الدِّيوان، نظرة متعجِّبة، لكن "حجيزى" قلب شفتيه، وهمس "سعدون" فى أذن "حجيزى": يقصدون المسجد.

قال الشِّيخ "زويد": أى أثر هذا، ما عندنا آثار.

- السِّجن، العثمانيُّون بنَوا هنا سجنا للمماليك الذين كانوا يقبضون عليهم بعد مطاردتهم.

اتَّسعت الأحداق بالدَّهشة، وقال الشَّيخ "زويد": سجن؟! ما عندنا سجون فى "الوعرة".

- أنتم تصلُّون الآن فيه.

هتف الشيخ "زويد": المسجد؟!

- نعم، كان معتقلا للتعذيب.

- المسجد؟!

هز الإنجليزى "سميث" رأسه مبتسما، كأنَّه يفهم ما يُقال.

أحاط الوفد بالمسجد، ينظرون إليه بعيون متفحِّصة، بعضهم أخذ يتلمس جدرانه بأصابع مستكشفة، بينما أخرج أحد الانجليز أدوات دقيقة لامعة من حقيبة كبيرة، وأخذ يغرسها فى بعض الشُّقوق ببطء وحذر، بينما تحلَّق رجال "الوعرة" حول ما يحدث، يراقبون بقلق.

- سجن!؟

قال "سعدون" بأسى: نعم يا "غنيمة"، المسجد لم يكن مسجدا، والعثمانيون لم يكونوا مؤمنين رحماء.

ثم استدرك الكلام بنبرة مكسورة، يلعب بها على أعصاب "غنيمة" الذَّاهل: كانوا قساة قلوب، عذَّبوا المماليك، و"شقمق" بيك علَّقوه من قدميه فى هذه السَّلاسل المدلَّاة، كنَّا نظنّنها سلاسل تعلَّق فيها المصابيح! لكن علَّقوا فيها "شقمق" بيك.

صرخ "غنيمة": اغلق فمك يا "سعدون".

- ولماذا يغلق فمه يا "غنيمة"؟ يتكلَّم "سعدون" كلاما سليما، نحن البهائم، صدَّقنا أن أناس ليسوا أصحاب مكان يمكن أن يبنوا مسجدا، العساكر الغرباء يبنون سجونا لا مساجد، وصاحبك "شقمق" تعلَّق من قدميه فى السَّلاسل.

انكسرت عينا "غنيمة"، وصوته كركب: حتى أنت يا "حجيزى"؟!

قهقه "سعدون" وهو يقول ساخرا: صلَّيت بينكم صلاة العشاء! كان يصلِّي وهو مدلًّى مقلوبا.

لكن شيئا رآه "سعدون" فى وجه "غنيمة" جعله يتوقف عن الضَّحك، كانت عيناه تنطفئان.

*****

من الذى لا يرى بزوغ القمر فى آفاق الصَّحراء المفتوحة ولا يرتعد قلبه برعشة خشوع، اعتاد "حجيزى" هذا البزوغ، آلاف الأقمار رآها تبزغ من الشَّرق فلم يرتعد قلبه، لكن هذا القمر الصَّاعد الآن يرهج بالذَّهب يصدِّع قلبه ويفتِّته، هذا هو القمر قبل الأخير، لم يتبق غير قمرين فى حياته، هذا أحدهما.

"متِّع عينيك يا حجيزى، لكن هذه المرَّة لن تستطيع أن تغسل قلبك بنوره فتبتهج، لا يبتهج الذَّاهبون إلى الموت وهم يعلمون".

فجأة تتوهَّج فى ذاكرته صورة طائر الإوز الذى غرق فى إناء الماء، فى عشة "سعدون"، لو أنه رضى بالماء الآسن ربما عاش أطول وأمتع، لكنَّه بحث عن الماء الرَّائق فى قعر الإناء، فانقلب فيه وغرق.

ألقى نظرة إلى الخلف، كانت ناقة "بكير" تسعى خلف ناقته، و"بكير" شبح غامض يهتز على سنامها هزا رتيبا سرمديًّا، بينما هناك الصَّخرات الأربع العملاقة تلتفح بظلام سينقشع حتما أمام ضوء هذا البازغ الصَّبور، وقبور تفترش الموات، حتى هذا يراه "حجيزى" الآن لآخر مرَّة.

17

المُعَــزِّى

وقف "سعدون" أمام الغرفة المغلقة بالقفل، غرفة "زليخة"، كم عام ظلَّت هذه الغرفة مغلقة؟ لا يتذكَّر، لكنَّها أعوام طويلة، أبقاها مغلقة، لأنه كان يحاول أن يبقى حيًّا، الآن هو كما قال لـ"حجيزى" منذ قليل "كره الموت"، فلم يعد يحب الحياة، ويا للسخرية، على من لا يحب الحياة، لأنها صارت مؤلمة بدرجة لا تطاق، أن يلوذ بالموت، وليس أجمل من الذِّكريات الحلوة وسيلة للانتحار.

تحرَّك المفتاح بصعوبة، فأصدر القفل تكَّة رشقت فى قلبه، نزع القفل من مكانه، ضغط على الباب فلم ينفتح، تيبَّست ضلفتاه مع طول الغلق، لكنَّه بضغطة أخرى أشد قوَّة انفتح.

ضوء الضُّحى ينسل باهتا من فواصل ضلفتى النَّافذة، ومن شبكة السِّلك التى تسد طاقة ضيقة مفتوحة قرب السَّقف، إلى براح الغرفة، فيكشف حالها كشفا هادئا.

لكن قلب "سعدون" ارتبك، وتخبَّط فى ضلوعه، الغرفة اختفت تحت كومة من تراب، وشعر كثيف من خيوط العنكبوت عشَّش فى كل مساحات السَّقف، وكل الأركان والزَّوايا، كانت الغرفة ميِّتة تماما.

خطا إلى الدَّاخل، فغاص نعل خفِّه فى طبقة كثيفة من تراب ناعم مثل الدَّقيق، لم يمنعه هذا من إكمال خطوته، فصار فى داخل الغرفة بكل جسده، وأغلق خلفه الباب.

مباشرة تقدم نحو السَّرير العالى، كانت عمامته تصطدم بخيوط العنكبوت المدلَّاة، فتلتصق هذه الخيوط بها، ولم يكن حريصا على إزالة هذه الخيوط، وإنما لأجل صدره الذى بدأ يشعر به ينتفض مثل شاة تذبح، يكاد يفقده توازنه، كان حريصا على الوصول إلى السَّرير.

كان يشهق وهو يندفع مستندا إلى حافَّة الفراش العالى، وانبعثت سحابة غبار صغيرة غاضبة من المرتبة، رفع جسده الثَّقيل، واعتلى الفراش، فتوالت سحابات الغبار، واستمرت تنطلق من أسفل جسده وهو يحاول التمدُّد، رافعا رأسه على الوسادة العالية، وأخذ يسعل.

عندما ركدت سحب التُّراب، وذهب السُّعال، جال بنظره فى الغرفة، وقال لنفسه: هيا أيَّتها الذِّكريات الحلوة، اقتلينى.

"زليخة" تأخذ قميصه وسرواله اللذين خلعهما، وتعلِّقهما فى شمَّاعة صنعها النَّجار على هيئة شجرة واقفة، وتقول: ما فى مرَّة تخلع هدومك وتعلِّقها فى العلِّيقة؟

فيرمى العمامة ناحيتها، ويقول: طيِّب خذى هذه علِّقيها.

ويضحك، وينظر إليها وهى تذهب إلى الخزانة، تفتحها، وهى تقول: متى سنسافر إلى "أسيوط"؟

أخرجت قميص نوم حريرى أصفر، وأخرجت زجاجة عطر تأخذ شكل أوزة، وقال: نَسيتى يا "زليخة"؟! الطَّبيب قال أرضك بور.

وأخذ يضحك، كانت تخلع جلبابها الذى أزاح طرحتها، وقالت: وقال بذورك ضعيفة.

مرَّت السُّنون الطَّويلة، وما مر ألق جسد "زليخة"، النِّساء يكبرن وهى تصغر، أخذ يتأمَّل عُرى ذراعيها وصدرها وهى ترتدى قميص نومها الأصفر، المحاط بزيق نحيل ذهبيًّا برَّاق، نهداها مشدودان، وحلمتاها تريدان ثَقب الحرير، عينا "زليخة" من غير كحل توهة، فلماذا تجلس إلى مرآتها وتكتحل؟!

- يا بنت النَّاس أنت طيَّرت عقلى من زمان، تكتحلين لتصرعى قلبى؟!

ويقهقه بضحكته الصَّافية، الضِّحكة التى تفجِّر منابع الحنان فى روحها.

تترك تسريحتها، وشعرها مياس، غجرى، يهز وجدان "سعدون"، وتتَّجه إلى السَّرير، تقفز إليه مثل غزالة الصَّحراء، وترمى جسدها فوقه فيغرق فى فيضان عشق دافئ.

- نذهب مرَّة أخرى إلى "أسيوط"، وأخرى، وأخرى.

يحيط خصرها الممصوص بذراعيه السَّمينتين، ويهمس: ماذا تريدين من "أسيوط" يا روح "سعدون"؟

تُعرض بوجهها عن وجهه إعراض الدَّلال، وتقول: عيِّل.

- أنا عيِّل يا "زليخة"، حتى انظرى، أنا جائع وأريد أرضع، وااء، وااء.

ويقهقه.

وتنظر إليه من فوق، تبتسم بوجه رائق، ثم تدنو برأسها منه، وحمرة النِّيران فى شفتيها، وذراعاها يحيطان برقبته، وتهمس: ما تشبع من الضَّحك أبدا، ستموت يا "سعدون" وأنت تضحك.

فتح عينيه يتأمَّلها وهى تنسال بوجهها ناحيته، وجه يمنح الحياة بكرم، وابتسم.

*****

- وجدناه يا "بكير" ممدَّدا على سريره ضاحكا، وعيناه تنظران إلى فوق، وفيهما لهفة، لكن "غنيمة" مات ووجهه متكدِّر، منكفئ على وجهه خلف باب بيته.

كان "بكير" يرتج فوق سنام ناقته، يسمع صوت أبيه القادم إليه رقيقا، فيه بحَّة كأنه يبكى، وناقتاهما تمضيان فى نور صباح ابتعثته شمس مبهرة، رغم حرارة الصَّيف القائظ فى "مسرى" إلَّا أن النَّسمات كانت طريَّة، ترطِّب الصَّدر.

- الولد "سليم" سيعيش حياته، أعلن حبَّه للبنت، وها هو ينحت لها أضخم تمثال.

فتح "بكير" عينيه ليندهش، لكن عينيه انكسرتا بسرعة، لأن "حجيزى" ما توقف عن قول العجائب منذ خرجا من "الوعرة".

- كنت وعدت "سليم" إننى سأقول له عندما يكبر كيف يمكن للقصَّة غير الحقيقية أن تكون حقيقية فى نفس الوقت، هو كبر الآن وصار يحب البنات، قل له جَدُّك يقول لك، الحكاية التى لا تجرى فى بلدك يمكنك أن تقول عنها إنها غير حقيقية، لكن الدُّنيا كبيرة، والنَّاس يملأون الأرض، والحكاية التى لا تجرى تفاصيلها فى بلدك، تجرى حتما فى بلد آخر، الحكايات دائما تكون حقيقية.

ثم هتف: وَلَد يا "بكير"، متى تنحت تمثالا أنت الآخر لـ"ثريَّا"؟!

كان كلام "حجيزى" هذه المرَّة مباغتا جدا لـ"بكير"، ففتح عينيه على اتساعهما، لكنَّه لم يجب.

- عندما تغيب شمس اليوم ستكون روحى قد غابت معها، اسمع كلامى جيدا، كلام المغادرين دائما ثمين وصادق، حافظ على امرأة تحبك، حتى لا تلقى بنفسك فى منافى الرَّب.

"منافى الرَّب؟ وما منافى الرَّب؟!"

- الحزن يا "بكير".

الصَّحراء تتحرك ببطء، والمدق الضيِّق يتلوَّى بتثاقل شديد، مثل أفعى تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبعد أن مالت الشَّمس بكل جبروتها الملتهب عن كبد السَّماء، بدا فى سراب الأفق شبح شجرة يرتعش، شجرة البرتقال، وهمس "حجيزى": النِّهاية.

*****

الشَّجرة وارفة ومزهزهة رغم نار الصيف المشتعلة، وعندما وصلا إليها، أناخا ناقتيهما تحت ظلالها، رغت النَّاقتان بابتهاج، ونزل "بكير"، لكن "حجيزى" بقى جالسا على سنم ناقته، فقال "بكير": تدَلّ يا والدى.

لكن "حجيزى" لم ينزل، بقى جالسا فوق السنام، صامتا.

تذكَّر "سعدون"، فى أى منطقة تحت ظلال هذه الشَّجرة ركب "سعدون" على "زليخة" ونا..، وأين كانت تربض ناقتهما لمَّا ضبعت.

- ما تستطيع النُّزول، راحت قوَّتك يا "حجيزى"، ثلاثة نهارات وليلتان وأنت لا تشرب الماء، وتسف القرض، قلت لك أن هذا هو الذى سيميتك، وليست الرُّؤيا أبدا.

"الولد بكير لا يعرف شيئا، لا تُعجز قلة الماء المُصِر على بلوغ الهدف، لكنِّى الآن سأنزل من على سنم ناقتى النُّزول الأخير، لن أركب النُّوق مرَّة أخرى، وهذا السِّنام الذى ما ركبه غيرى سيصير مشاعا، بالتَّأكيد أنا الآن ألفظ أنفاسى الأخيرة، وكل ما سأفعله فى هاتين الساعتين القادمتين لن يكون بمقدورى فعله مرَّة أخرى".

أراد أن ينزل فارتعشت أعصابه، وأحس بوهن يسيطر على عظام مفاصله، فنادى بصوت خافت: يا ولد، تعال ساعدنى كى أنزل.

"لابد الآن من تناول ثمار البرتقال، أحب رائحته، علها تنبعث من جسدى بعد موته فيطاق بقاؤه بين الأحياء".

تخذله قدماه تماما، كان متعلِّقا برقبة "بكير"، وكان "بكير" يسحبه حتى أجلسه مستندا بظهره إلى جذع الشَّجرة، وعندما رفع رأسه لينظر فى أغصانها باحثا عن ثمرة برتقال لم يستطع رؤية سوى جزء صغير من هذه الأغصان، فزحزح نفسه ليرتمى على ظهره، فتصبح كل الأغصان فى مجال رؤيته.

- "بكير"، هات لى هذه البرتقالة.

رأى "بكير" صدر أبيه يعلو ويهبط بعنف، ورآه يُدخل يده فى جيبه، يُخرج كيس "القرض" ويسف منه، فرأى عضلات وجهه تتقلَّص من قسوة المرارة، ونظر إلى الشَّجرة، فلم يجد بها أيَّة ثمرة من ثمار البرتقال.

- شجر البرتقال لا يثمر فى "مسرى" يا "حجيزى".

قال "حجيزى" بصوت مخنوق: لكنِّى أرى واحدة هناك.

أخذ "بكير" ينظر إلى المكان الذى يذهب إليه بصر والده، فلا يرى شيئا: أين هى؟!

رفع "حجيزى" ذراعه بوهن، وأشار بسبَّابة مهتزَّة، وقال: هناك يا أعمى.

أخذ "بكير" يدقِّق النَّظر، وهو يلوى عنقه ويدور برأسه فى كل نواحى أغصان الشَّجرة، ليس ثمَّة أى برتقالة.

صرخ "حجيزى" وهو يعتدل من رقدته، جاءته قوَّة، وقال: أنا سأصعد الشَّجرة وآتى بالبرتقالة.

وكان قد وقف على قدميه كأشد ما يكون الرَّجل، لمَّا رأى "بكير" ينظر إليه فى غاية الاندهاش، قال هاتفا بحنق: قرِّب لى النَّاقة، ضَعها تحت هذا الغصن القريب.

ليس بمقدور "بكير" إلَّا أن ينفِّذ أوامر أبيه، فقرَّب النَّاقة، ليعتلى "حجيزى" سنمها برشاقة، ثم يتعلق بالغصن مثل قرد، والبرتقالة نصب عينيه.

"لن يضيع كل شىء هكذا ببساطة، الأعمى لا يريد أن يرى البرتقالة، وأنا أريد أن يصير جسدى بعد الموت فوَّاحة عطر، كى لا يلقون بى فى الأماكن المعتمة المهجورة من البيوت، عندما أصير فوَّاحة عطور سيضعوننى فى جوارهم، فى أماكن أنسهم، يأخذون من عطرى، وآخذ من ونسهم، الولد بكير لا يفهم شيئا، سيضيِّع بعمى قلبه وبصيرته كل ما أسعى إليه طوال هذا العمر".

وفى قلب الشَّجرة شعر بالوهن يضربه مرَّة أخرى، كانت الشَّمس تتَّجه نحو المغيب، وكان ينظر إليها بعينين محمومتين، مع غروب هذه الشَّمس ستغرب حياته تماما، فنظر الى البرتقالة التى كانت تتأرجح باهتزاز الغصن المعلَّقة فيه تحت ثقل حركة "حجيزى"، برتقالة كبيرة، صفراء برَّاقة، تنضح بمرح ليس هذا الوقت أوانه.

لم يكن بينه وبين البرتقالة سوى أقل من ذراع واحدة، لكن الجهد الذى بلغ منه، جعل المسافة أبعد تراميًا من آفاق الصَّحراء، كان يحارب الآن كل عجزه، وليس من المعقول أبدا أن يعمل لهذه اللَّحظة امتداد عمره، ثم يفشل فى الذراع الأخيرة منه.

كان "بكير" يراقب والده من أسفل، ودموع تنساب من عينيه، لم يكن يتخيل أن حال أبيه سيسوء هكذا، لم يكن "بكير" يعتقد أبدا أن "حجيزى" سيموت فعلا، كل ما هنالك، اعتقد أن أباه قد أصابه الخرف أخيرا.

ما هذا الغبار الذى ينبعث فى الأفق، ويتعالى نحو الشَّمس الغاربة؟!

ثم بدت فى وسط الغبار نقطة سوداء، نقطة تكبر وتكبر.

كانت فرسا ينسكب على الرِّمال مثل فيضان هادر، يأتى من قلب الصَّحراء المهجورة، وفوقه فارس يجلس عليه جلسة الصَّناديد.

وتعلَّق بصر "حجيزى" به، وشعر بقلبه يحن، وهتف هاتف فى وجدانه: إنه المُعزِّى.

"لو صدق المسيح فى وعده لى فلابد وأن يكون هذا الفارس هو المُعزِّى، وإلا متى سيجىء إن لم يأت الآن؟".

توقَّف الفرس تحت أغصان الشَّجرة، أسود غُرا محجَّلا، عليه فارس ربعة، هامته كبيرة، وشعره سيَّاحا من أسفل عمامة خضراء يندلق على كتفيه، وعيناه واسعتان سوداوان، فيهما ألق الرَّاحة، تحيط خصره بذراعيها امرأة وجهها يسكب دما أحمر، غاية فى الجمال والفتنة، وشعرها يتضوَّع مع النِّسمة الخفيفة مثل مسك دافئ، وعيناها تنضحان العشق.

"مال بكير لا ينظر إليهما؟! أعمى هذا؟!".

سمع "حجيزى" صوتا رائقا مثل ماء النَّبع يناديه: يا "حجيزى".

التفت إلى الفارس، كان "حجيزى" متمدِّدا فوق الغصن متشبِّثا به يحاول الثبات فوقه، بينما الفارس ينظر إليه باسما، والمرأة التى خلفه ما زالت تحيط خصره بذراعيها، وهى تضع رأسها ما بين كتفيه وقد أسبلت عينيها، والفرس يحمحم، رقبته معقوفة، ينقِّل أقدامه كأنه يرقص فى مكانه.

- إذا صرت فوَّاحة عطور، ستفتح طريقا واسعا لمهانة الإنسان يا "حجيزى"، وما أراد الله للإنسان أن يكون مُهانا حتى بعد موته.

"عندما تتحوَّل الأجساد الميتة إلى فوَّاحات عطور، ولا يكون حولها من الأحياء إلا أحفاد، سيتبادلون الجثث الفوَّاحة فيما بينهم، سيتعاملون معها كما يتعاملون مع أى فوَّاحة عطور جامدة، وعندما تمتلئ البيوت بهذه الفوَّاحات، سيحطِّمونها بأيديهم ليتخلَّصوا منها وهم يشربون الشَّاى، لا مكان للموتى بين الأحياء وإن صاروا فوَّاحات عطور".

- من هذه المرأة التى تجلس خلفك.

ابتسم الفارس وقال: هذه أسيرتى، أسرتها بالحب، وأنا مليكها، ملكتنى بالعشق، هذه التى سألتُ الله أن يقبض روحى بين سحرها ونحرها، وأن يكون آخر ماء يدخل جوفى رضابها.

- تحبُّها كل هذا الحب ؟!

- وهل كان ممكنا أن أبلِّغ رسالتى من غير حب امرأة؟!

- وما رسالتك ؟! من أنت أيها الفارس ؟

- المجد للإنسان الذى يعرف قيمة نفسه، ربُّ هذه الأرض، والعزَّة لله، الذى خلقه ليكون خليفة، وأوَّل ما علَّمه علَّمه سر أسماء مفاتيح الرُّبوبية، أنا الذى قلت للإنسان أعظم كلمة: اقرأ، وأيقظ العقل، لتعرف كم أنت عظيم. أنا الذى قال لك "المسيح" انتظره.

- إذن أنت المُعَزّى.

نظر الفارس إليه بعينين حانيتين، بينما يربت على ركبة المرأة التى كانت تريح صدغها بين كتفيه، تمسح وجهها بدلال فى شعره الذى ينساب ميَّاسا من تحت عمامته الخضراء.

"كم هو جميل ورائق هذا المُعَزّى، ما اسمه ؟!"

- يا "حجيزى"، القبر منبع الذِّكرى، والدَّفن حياة، يبقى الإنسان حيا فى ذاكرة الأحياء بكامل هيئته وصورته طالما هو مدفون فى قبر.

- تريدنى أترك الدُّنيا التى عمرتها، وأروح فى طى النِّسيان ؟!

- ارجع إلى الوراء، وانظر لحال الجثث التى عاشرت مواتها، هل تحب أن تعيش حيا بجوارها حتى وإن فاحت منها العطور؟، لذلك اسمع كلامى، الدُّنيا التى عمّرتها بحياتك لا تخربها بموتك، ولن يستطيع النسيان أن يقترب من رجل ظل عمره يحاربه، لقد قتلت النِّسيان يا خليفة الله.

كان "حجيزى" بائسا وهو يقول: كيف وأنت تريد لى الدَّفن ؟!

شارفت الشَّمس على المغيب، ولم يعد بينها وبين حد الأفق سوى طول رمح، وسكون الصَّحراء ناصع، وينبثق صوت المُعزِّى: حتى وإن دُفن

جسدك، فلن تُدفن ذكراك، فأنا أعلم اليوم الذى سيوحى فيه بقصتك إلى قلب كاتب ملهم، سيكتبها سفرا مفصَّلا، تضرب الرَّوعة فى أطنابه، فيذيع خبر هذا السِّفر فى كل الأرض، ليعلم النَّاس فى كل أزمان العالم القادمة قصة "حجيزى بن شديد الواعرى"، خليفة الله الحق، الذى صام عن الحياة ليعيشها أبدا، وحارب النِّسيان مائة عام، ففاز بالذِّكر ما دامت الدُّنيا تحيا.

ابتسم "حجيزى"، بسمة مرتاحة، ما ابتسم مثلها من قبل، وهدأت روحه.

"كاتب مُلهم، وما كاتب مُلهم، وما السِّفر؟!"

_ السِّفر الخلود، والكاتب المُلهم هو واهب الخلود، كأنى أراه يمشى بين النَّاس مهموما بك، يحمل روحك التى أضناها هم الفناء، يريد الهروب معك إلى دوام الحياة، حيث بقاء أبديا.

وبينما يركن رأسه إلى الغصن، رأى الفرس يتحرك وهو يحمحم، ورأى المرأة تقبل المُعزِّى بين كتفيه، وخطر خاطر فى وجدانه: يا لسعادة هذا الفارس بهذه المرأة العاشقة.

وعندما طرقت هذه الخاطرة عقله، كان الفرس قد تحوَّل إلى نقطة سوداء تزحف نحو قرص أحمر ضخم، يقترب جدا من رمال الأفق البعيد: ما اسم هذا المُعزِّى الذى هدَّأ روعى، لو كنت حكيت لـ"غنيمة" عنه كان أخبرنى باسمه، ابن كلب دار فى البلاد وعرف.

وابتسم: اسمه ليس مهمًّا، المهم انه قد جاء وعزَّانى، والمهم أن "المسيح" لم يكذب علىّ.

رفع رأسه وأخذ يزعق: يا "بكير"، يا ولد.

وأجابه "بكير" مفزوعا من صراخه: نعم يا "حجيزى"، ماذا تريد؟

- أحفر قبرا، أحفر قبرا، أحفر قبرا.

هذه الصَّحراء المفتوحة عادة تمتص الأصوات، ومهما علت لا تسبب ضجيجا، لكن صراخ "حجيزى" تردَّد مثل صدى ضارب، أرعب قلب "بكير"، وفجَّر طبلتىّ أذنيه، فزعق هو الآخر مدهوشا: يا والدى!

لم يكن هذا صوت "حجيزى"، ولكنَّه كان رعد السَّماء يخبط الأجواء: أحفرررر قاااااابر.

مثل مجنون، جرى "بكير" ناحية ناقته، وسحب المسحاة من سرير الخشب الذى يحيط بسنامها.

- هنا، احفر هنا.

أخذ يحفر فى المكان الذى كانت ذراع "حجيزى" تشير إليه، أسفل الغصن الذى يتمدَّد عليه "حجيزى" وقد خارت قواه.

أخذ "بكير" يحفر بكل قوته، وقد التاث عقله، كان الغبار يرتفع ويرتفع، وكانت الشَّمس تتدنَّى وتتدنى، وقد أوشكت أن تختفى بتمامها عندما انتهى "بكير" من الحفر.

فى هذه اللحظة التى اختفت فيها حافَّة الشَّمس الأخيرة خلف رمال الأفق، شعر "حجيزى" برائحة ماء بحر "العلمين" تتسلل إلى صدره، وتربت على قلبه فيهدأ، ثم رأى طيورا بيضاء تهاجر بسكينة فى عمق سماء بعيدة.

ظلَّت عينا "حجيزى" تتابعان حركة السرب المرفرف، لتثبتا فى مراقبته.

ثم جحظت عيناه فجأة، كأنه فوجئ بمشهد مذهل، روَّع عقله إلى حد التخلِّى عن السيطرة على الجسد، ليميل ببطء فاقدا ارتكازه على الغصن.

أخذ جسد "حجيزى" يميل، ويتزحزح، ثم يهوى من فوق الغصن.

عندما تخلَّى الجسد عن الغصن اهتز بعنف، وتراقصت البرتقالة مثل نهد فجّرَه عشق، فتضوّعت رائحة البرتقال، بينما انطلقت جثَّة "حجيزى" متَّجهة إلى القبر، كأسرع ما يمكن لجثَّة أن تتَّجه إلى قبرها.

تمت

صدر للكاتب:

الجبريلية / مجموعة قصصية / الهيئة العامة لقصور الثقافة 1995
الصنم / رواية / الهيئة العامة لقصور الثقافة / 1999
الفرس ليس حرا / مجموعة قصصية / الحضارة للنشر / 2011
السكاتة / مجموعة قصصية للأطفال / الهيئة العامة لقصور الثقافة 2013
منافى الرب / رواية / الحضارة للنشر / 2013

تحت الطبع

أهواك / مجموعة قصصية / أخبار اليوم- كتاب اليوم.